الشوقيات
الجزء الثاني

ومن أهم أبواب هذا الجزء باب النسيب، ومن أهم قصائده قصيدة (يا نائح الطلح) ولن أتكلم عن هذه القصيدة [١] ولا عن ذلك الباب لأني أكره أن أنشر بحثا نشرته من قبل وأنا تكلمت بالتفصيل عن نونية شوقي في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء)[٢] وتكلمت عن غزليات شوقي [٣] بالتفصيل في الطبعة الثانية من كتاب (البدائع).

تاريخ القصائد:

شوقي لم يؤرخ قصائده جميعا ولو أنه فعل لأعفى النقد الأدبي من التعب في تعقب أسباب الضعف والقوة في شاعريته العصماء.. والظاهر أن وضوح التواريخ أمام عينيه أفهمه أن الناس لن يحتاجوا عند النظر في قصائده إلى تاريخ والأمر كان كذلك بالفعل فقد كنت أعرف المناسبات التي قيلت فيها تلك القصائد ثم طغت الشواغل فأنستني ما لم أكن أحب أن أنساه، ولعل أبناء شوقي يلاحظون هذا المعنى فيذكرون جميع التواريخ في الطبعة الثانية.

أقدم القصائد المؤرخة قصيدة (طابع البريد) في العاشر من سبتمبر سنة ١٩٠٠ وتليها أبياته في وصف معرض الأزهار والثمار في باريس سنة ١٩٠١

---

(١)الرسالة الأعداد ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢ نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٤٢.

(٢)الكلام عن قصيدة يا نائح الطلح في هذا الكتاب.

(٣)الكلام عن غزليات شوقي في هذا الكتاب.

ثم وصف المرقص الذي أقيم في قصر عابدين سنة ١٩٠٣ والمرقص الذي تلاه في سنة ١٩٠٤.

وهذه القصائد لا ترتقي إلى منزلة القصائد التي نظمها بعد أن استحصدت قواه الشعرية ولكنها مع ذلك تشهد بأن (شوقي) فطر منذ البداية على إجادة الغناء.

من كل فاكهة زوجان:

في هذا الجزء نرى قصائد فرنسية وقصائد تركية ومصرية وقصائد سورية ولبنانية قصائد وصف بها عواطفه الصحاح نحو فرنسا وتركيا ومصر وسورية ولبنان قصائد تقيم أصح البراهين على أن (شوقي) أحب جميع ما عرف من الناس، وهنالك ظاهرة يجب النص على تفسيرها الصحيح وهي إفراط شوقي في أخريات أيامه على الإشادة بمحاسن الشام ولبنان فما تفسير هذه الظاهرة النفسية؟؟

كان شوقي لا يحب إلا من يروي شعره وكان هواه مقصورا على من يؤمن بأنه أشعر الناس، وقد وجد في سورية ولبنان جماعات كثيرة تعرف من سرائر شعره أكثر مما يعرف؟ وتذهب في تمجيده إلى آفاق لا يطيف بها الخيال..

وهل أسرف إذا قلت: إن تلطف شوقي في الحديث عن المسيحية يرجع إلى مراعاة عشاق شعره من النصارى العرب؟؟

الإسلام يحكم بكفر من يتطاول على المسيح ولكنه لا يفرض على المسلم أن يتغنى بمجد المسيح فكيف جاز لشوقي أن يجعل الثناء على المسيحية من أغراضه الشعرية؟؟

السبب هو ما أقول، هو أن شوقي وجد في نصارى لبنان رجالا يؤمنون بأدبه الرفيع فجازاهم وفاء بوفاء، وقال في المسيح كلاما يقره أدب القرآن، وهل وصف المسيح بأفضل مما وصفه القرآن؟

كان شوقي ينعطف من لبنان إلى سورية بروحانية قليلة الأمثال:

خلفت لبنان جنات النعيم وما ... نبئت أن طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت إلى فيحاء وارفة ... فيها الندى وبها (طي) و(شيبان)
نزلت فيها بفتيان جحاجحة ... آباؤهم في شباب الدهر غسان
بيض الأسرة ياق فيهم صيد ... من (عبد شمس) وإن لم تبق
يا فتية الشام شكرا لا انقضاء له ... لو أن إحسانكم يجزيه شكران
ما فوق راحاتكم يوم السماح يد ... ولا كأوطانكم في البشر أوطان

فما هو الكرم الذي أضفاه الشاميون على شوقي وكان أغنى الناس عن سخاء الأسخياء؟؟ هو الكرم الذي وصفه في قصيدة ثانية حين قال:

رواة قصائدي فاعجب لشعر ... بكل محلة يرويه خلق

والواضح مما قرأت وما سمعت أن (شوقي) لم يذق طعم النعيم إلا في سورية ولبنان فقد كان في أبناء تلك البلاد الجميلة من يسمع شوقي آلاف

الأبيات من شعره في اليوم الواحد، وكان فيهم من يسمعه قصائد غابت عن وعيه الدقيق، وكان شوقي يتلقى تلك التحيات بالبكاء..

ولبكائه هنالك صورة يتحدث عنها الشاعر أمين نخلة إن صحت رواية الأستاذ صلاح الأسير.

وحب شوقي للشام هو الذي جعل قواطفه أموية:

بنو أمية للأنباء ما فتحوا ... وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها ... في كل ناحية ملك وسلطان
يا ويح قلبي مهما انتاب أرسمهم ... سرى به الهم أو عادته أشجان
بالأمس قمت على الزهراء أندبهم ... واليوم دمعي على الفيحاء هتان
في الأرض منهم سموات وألوية ... ونبرات (وأنواء) وعقبان
معادن العز قد مال الرغام بهم ... لو هان في تربه الإبريز ما هانوا
لولا دمشق لما كانت طليطلة ... ولا زهت بيني العباس بغدان
مررت بالمسجد المحزون أسأله ... هل في المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته ... إذا تعالى ولا الآذان آذان

ومع هذا لم ينس شوقي حق العلويين فتحدث عنهم في مواطن كثيرة أشهرها الموطن الذي اختلقه اختلاقا في مسرحية مجنون ليلى إنْ صدَّقْنا افتراض الدكتور طه حسين.

وخلاصة القول أن عواطف شوقي منوعة الأصول والفروع فقد سما بنفسه عن الشعوبية ورأى أن يكون شعره ميراث الشرق على ما فيه من اختلاف النوازع والميول:

كان شعري الغناء في فرح الشر ... ق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر ... ح وأن تلتقي على أشجانه
كلما أنَّ بالعراق جريح ... لمس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم حديد ... تتنزى الليوث في قضبانه
نحن في الفقه بالديار سواء ... كلنا مشفق على أوطانه

مصرية شوقي:

وبرغم التنوع في العواطف كان شوقي شاعر القومية المصرية ولعله أول شاعر جعل من همه وصف مصر في أحلامها وأهوائها وأمانيها بما هي له أهل، وأول شاعر ذاق ما في مصر من قرارة النعيم والبؤس وإن كان شفى ما في نفسه حين قال في غمز الحكومة التي سمحت بنفيه في أوائل الحرب الماضية.

(وطن توالت عليه حكومات وحكومات تقول فتجد وتعمل فتهزل ولا تحسن من ضروب الإصلاح إلا أن تولي وتعزل).

حكاية المستر روزفلت:

هو رئيس أسبق للولايات المتحدة وكان قد زار مصر في سنة ١٩١١ أو قريبا من ذلك فما يتسع وقتي لتحديد التاريخ.

والظاهر أن روزفلت السابق فاه عند زيارته للسودان بكلام لا يرتضيه المصريون فيرد عليه الشيخ علي يوسف في جريدة المؤيد بمقال كان آية في البيان ثم اندفع شوقي فحاوره بأسلوب غير ذلك الأسلوب، اندفع فحدثه عن عظمة مصر الممثلة في قصر أنس الوجود..

أيهـــا المنتحـــي بأســـوان دارا ... كالثريـــا تريـــد أن تنقـــضا
اخلـع النعـل واخفـض الطـرف ... لا تحـاول مـن آيـة الـدهر غـضا

وهي قصيدة نفيسة المعاني وهي من عيون الشوقيات.

قصيدة النيل:

هي قافية في ١٥٣ بيتا أرسلها المستشرق مرجوليوث مع مقدمة نثرية قلقة الأسجاع، قصيدة يرجع عهدها فيما افترض إلى أيام حرب البلقان، فهي إذن من غرر شعره القديم، وليس من العدل أن نجاري الأستاذ المازني في القول بأن شاعرية شوقي لم تتفتح إلا بعد النفي فأنا أرى أن قصيدة الأندلس الجديدة التي قالها بمناسبة سقوط أدرنه في سنة ١٩١٢ لا تقل جودة عن أبرع ما جاد به خاطره في النفي وبعد النفي، والحق أن (شوقي) نضج في وقت مبكر فقصيدته التي قالها في المؤتمر الشرقي بمدينة جنيف سنة ١٨٩٤ تعد من القصائد الجياد وهي الباكورة التي بشرت بأن سيكون له مقام بين شعراء القصص التاريخي.

ونرجع إلى قصيدة النيل فنقول:

أراد شوقي بهذه القصيدة تمجيد العنصرية المصرية ممثلة في النيل السعيد، وقد رحب الشاعر بالألفاظ الجارية على ألسنة الفلاحين في أعمال السقي

والغرس والحصاد وطاف به الخيال حول عهود التاريخ فشرح ما مر بهذه البلاد من عقائد وديانات شرحها برفق لأنه لم يرد النقد وإنما أراد التسجيل.

ولو شئت لقلت: إنه اعتذر عن ظلم الفراعين فقد عد إرهاقهم للشعب في بناء الهياكل بابا من المجد المرموق.

هي من بناء الظلم إلا أنه ... يبيض وجه الظلم منه ويشرق
لم يرهق الأمم الملوك بمثلها ... مجدا لهم يبقى وذكرا يعبق

ويرى الشاعر أن الأرض والسماء لا تبيدان إلا برجفة القيامة، أما قيامة مصر فهي جفاف النيل الذي خاطبه الشاعر فقال:

من أي عهد في القرى تتدفق ... وبأي كف في المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا تترقرق
وبأي عين أم بأية مزنة ... أم أي طوفان تفيض وتفهق
وبأي نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يخلق
تسود ديباجا إذا فارقتها ... فإذا حضرت اخضوضر
في كل آونة تبدل صبغة ... عجبا وأنت الصابغ المتأنق
أتت الدهور عليك مهدك مترع ... وحياضك الشرق الشهية دفق
تسقي وتطعم لا إناؤك ضائق ... بالواردين ولا خوانك ينفق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا ... والأرض تغرقها فيحيا المغرق

ونظر الشاعر فرأى الوثنية المصرية تأمر بعبادة النيل فشاء له الأدب أن يوجه تلك العبادة توجيها يرفع عنها إصر الشرك بواجب الوجود:

دين الأوائل فيك دين مروءة ... لم لا يؤله من يقوت ويرزق

لـــو أن مخلوقـــا يؤلـــه لم تكـــن ... لـــسواك مرتبـــة الألوهـــة تخلـــق
جعلـوا الهـوى لـك والوقـار عبـادة ... إن العبـــادة خـــشية وتعلـــق

ثم نظر الشاعر فرأى أن المصريين القدماء كانوا يهتمون ببناء القبور أضعاف ما يهتمون ببناء البيوت فاتخذ من ذلك دليلا على حبهم للخلود:

بلغـوا الحقيقـة مـن حيـاة علمهـا ... حجـــب مكثفـــة وسر مغلـــق
وتبينـوا معنـى الوجـود فلـم يـروا ... دون الخلـــود ســـعادة تتحقـــق
يبنـــون للـــدنيا كـــما تبنـــي لهـــم ... خربـــا غـــراب البـــين فيهـــا ينعـــق
فقـــصورهم كـــوخ وبيـــت بـــداوة ... وقبـــورهم صرح أشـــم وجوســـق

ولم ينكر الشاعر في تفنيد خرافة (عروس النيل) وإنما جعلها حقيقة شرعية حين قال:

ونجيبـــة بـــين الطفولـــة والـــصبا ... عـــذراء تـــشربها القلـــوب وتعلـــق
كـــان الزفـــاف إليـــك غايـــة حظهـــا ... والحـــظ إن بلـــغ النهايـــة موبـــق
لاقيـــت أعراســـا ولاقـــت مأتمـــا ... كالـــشيخ يـــنعم بالفتـــاة وتزهـــق

إلى آخر ما قال في هذا المعنى الدقيق. وقد اعتذر عن أسطورة (أبيس) فجعلها نوعا من الوفاء للدين:

قـــوم وقـــار الـــدين في أخلاقهـــم ... والـــشعب مـــا يعتـــاد أو يتخلـــق

ولم يفت الشاعر أن يسجل في أبيات كريمة أن مصر التي كانت موئلا للديانة الفرعونية هي مصر التي آوت الديانة الموسوية والديانة العيسوية والديانة المحمدية، ولم يفته أيضا أن ينص على عدالة عمر بن الخطاب الذي

ضرب ابن عمرو بن العاص بالسوط حين سمع أنه أهان أحد الأقباط وقال في ذلك كلمته التاريخية: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا).

ثم ماذا؟؟

ثم يختتم شوقي قصيدة النيل بأبيات تفسر معنى الوطنية فالناس عنده يحبون الوطن لأنه مصدر سعادتهم لأنه المستقر الأمين لأبنائهم:

مما يحملنا الهوى لك أفرخ ... سنطير عنها وهي عندك ترزق
تهفو إليهم في التراب قلوبنا ... وتكاد فيه بغير عرق تخفق
ترجى لهم والله جل جلاله ... منا ومنك بهم أبر وأرفق

مصاير الأيام:-

هذا عنوان قصيدة صور بها شوقي صروف الحياة من عهد الطفولة إلى عهد المشيب ابتدأ الشاعر بحياة الطفل في المكتب والمكتب كلمة جديدة يراد بها المدرسة الأولية وهي كذلك في عرف المعارف، فهي تقول: المكاتب العامة بعد أن كانت تقول: المدارس الأولية وكان العرف المدرسي قبل سنين يعمم كلمة المكتب بحيث تشمل حجرة الدرس ولو كانت في مدرسة عالية.

وشوقي في هذه القصيدة يتمثل حياة الأطفال ويحسها أصدق إحساس:

ألا حبذا صحبة المكتب ... وأحبب بأيامها أحبب
ويا حبذا صبية يلعبو ... ن عنان الحياة عليهم صبي
كأنهمو بسمات الحياة ... وأنفاس ريحانها الطيب

وعبارة (عنان الحياة عليهم صبي) عبارة طريفة والمراد بصبا العنان هو الرقة واللين ثم يتلفت الشاعر فيرى أن الأطفال لا يفرحون بالمكتب كل الفرح ولا يرتاحون إليه كل الارتياح وكيف والأمر كما قال:

يسراح ويغسدى بهسم كسالقطيع ... عسلى مسشرق السشمس والمغسرب
إلى مرتسسع ألفسسوا غسسيره ... وراع غريسب العسصا أجنبسي

وهذان البيتان من أروع ما صورت به حياة الأطفال في رعاية المعلمين..

وصور اختلاف قواهم باختلاف أسنانهم فقال:

فسراخ بأيسك فمسن نساهض ... يسروض الجنساح ومسن أزغسب

وصور غفلتهم عن المصير المرتقب فقال:

مقاعسدهم مسن جنساح الزمسا ... ن ومسا علمسوا خطسر المركسب

وقد جاد الوحي على شوقي ببيتين في غاية من العذوبة والصدق أما البيت الأول فهو قوله في تلوين حيوية الأطفال:

عسصافير عنسد تهجسي السدرو ... س مهسار عرابيسد في الملعسب

وأما البيت الثاني فهو قوله في اختلاف الإحساس باختلاف أوقات الجرس:

لهسم جسرس مطسرب في السسرا ... ح ولسيس إذا جسد بسالمطرب

وهل ينسى المدرسون لا التلاميذ أن جرس الانصراف محبوب الرنين، وأن جرس الدرس بغيض الضجيج؟

وأذكر من باب الفكاهة أني كنت أشرح لأحد نظار المدارس قيمة الطرافة في هذا البيت فقال: إن شوقي نسي جرس الغداء..

ثم قال شوقي:

جنـون الحداثـة مـن حـولهم ... تـضيق بـه سـعة المـذهب
عـدا فاسـتبد بعقـل الـصبي ... وأعـدى المـؤدب حتـى صـبي

والغرض قد التوى على شوقي في هذين البيتين بعض الالتواء لأنه ساوى بين الجنونين: جنون الأطفال وجنون المعلمين.

وأخطأ شوقي في اختيار كلمة (المؤدب) والصواب أن يقول (المعلم) فهناك فرق بين التأديب والتعليم فالتأديب هو التثقيف والتعليم هو الترتيب وفي كلام الجاحظ عبارة تفصح عن الفرق بين المؤدب والمعلم وتدل بوضوح على أن المؤدبين أكبر من المعلمين.

ثم نقل شوقي تلاميذه من المكتب إلى المدرسة ثم إلى الحياة فقال:

فيـا ويحهـم هـل أحـسوا الحيـا ... ة لقـد لعبـوا وهـي لم تلعـب
تجـرب فـيهم ومـا يعلمـون ... كتجربـة الطـب في الأرنـب
سـقتهم بـسم جـرى في الأصـول ... وروى الفـروع ولم ينـضب
ودار الزمـان فـدال الـصبا ... وشـب الـصغار عـن المكتـب
وجـد الطـلاب وكـد الـشبا ... ب وأوغـل في الـصعب فالأصـعب
وعـادت نـواعم أيامـه ... سـنين مـن الـدأب المنـصب
وعـذب بـالعلم طلابـه ... وغـصوا بمنهلـه الأعـذب

والمجال يضيق عن تشريح هذه القصيدة التي قال فيها شوقي:

وكم منجب في تلقي الدروس تلقى الحياة فلم ينجب

فأرجو أن يلتفت إليها المتسابقون لأنها من غرر الشوقيات..

قصائد سورية:

في المقال السالف نصصنا على السر في اهتمام شوقي بأخبار سورية ولبنان، فلنذكر اليوم أن الشاعر تحدث عن سورية في قصائد جياد، منها القصيدة التي تحدث فيها عن الشهداء في سبيل الاستقلال:

بني سورية اطرحوا الأماني خرجتم تطلبون به النزالا
سلوا الحرية الزهراء عنا وعنكم هل أذاقتنا الوصالا
وهل نلنا كلانا اليوم إلا عراقيب المواعد والمطالا
عرفتم مهرها فمهرتموها دما صبغ السباسب والدغالا
وقمتم دونها حتى خضبتم هوادجها الشريفة والحجالا
دعوا في الناس مفتونا جبانا يقول: الحرب قد كانت وبالا
أيطلب حقهم بالروح قوم فتسمع قائلا ركبوا الضلالا

ومنها القصيدة الأموية وقد أشرنا إليها في المقالة الماضية ومنها القصيد الذي لا يطاوله قصيد فما نظم شاعر أروع مما نظم شوقي في نكبة دمشق ولا ارتاع شاعر كما ارتاع شوقي لنكبة دمشق:

لحاها الله أنباء توالت على سمع الولي بما يشق
يفصلها إلى الدنيا بريد ويحملها إلى الآفاق برق

تكـاد لروعـة الأحـداث فيهـا ... تخـال مـن الخرافـة وهـي صـدق
وقيـل معـالم التـاريخ دكـت ... وقيـل أصـابها تلـف وحـرق
ألـست دمـشق للإسـلام ظئـرا ... ومرضـعة الأبـوة لا تعـق

وفي هذه القصيدة يقول شوقي في وصف ما صنعت النكبة بنساء دمشق:

بـرزن وفي نـواحي الأيـك نـار ... وخلـف الأيـك أفـراخ تـزق
إذا رمـن الـسلامة مـن طريـق ... أتـت مـن دونـه للمـوت طـرق
بليـل للقـذائف والمنايـا ... وراء سـمائه خطـف وصـعق
إذا عـصف الحديـد احمـر أفـق ... عـلى جنباتـه واسـود أفـق

ثم توحي إليه ملائكة الشعر أن يقول:

بنـي سـورية اطرّحـوا الأمـاني ... وألقـوا عـنكم الأحـلام ألقـوا
فمـن خـدع الـسياسة أن تغـروا ... بألقـاب الإمـارة وهـي رق
وكـم صيد بـدا لـك مـن ذليـل ... كـما مالـت مـن المـصلوب عنـق
نـصحت ونحـن مختلفـون دارا ... ولكـن كلنـا في الهـم شرق
ويجمعنـا إذا اختلفـت بـلاد ... بيـان غـير مختلـف ونطـق
وقفـتم بـين مـوت أو حيـاة ... فـإن رمـتم نعـيم الـدهر فاشـقوا
ومـن يـسقى ويـشرب بالمنايـا ... إذا الأحـرار لم يـسقوا ويـسقوا
ففـي القـتلى لأجيـال حيـاة ... وفي الأسرى فـدى لهـم وعتـق
وللحريـة الحمـراء بـاب ... بكـل يـد مـضرجة يـدق

هل يحتاج هذا الشعر إلى شرح؟ هيهات!

قصائد لبنانية:

المذاق يختلف بعض الاختلاف أو كل الاختلاف بين قصائد شوقي السورية وقصائده اللبنانية فهو في الشام يعاني نارين: الذكريات للأمجاد الأموية ونار الحقد على الاستعمار الفرنسي وقد جاهده السوريون أصدق الجهاد وعانوا في دفعه مكاره لا تطاق.

ولا كذلك حال شوقي في لبنان فهو هنالك شاعر يصدح فوق أفنان الجمال، ولا يرى ما يسوءه من الاضطهاد لأن الظواهر كانت تزعم أن الفرنسيين واللبنانيين على وفاق.

كان لبنان لعهد زيارات شوقي وطن الشعر والجمال والأمان والرخاء وكان اللبنانيون على فطرتهم الأصيلة من الترحيب الصادق بكل من يزور وطنهم فأنس بهم شوقي كل الأنس واطمأن إليهم كل الاطمئنان.

أيام شوقي في سورية كانت أيام جهاد أما أيامه في لبنان فكانت أيام شهاد.

كان شوقي يكره أن يقول أن شبابه إلى أفول وإن جاوز الستين ثم شاء شيطانه أن ينقله إلى زحلة وطن الرحيق ومعه المحامي فكري أباظة والموسيقار محمد عبد الوهاب.

وفي لحظة من لحظات الصراع بين العيون والقلوب هان عليه أن يبكي الشباب الذاهب فيقول:

شـــيعت أحلامـــي بقلـــب بـــاك ... ولمت من طرق الملاح شباكي [١]
ورجعـــت أدراج الـــشباب ووردة ... أمـــشي مكـــانها عـــلى الأشـــواك
وبجـــانبي واه كـــأن خفوقـــه ... لمـــا تلفـــت جهـــشة المتبـــاكي
شـاكي الـسلاح إذا خـلا بـضلوعه ... فـــإذا أهيـــب بـــه فلـــيس بـــشاك
قـــد راعـــه أني طويـــت حبـــائلي ... مـــن بعـــد طـــول تنـــاول وفكـــاك
ويـح ابـن جنبـي، كـل غايـة لـذة ... بعـــد الـــشباب عزيـــزة الإدراك
لم تبـــق منـــا يـــا فـــؤاد بقيـــة ... لفتـــوة أو فـــضلة لعـــراك
كنـــا إذا صـــفقت نـــستبق الهـــوى ... ونـــشد شـــد العـــصبة الفتـــاك
واليـــوم تبعـــث في حـــين تهـــزني ... مـــا يبعـــث النـــاقوس في النـــساك

وكان الرأي أن تلقى هذه القصيدة في حفلة أعدها أهل زحلة لتكريم شوقي وكان الأستاذ فكري أباظة هو الأثير عند شوقي حينذاك في إلقاء شعره البليغ، فاعترض الموسيقار عبد الوهاب قائلا: إن هذه القصيدة للغناء، وليست للإلقاء، ثم صدح بصوته الرنان:

يـا جـارة الـوادي طربـت وعـادني ... مـــا يـــشبه الأحـــلام مـــن ذكـــراك
مثلـــت في الـــذكرى هـــواك وفي ... والـذكريات صـدى الـسنين الحـاكي
لم أدر مـا طيـب العنـاق عـلى الهـوى ... حتـــى ترفـــق ســـاعدي فطـــواك
لا أمـس مـن عمـر الزمـان ولا غـد ... جمـع الزمـان فكـان يـوم لقـاك [٢]

وفي هذه القصيدة يقول شوقي على عادته في التخوف من محجب الغيوب:

---

(١) في الديوان لمحت وهي غلطة مطبعية لم ينتبه لها أكثر من نقلوا هذه القصيدة عن الديوان.

(٢) هذه القطعة مشهورة جدا، ولها ترتيب غير هذا الترتيب.

لبنـان ردتنـي إليـك مـن النـوى أقـدار سـير للحيـاة دراك
نمـشي عليهـا فـوق كـل فجـاءة كـالطير فـوق مكـامن الأشراك

مصرع شوقي:

في مكتبة الدكتور طه بك حسين ظرف مختوم كتب عليه (مصرع شوقي) فما الذي يحتويه الظرف المختوم؟

في إحدى العصريات من صيف سنة ١٩٢٥ أو سنة ١٩٢٦ حدثني الدكتور طه حسين أن (شوقي) أسف أبشع الأسف بقصيدة نشرتها جريدة المقطم عن هوى شوقي في لبنان.

وأعترف أني كنت أرى ما يرى الدكتور طه حسين في تلك القصيدة يومذاك فقد نشرت في المقطم على أسوأ حال من التحريف.

ثم دارت الأيام وعرفنا أنها أجود مما كنا نتوهم وأنها في كل خاطر وعلى كل لسان في لبنان ثم دارت الأيام مرة ثانية فعرفنا أن الأريحية اللبنانية سمحت بأن يكثر من يقولون: إن شوقي عناهم بذلك القصيد، الذي يهتف:

وأغـن أكحـل مـن مهـا (بكفيـة) علقـت محـاجره دمـي وعلقتـه
لبنـان دارتـه وفيـه كناسـه بـين القنـا الخطـار خـط نحبتـه
السلـسبيل مـن الجـداول ورده والآس مـن خـضر الخمائـل قوتـه
دخـل الكنيسة فارتقبت فلـم يطـل فأتيـت دون طريقـه فزحمتـه
فـازور غـضبانا وأعـرض نـافرا حـال مـن الغيـد الملاح عرفتـه
فـصرفت تلعـابي إلى أترابـه وزعمـتهن لبـانتي فأغرتـه

فمشى إلي وليس أول جؤذر ... وقعت عليه حبائلي فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادني ... وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرت به على حرم الهدى ... لابن البتول وللصلاة وهبته

إلى آخر القصيدة..

شعور شوقي بالوجود:

بين قصائد شوقي في سورية ولبنان وقصائده في البلاد التركية والفرنسية آماد طوال ومع هذا نجد أن إحساسه بالوجود على اختلاف الأزمان غاية في القوة والبريق، وهل ننسى أن الجرائد المصرية لم تجد عند مصرع باريس في الحرب الحاضرة غير ما توجع به شوقي لباريس في الحرب الماضية:

ولقد أقول وأدمعي منهلة ... باريس لم يعرفك من يغزوك
زعموك دار خلاعة ومجانة ... ودعارة يا إفك ما زعموك
إن كنت للشهوات ريا فالعلا ... شهواتهن مرويات فيك

ومن هذا الكلام نعرف أن للعلا شهوات أعنف من شهوات الأهواء..

وقصيدة شوقي في غاية بولونيا قديمة العهود وهي مع ذلك لطيفة النفس ذكية الروح.. وأبياته في (شبه أمينة) أبيات لطاف، وقد رأيت بعيني صورة (أمينة) في غرف كثيرة من دار شوقي بدون استثناء لحجرة الاستقبال وهي البنية التي قال فيها ذلك الأب الحنان:

وكم قد خلت من أبيك الجيوب ... وليست جيوبك بالخاليه

ثم ماذا؟

ثم يبقى الحديث عن القصيدة التي حفظها حافظ إبراهيم مع تفاصيل يوجبها التاريخ لمعرفة سرائر هذين الشاعرين.

توت عنخ آمون:

في الجزء الثاني من الشوقيات قصيدتان في توت عنخ آمون، ولهاتين القصيدتين قيمة عظيمة فقد صرح شوقي نفسه أن أعظم قصائده هي النونية الآمونية:

درجت على الكنز القرون وأتت على الدن السنون

أما حافظ إبراهيم فكان يرى أن أعظم قصيدة نظمها شوقي هي البائية الكارنارفونية:

في الموت ما أعيا وفي أسبابه كل امرئ رهن بطي كتابه

فما حديث هذه القصائد الجياد؟

كان اللورد كارنارفون من المولعين بالآثار المصرية، وقد سمح له غناه أن ينفق على الحفريات بسخاء فكلف المستر كارتر أن يحفر في وادي الملوك بالأقصر عساه يهتدي إلى مقبرة لم يهتد إليها اللصوص في العصور الخوالي.

وبعد متاعب كادت تودي بمصير اللورد كارنارفون عثر المستر كارتر على مقبرة توت عنخ آمون في سنة ١٩٢٢.

وقد التفت الباحثون من الأوربيين والأمريكيين إلى هذا الكشف أعظم التفات وقدمت التهاني إلى كارتر وكارنارفون من الهيئات العلمية في الغرب والشرق ودعيت الصحافة إلى معاينة ذلك الكشف الخطير فذهب لمعاينته ثلاثة من الصحفيين: زكي مبارك مندوبا عن جريدة الأفكار والدكتور هيكل مندوبا عن جريدة السياسة والأستاذ المازني مندوبا عن جريدة الأخبار، ولن أنسى أن المستر كارتر حدثنا عن السبب في نقص بعض محتويات المقبرة وكان الرأي عنده أن أيدي اللصوص قد امتدت إليها في عهد الأسرة العشرين. فكتبت في الأفكار أقول: إني أرجح أنها سرقت في القرن العشرين ولم يفت مراسل التيمس أن يبرق إلى جريدته بهذا التلميح فنشرته بدون تسويف، لتداعب به اللورد كارنارفون وكانت النتيجة أن يمتنع المستر كارتر عن السماح للصحفيين بزيارة المقبرة ولهذا الامتناع صدى في شعر شوقي سنشير إليه قبل ختام هذا الحديث.

لعنة الفراعنة:

هنالك خرافة تقول بأن الفراعنة يلعنون من ينبش قبورهم بعد الموت. ولهذه الخرافة أصل فقد وجد على كثير من القبور المصرية والكلدانية دعوات حرار على من ينبشون قبور الملوك، وفي القبور المصرية ما يسمى الرصد وهو تمثال يقام في مدخل القبر لتخويف اللصوص وهو حقا مخيف لأن القدماء كانوا يتوهمون أنه مزود بالسلاح والروح، وأنه يقتل من يدخل القبر بدون استئذان، وهل يستأذن اللصوص؟ فماذا صنعت لعنة الفراعنة باللورد

كارنارفون؟ أبرق إليه المستر كارتر فحضر على عجل ليشهد الكشف الجديد وبعد أيام لسعته بعوضة وهو نائم في خيمة بجوار المقبرة فمات.

حقيقة أغرب من الخيال:

كان اللورد كارنارفون أهدى إلى بنت ملك الإنجليز عقدا من العقود المصرية القديمة ففرحت به فرحا عظيما وأثابت مهديه أجزل الثواب فلما سمعت أن بعوضة لسعته فمات نزعت العقد من جيدها لئلا تلحقها لعنة الفراعين.

وفي قصة البعوضة يقول شوقي:

صادت بقارعة الصعيد بعوضة ... في الجو صائد بازه وعقابه
وأصاب خرطوم الذبابة صفحة ... خلقت لسيف الهند أو لذبابه
طارت بخافية القضاء ورأرأت ... بكريمتيه ولامست بلعابه

ثم يعلل شوقي تلك الحادثة تعليلا علميا فيذكر أنها من نتائج الوهم الذي يضعف الأعصاب؟

لا تسمعن لعصبة الأرواح ما ... قالوا بباطل علمهم وكذابه
الروح للرحمن جل جلاله ... هي من ضغائن علمه وغيابه
غلبوا على أعصابهم فتوهموا ... أوهام مغلوب على أعصابه

بين حافظ وشوقي:

كان التنافس بين حافظ وشوقي قد وصل إلى أبعد الحدود، وزاد في خطر ذلك التنافس أن حافظا كان رجلا عذب الروح وكانت له مع الصحفيين صلات يؤرث بها أحقادهم على شوقي حين يشاء..

وما أذكر غلبة شوقي على حافظ إلا تعجبت، فقد كان حافظ غاية في الذكاء واللوذعية وكان علمه بتاريخ العرب وآدابهم علما يفوق الوصف وكان فهمه لدقائق الحياة المصرية أعجوبة الأعاجيب، فكيف تفوق عليه شوقي وكان رجلا يدل مظهره وحديثه على أنه فرد من سواد الناس لا يمتاز بعبقرية ولا نبوغ؟

أكاد أجزم بأن (شهوة الحديث) هي التي أضعفت شاعرية حافظ فقط كان كثير الحديث وبالحديث وصل إلى ألوف القلوب وبالحديث ضاع، لأن الحديث يأخذ من القوى النفسية طاقات لا تصلح بعدها للغناء.

لو أن أحاديث حافظ دونت لكان فيها ثروة فكرية تفوق ما ترك شوقي من الثروة الشعرية ولكان من الممكن أن يعد من أقطاب التاريخ الأدبي في هذا الباب ولكن هذا الزمن لا تتسع تقاليده الأدبية لمثل ما كانت تحرص عليه عناية القدماء في أمثال هذه الشئون.

أما شوقي فكان يؤثر الصمت ليحتفظ بالمدخر من قواه النفسية وليلقى الناس بالقصيد لا بالحديث فظفرت جهوده بالخلود.

كان حافظ يحدث من يلقاه بإطناب وإسهاب فلا ينقضي اليوم إلا وهو متهالك من فرط الإعياء، وكان شوقي يهرب من الناس حين يشرع في النظم فلا تراه إلا هائما على وجهه من طريق إلى طريق وفي حال تنذر بالجنون.

كان حافظ يطيل محاورتي حين كنت موظفا بدار الكتب المصرية في سنة ١٩٢٥ فبدا للمرحوم أحمد نسيم أن يدلني على أحد مقاتله النفسية فحدثني أن أعظم ما يغيظ حافظا أن تخبره أنك رأيت شوقي ينتقل من ترام إلى ترام وفي يده سيجارة وعلى وجهه أمارات الذهول.

وحملني النزق على تجربة هذه الوصية فأخبرت حافظا أني رأيت (شوقي) كثير التنقل في الشوارع وفي حال يغلب عليه الانفعال فصرخ حافظ. في أي غرض يعالج الشعر هذا المخبول أنه يكره أن يقترن اسمي باسمه، مع أن الناس ظلوا يقولون في أكثر من عشرين سنة: شوقي وحافظ، كما يقولون بيض وسميط.

بين الظلم والعدل:

كانت الأقدار سمحت بأن تنعقد بيني وبين شوقي مودة دامت نحو سنتين وفي تلك الأيام عرفت من أحوال شوقي أشياء، ومن المؤكد أنه من أعاظم الرجال الذين عرفتهم في حياتي فقد كانت أستاذيته في نقد المجتمع مضرب الأمثال وكان روحه من ألطف الأرواح. وفي لحظة من لحظات الحوار حول مقاصد الشعراء سألته عن قصيدة حافظ في مجاوبنه وهو منفي بالأندلس فأجاب وقد تربد وجهه بالغيظ: أنا لا أروي غير شعري.

فقلت: ومن الوفاء للأدب أن تروي شعر من يناجيك وأنت غريب.

وفي اليوم التالي لقيت حافظا فسألته برفق: أتحفظ شيئا من شعر شوقي؟ فأجاب: لقد قتلني شوقي حين قال في اللورد كارنارفون:

أفضى إلى ختم الزمان ففضه ... وحبا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى ... فرعون بين طعامه وشرابه

أحفاد العبقريين:

ومع هذا فأحقاد العبقريين كأحقاد الأطفال تذوب بعد ليال ففي سنة ١٩٢٧ أقيمت حفلة عربية لتكريم شوقي فأنشد حافظ قصيدا جاء فيه:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا ... وهذي وفود الشرق قد بايعت

فدعاه شوقي وقبل جبينه والدمع في عينيه.. ثم شاء القدر أن يموت حافظ قبل شوقي بأسابيع فقال شوقي يبكيه:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة ... قدر وكل منية بقضاء
وودت لو أني فداك من الردى ... والكاذبون المرجفون فدائي
الناطقون عن الضغينة والهوى ... الموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدام ويبني مجده ... بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطموك وإنما بك حطموا ... من ذا يحطم رفرف الجوزاء
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ ... في الشرق واسمك أرفع الأسماء
بالأمس قد حليتني بقصيدة ... غراء تحفظ كاليد البيضاء

غـيظ الحسود لهـا وقمـت بـشكرها وكـــما علمـــت مـــودتي ووفـــائي

وهي أعظم قصيدة قالها شوقي قبيل الموت. ولعلها خير ما جاد به خاطره برفق وحنان [١].

ألاعيب الحظوظ:

مات حافظ وشوقي في موسم واحد هو صيف سنة ١٩٣٢ فارتجت الأقطار العربية لموت شاعرين كانت إليهما قيثارة الغناء في أعوام تزيد على الثلاثين.

وفي خريف تلك السنة بدا لإحدى شركات السجائر أن تخرج علبة باسم شوقي وعلبة باسم حافظ فجعلت ثمن العلبة الأولى خمسة قروش وثمن العلبة الثانية أربعة قروش. وسعيد الدنيا سعيد الآخرة كما يقولون.

توضيح:

لهذا الاستطراد غاية هي خلق جو يفسر ما كان بين شوقي وحافظ وما يليق بأديب أن يجهل ما كان بين حافظ وشوقي من مصاولات عادت على الشعر بأطيب الثمرات.

---

(١) كان شوقي في أخريات أيامه مصابا برعشة عنيفة تتمثل في اضطراب يديه بدون انقطاع، ومع هذا فقصيدته في رثاء حافظ لا تدل على تعب أو إعياء، أما آخر قصيدة نظمها فهي قصيدته في افتتاح مصنع مشروع القرش، وبعد أن صفق المحتفلون وأطالوا التصفيق لقصيدة شوقي كان زادهم عند الانصراف أن يتلقوا ملحقا لجريدة الجهاد تنعي به شوقي، فعرفوا أن تصفيقهم كان تحية تلقاها الشاعر وهو على سرير الموت.. يرحمك الله يا شوقي.

النونية الأمونية:

مراجعة هذه القصيدة بتأمل وتدقيق ترينا كيف قال شوقي أنها أعظم ما خطته يمناه فقد حاور الحياة وحاور الوجود بأسلوب الأديب الفيلسوف، وزعم خياله أن الموتى لو شعروا بما في قبر ذلك الملك لنبشوه بدون استحياء ثم مضى فصور حياة ذلك الفرعون في حدود التصاوير المرسومة بجدران قبره المطموس.

والتلطف مع شوقي لا ينسيني واجب النقد الأدبي وهذا الواجب يدعوني إلى النص على أن (شوقي أسرف) في وصف مقبرة توت عنخ آمون فقد ذكر لها خصائص غير حقيقية، خصائص لم ترها عيناي حين زرتها قبل عشرين عاما ولعل شوقي لم يرها بعينه قبل نظم هذا القصيد وإنما تمثل ما رآه في بعض المقابر الفرعونية فقال ما قال بلا تحفظ ولا احتراس.

ثورة الجيل:

في هذه النونية تحدث شوقي عن عصر توت عنخ آمون وعده عهد الفرد اللعين ليجوز له في قصيدة ثانية أن يقول أن الدستور جعل عصره دون عصر فؤاد.

والقصيدة الثانية تحفة أدبية تخيل فيها الشاعر أن توت عنخ آمون:

سافر أربعين قرنا عدها ... حتى أتى الدار فألفى عندها
انجلترا وجيشها ولوردها ... مسلولة الهندي تحمي هندها
قامت على السودان تحمي سدها ... وركزت دون القناة بندها

فقـــال والحـــسرة مـــا أشـــدها ... ليـت جـدار القمـر مـا تدهـدها
وليـــت عينـــي لم تفـــارق رقـــدها ... قـــم لبنـــى يـــا بنتئـــور مـــا دهـــا
مـــصر فتـــاتي لم تـــوقر جـــدها ... دقـــت وراء مـــضجعي جازبنـــدها
وخلطـــت ظباءهـــا وأســـدها ... وســـكب الـــساقي الطـــلا وبـــدها
قـــد ســـحبت عـــلى جـــلالي بردهـــا ... ليـــت جـــلال المـــوت كـــان صـــدها

وهذا شعر يفسده الشرح وهو أيضا شعر لا يقوله غير شوقي إمام الصياغة الشعرية وأصدق من تغنى بأمجاد النيل وفي هذه القصيدة نص شوقي على أن:

مـــصر الفتـــاة بلغـــت أشـــدها ... وأثبـــت الـــدم الزكـــي رشـــدها
ولعبـــت عـــلى الحبـــال وحـــدها ... وجربـــت أرخاءهـــا وشـــدها
فأرســـلت دهاتهـــا ولـــدها ... في الغـــرب ســـدوا عنـــده مـــسدها
وبعثـــت للبرلمـــان جنـــدها ... وحـــشدت للمهرجـــان حـــشدها

ثم أشار إلى معارضة المستر كارتر في زيارة المقبرة فقال يخاطب الفرعون:

لحـــدك ودتـــه النجـــوم لحـــدها ... أريتنـــا الـــدنيا بـــه وجـــدها
ســـلطانها وعزهـــا ورغـــدها ... وكيـــف يعطـــى المتقـــون خلـــدها
أبوابـــك اللائـــي قـــصدنا قـــصدها ... كـــارتر في وجـــه الوفـــود ردهـــا
لـــولا جهـــود لا نريـــد جحـــدها ... وحرمـــة مـــن قربـــك اســـتمدها
قلـــت لـــك اضرب يـــده وقـــدها ... وابعـــث لـــه مـــن البعـــوض نكـــدها

والقارئ يفهم أنه يشير إلى البعوض الذي صرع اللورد كارنارفون وهو بعوض ظالم فقد حدثنا شوقي في البائية أن اللورد كارنارفون أهدى إلى توت

عنخ آمون هدية أعظم من الهيرمين، لأنه عرف به أمما لم يعرفها عصر الفراعين. ألم تكتب فيه عشرات البحوث في بلاد الأمريكان؟

خلاصة البحث:

قد فرغت من الكلام عن عيون الجزء الثاني أيضا من الشوقيات في الحدود التي يسمح بها الوقت وقد سكت عن سينية شوقي [1] في معارضة سينية البحتري لأني تحدثت عنها بإطناب في كتاب (الموازنة بين الشعراء) وأنا أكره الحديث المعاد.

أما بعد فما خلاصة هذا البحث؟

هو إشارة ورموز لا ينتفع بها غير من يقرأ الشوقيات بإمعان، والنقد الأدبي توجيه لا تلخيص، والله ولي التوفيق.

(١) الموازنة بين سينية شوقي في معارضة سينية البحتري في هذا الكتاب.

نقد باب النسيب

على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧ وتحت عنوان (أحمد شوقي أمير الشعراء) كتب زكي مبارك يقول:

(كنت أرسل إلى البلاغ مقالات من باريس فأرسلت ثلاث مقالات في نقد الجزء الثاني من الشوقيات، وكان الدكتور زكي حسن قدمه إلي لأطلع عليه، فلم يعجبني باب النسيب فكتبت تلك المقالات.

ويمضي زكي مبارك فيقول: ولكن خطابا يصل بالبريد الجوي بخط الأستاذ عبد القادر حمزة وفيه يقول:

إن (شوقي) مريض ونقد شعره من كاتب في مثل منزلتك الأدبية يؤذيه وحين يعافيه الله من المرض سأنشر هذه المقالات بنصها الأصيل).

وبعد ذلك نشرت تلك المقالات في جريدة البلاغ عن (الغزل في شعر شوقي) في شهري يوليه وأغسطس سنة ١٩٣١، والشاعر شوقي ما زال على قيد الحياة. وهذه الصفحات نجدها في الطبعة الثانية من كتاب زكي مبارك (البدائع).

والآن مع زكي مبارك ونقد باب النسيب في الشوقيات.

الغزل في شعر شوقي

رسائل ثلاث في نقد الغزل في شعر شوقي كتبها المؤلف في باريس في شهر مارس ١٩٣١

ـ١ـ

تفضل أحد الأصدقاء المقيمين في باريس فأعارني الجزء الثاني من الشوقيات، فرأيت أن أنقد منه باب النسيب، وإنما اقتصرت على هذا الباب لأن أحد الكتاب كان وعد بنقد ذلك الديوان، فمن الخير إذن ألا يتكرر ما يكتب، وإن كان لكل منا مذهبه الخاص.

ولأقيد أولا أن (شوقي) مسئول عن ذلك الشرح الموجز الذي ذيلت به الشوقيات، فهو في أغلب الأحيان شرح ضعيف وقد يتعدى الضعف أحيانا إلى الغلط الشنيع. ومن أمثلة ذلك التعليق على قوله:

لو جلوا حسنك أو غنوا به للبيد في الثمانين صبا

فقد جاء في الشرح ما نصه: هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذي قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وهذا خطأ يؤخذ به أمير الشعراء الذي ظل يراجع هذا الجزء من ديوانه نحو خمسة أعوام أو تزيد، فليس هذا البيت من شعر لبيد وإنما هو من قصيدة

لأبي محلم الشيباني -إن لم تخني الذاكرة- والقصيدة برمتها مثبتة في الجزء الأول من أمالي القالي.

إن شوقي يعرف رأيي في شعره، وقد أكون أول من أنصفه بين النقاد المعاصرين، فهو إذن خليق بأن يفترض أني لا أتحامل عليه إن قلت: إن أضعف الجوانب في ديوانه هو باب النسيب.

لقد عتب علي مرة لأني لم أختر من شعره في كتاب (مدامع العشاق) غير أربعة أبيات، ولعله يفهم أن عذري في ذلك مقبول لأن شعره في الغزل أضعف من أن يمس القلوب؛ فضلا عن أن يفصح عن مدامع العشاق.

إن النسيب في جملته يرجع إلى عنصرين؛ الأول: وصف ما يجد المحب من لوعة الشوق، والثاني: وصف ما في المحبوب من الملاحة والجمال، ويمكن أن يقال: إن شعر شوقي خال من أوصاف الوجد المبرح لأنه عاش مقسم القلب، موزع الإحساس. فكان ينتقل من حب إلى حب، ومن حسن إلى حسن، فلم يقع لذلك في وقدة الهجر أو أسر الصدود.

ذلك اعتذارنا عنه، لأننا نؤثر الرفق بشاعرنا المجيد، ولو آثرنا الصدق لصارحنا أمير الشعراء بأنه لم يكن من رقة القلب ودقة الإحساس بحيث تتنزى كبده من الشغف المهلك بما رأت عينه من أسراب الملاح.

إنها لفكرة ساذجة أن يظن أن الوجد المبرح لا يقع إلا لمن يحبون في قصد وفي عفاف، هي فكرة ساذجة دافعت عنها فيما سلف. أما الواقع فهو أن الشاعر

المرهف الإحساس يتزايد بلاؤه وشقاؤه كلما طال عهده بمواجهة الصباحة ومطالعة الجمال.

الشاعر أشقى الناس بشاعريته، لأنه أعرفهم بخطر ما تبدع الطبيعة من أسباب الحسن والفتون، وقد أتيح لشوقي أن يشهد من روعة الجمال ما يندر أن يتاح نظيره لرجل سواه، ولكنه لم يقل شيئا عن القلوب التي أشقتها السعادة في الحب، ولم يتحدث عن آلام السعداء الأشقياء الذين يحترقون وهم في كوثر الوصال.

إنه لعزيز أن يدور شعراؤنا حول الحسن فلا يرون منه غير ما كان يرى الأقدمون: فحيرة الشاعر اليوم هي حيرة أسلافه منذ قرون، مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقيد. وهذا الحسن -إن لم يلطف الله- ماض في الفتك بلفائف القلوب، وقد جدت للأرواح أزمات جديدة، ومطامح جديدة، لم يشق بها الأولون فليس من المغالاة في شيء أن نصارح القراء بأن الغزل في شعر شوقي وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما في نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق والظمأ والالتياع.

وهذه المؤاخذة توجه إلى الأدب في جملته، لأن قراء العربية في هذا العهد هم ضحايا الشعراء والكتاب والمؤلفين الذين عميت عيونهم وصمت آذانهم، وجمدت مشاعرهم، عن فهم ما في هذا العصر من شتى الانقلابات الأدبية والعقلية والروحية، والأذكياء منهم جبناء يكتبون غير ما يشعرون، وهذا هو السر في انحطاط الأدب العربي الحديث.. وإلا فأين في مصر الشاعر أو الكاتب

الذي استطاع بقوة روحه أن ينقل قراءه من ضلال إلى هدى، أو من هدى إلى ضلال.

أكثر الشعراء والكتاب ينظمون ويكتبون للعوام وأشباههم من أدعياء الخواص، وقد وقفت مطامح كثير من حملة الأقلام عند تلك الغايات الصغيرة، وبذلك ظلت عقول الصفوة المختارة من مفكري القراء في حيرة داجية سوداء، حيث لا يجدون من يترجم عن ظمأ أرواحهم، وهيام قلوبهم، وقلق نفوسهم، وكان الظن بمن أغناهم الله وأراحهم من تكاليف العيش أن يقدموا إلى الجمهور غذاءه الروحي والعقلي في صورة أخاذة تلقي شيئا من النور في طريق الأرواح الحائرة، أو تلقي قبسا من الثورة في أنفس من تغشاهم الخمود.

ولعل أفظع رزء مُنِي به الشرق هو الغفلة عن تربية العواطف وغض الأبصار عن روائع الجمال، ومصدر ذلك -فيما أظن- أنه يندر في الشرق أن يكون شيء من الأمر بيد الشباب: فنحن نعيش في قيود وأغلال طرق حديدها جماعة من الحمقى البلداء الذين يحقدون أشد الحقد على كل شاب قوي العقل واضح الفكر مضيء الإدراك.

لنترك هذه الخواطر التي تقض بعض المضاجع، ولنأخذ في الكلام عن غزل شوقي:

لاحظت أن (شوقي) حين جمع ديوانه لم تسمح نفسه بإغفال شيء من شعره القديم، فتجاور في ديوانه التليد والطريف، والغث والسمين، وأنا لا أكتم القراء أن هذه آفة الشعراء والكتاب جميعا فمن العسير على الشاعر أو

الكاتب أن يتناسى شيئا من منظومه أو منثوره، وكل رجل منا حين يعود إلى آثاره يقع صريع الفتنة والإعجاب، وأكثر الذين جمعوا قصائدهم ورسائلهم قد تسامحوا مع أنفسهم: فقد يتفق أن يسوء رأي المرء في إحدى قصائده أو رسائله ولكنه مع ذلك يضعف فيرى فيها جوانب من الحسن تستحق الخلود.

وقد كانت لبشار بن برد مقطوعات سخيفة فسأله بعض أصدقائه أن يهبها للنسيان، فرفض ذلك محتجا بأن قصائد الشاعر كأبنائه يتساوى حظهم عنده من البر والإشفاق.

وقد أحرق البحتري جملة من أهاجيه حتى لا تكون بابا من الشر لابنه من بعده، وعندي أن تلك جرأة عظيمة أن يتلف الرجل بعض آثاره مراعاة لمصالح الأهل والأقرباء وفي ظني أن ذلك ما كان يقع لو قيل للبحتري: أحرق هذه الأهاجي لأنها ضعيفة لا تستحق البقاء.

وإنما أثبتنا هذه الملاحظة لنعتذر بها عن شوقي فهو في رأينا أبعد نظرا من أن يخفى عليه ضعف الأبيات الآتية:

لا والقوام الذي والأعين اللاتي ... ما خنت رب القنا والمشرفيات
ولا سلوت ولم أهم ولا خطرت ... بالبال سلواك في ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب ... وثغرك المتمني كل حاجاتي

فليس في هذه الأبيات من سمات الشعر غير الوزن والقافية ولكنه أثبتها في الديوان لأنه قالها، وكلام أمير الشعر يجب أن يظل على أي حال أمير الكلام!

وإلا فما هو القوام الذي، وما هي الأعين اللاتي؟ اللهم إلا أن يريد أن يأتي بشاهد جديد لحذف صلة الموصول!

ثم ما معنى قوله:

وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك المتمني كل حاجاتي

وكيف غابت عليه تفاهة كلمة (حاجات) في مقام التشبيب.

ومن الغزل البارع جدا قول شوقي:

يا ناعما رقدت جفونه مضناك لا تهدا شجونه
حمل الهوى لك كله إن لم تعنه فمن يعينه
عد منعما أو لا تعد أودعت سرك من يصونه
بيني وبينك في الهوى سبب سيجمعنا متينه
رشأ يعاب الساحرو ن وسحرهم إلا جفونه
الروح ملك يمينه يفديه ما ملكت يمينه
ما البان إلا قده لو تيمت قلبا غصونه

هذه قطعة جميلة، لم يضعف منها إلا قوله:

رشأ يعاب الساحرو ن وسحرهم إلا جفونه

لأنه لا يكفي أن يقال: (السحر معيب، ولكن سحر هذه الجفون لا عيب فيه) والشاعر يعلم أن سحر العيون أسمى وأعز من أن ينزل إلى توافه المشكلات. فهل يدري القارئ ماذا أضاف شوقي إلى هذه القطعة الجيدة؟ لننظر كيف يقول:

ويـــــزين كـــــل يتيمـــــة فمـــــه وتحـــــسبها تزينـــــه

فما معنى هذا؟ معناه أن ثنايا المحبوب تزين اللآلئ، على حين يظن أن اللآلئ تزينها.. وما نظن شوقي يقدر أن هذا معنى جميل. والخطأ وقع له من اختلاس قول بعض الأقدمين ولعله الحسين بن مطير:

منعمـة الأطـراف زانـت عقودهـا بأجمـل ممـا زينتهـا عقودهـا

فإن هذا الشاعر وقع على المعنى المقبول: لأن النحور قد تكون أجمل وأروع من نفائس العقود. أما أن تكون الثنايا أجمل من اللآلئ التي تزدان بها فذلك خيال مقلوب.

ثم ما معنى قوله بعد ذلك:

مـــــا العمـــــر إلا ليلـــــة كـــان الـــصباح لهـــا جبينـــه

وهناك أبيات كثيرة كان يستطيع شوقي إسقاطها من الديوان ولكنه كما أشرت ضعف عن ذلك كأكثر الكتاب والشعراء وسترى في الأبحاث الآتية مبلغ ما وصل إليه في فن النسيب.

٢
بين العاطفة والذكاء

لقد درج شعراء اللغة العربية منذ الزمن القديم على افتتاح القصائد بالنسيب، وتلك طريقة لها محاسن ولها عيوب: فمن محاسنها أنها تمهد للشاعر طريق الكلام، وهي بذلك أشبه بالموسيقى تتقدم الغناء ليثور قلب المغني ويرهف إحساسه للتلحين والتطريب، ومن مساويها أنها تفرض على الشاعر ما لا قبل له باحتماله من التغني بعواطف قد تكون خمدت في صدره منذ أزمان. على أن الشعراء الأقدمين قد التزموا هذه القاعدة حتى وصلت ببعضهم إلى الإسفاف وحسب القارئ أن أذكر أن من الشعراء الماضين من كان يفتتح قصائد الرثاء بالنسيب وذلك أغرب ألوان الشذوذ، وقد أحصيت من هذا النوع عشرين شاهدا هي في مذكراتي بمصر، فليعذرني القارئ إن اكتفيت بالإشارة إليها في هذا الحديث.

وقد سلك شوقي هذا المسلك، فباب النسيب في ديوانه أخذ أغلبه من طلائع مدائحه القديمة، فهو في جملته نسيب مصنوع غابت عنه العاطفة وصاغه الذكاء. وهو في هذا يشارك جمهور شعراء اللغة العربية الذين اتخذوا النسيب حلية للقصائد بدون أن يفهموا أن الجمال من النفحات السماوية التي لا ينبغي أن يشرك الشاعر بها أحدا من الناس.

الجمال أعز وأسمى وأروع من أن يتخذه الشاعر وسيلة لقصائد المديح، ولئن اغتفر للشعراء الأولين أن يتناسوا عظمة الجمال ويبتذلوه في غير إشفاق

فإنه لا يغتفر لشوقي -وقد درس ميسيه ولامرتين وفرلين- أن لا يتقي الله في لغته ويرحمها من ذلك الجدب الموحش الذي ابتليت به يوم كان الشعراء يتورعون في جبن وغفلة وجمود عن التسبيح بحمد الجمال.

ومع هذا فلشوقي مقطوعات وأغان قليلة وهبها للحسن وحده وسنعود إليها في الرسالة الآتية، ولكنها لقلتها لا تسمو به إلى منزلة معاصريه في الأمم الأوربية، ولا تلحقه بمن أجاد التشبيب من أسلافه كعمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف وأبي نواس وابن زيدون.

وقد عرض شوقي لتشطير بعض أبيات النسيب، والتشطير والتخميس من الفنون المستحدثة في الشعر العربي، وهو عمل فني لا أثر فيه للعاطفة وإنما يرجع إلى الذكاء. فلننظر كيف صنع شوقي مثلا في قول أبي نواس:

يا ويح أهلي يروني بين أعينهم ... على الفراش ولا يدرون ما دائي

والقارئ في غنى عمن يرشده إلى روعة هذا البيت الجميل وقد حوله شوقي إلى الصورة الآتية:

يا ويح أهلي أبلى بين أعينهم ... ويدرج الموت في جسمي

وينظرون لجنب لا هدوء له ... على الفراش ولا يدرون ما دائي

فإن هذا التشطير لم يستقم لشوقي إلا بحذف كلمة (يروني) ووضع كلمة (أبلى) مكانها. ثم عاد فأتى بكلمة (وينظرون) في البيت الثاني ليستقيم له الشطر الأخير وقد عاد المعنى مغلقا بعض الشيء حين تدخل شوقي لإتمامه. وكان قبل ذلك غاية في الرقة والوضوح.

ولشوقي بيت سائر وهو قوله:

نظـــرة فابتـــسامة فـــسلام فكـــلام فموعـــد فلقـــاء

وهو بيت يعجب به الناس، وقد أشرت مرة إلى أنه عرض فيه حوادث الحب على الطريقة السينمائية، وهو فوق ذلك لا يمثل الحرائر من الحسان، وإنما يمثل الساقطات اللائي تنبو عنهن العيون في الحانات وما أظن شوقي ظفر بتلك السعادة مع فتاة نبيلة اللهم إلا إن زعم أنه كان (ايروس) العصر والأوان!

وقد فتن شوقي بالسلاسة التي كانت في نصيب ذلك البيت فأراد أن يضيف إليه بيتا ثانيا لتتم بهما صور العشق فقال:

ففـــراق يكـــون فيـــه دواء أو فـــراق يكـــون منـــه الـــداء

فأين هذا من ذاك؟ ذاك بيت ألقت به السليقة فجاء غاية في الاستواء، أما البيت الثاني فهو من آثار التكلف، لأن الشاعر توهم أن الصورة تتم به، وكانت النتيجة ما نراه من تنافر الأخوين.

فإن كان شوقي في ريب من صدق هذه الملاحظة فليحدثنا كيف صح له أن يقول بعد ذلك:

يـــوم كنـــا ولا تـــسل كيـــف كنـــا نتهـــادى في الهـــوى مـــا نـــشاء

فإن ذلك وقع بالطبع بعد السلام والكلام وقبل الفراق!

وجاء في الديوان ما نصه:

وقال مشطرا حيث اجتمع بعض الأدباء في مجلس فذكر أحدهم بيتا للبهاء زهير وهو:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى فوالله ما أدري الهوى كيف

فقال:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى لعل الذي لا يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته فوالله ما أدري الهوى كيف

وكان على شوقي أن يلاحظ أن بيت البهاء زهير هذا ليس من الجودة بحيث يستحق هذه العناية، فإن من السذاجة أن يتوجه الناس إلى المحب قائلين: نسمع أنك تحب، فهل لك أن تقول لنا ما طعم الحب وما لونه؟ وأغرب من هذا وأدخل في السذاجة أن يعلل شوقي وجاهة السؤال بقوله:

لعل الذي لا يعرف الحب يعرف

فهل من الحق أنه لو أمكن وصف الحب للناس أصبحوا محبين أم الأمر لا يخرج عن عبث الألفاظ!

وهناك قصيدة صنعها شوقي ليدل بها على ذكائه وانقياد النظم إليه، فقد قال البارودي:

أتغلبني ذات الدلال على صبري؟

ثم سكت. فرأى شوقي أن يكمل البيت هكذا:

إذن أنا أولى بالقناع وبالخدر

ثم مضى فأنشأ قصيدة طويلة من الوزن والقافية.

وقبل نقد هذه القصيدة نسأل شوقي: هل كل مغلوب على صبره في الحب خليق بالخدر والقناع؟

لا أظن! وإلا فهناك قصائد صرح فيها شوقي بأنه يائس مغلوب!

وإلى القارئ القطعة الآتية:

وليل كأن الحشر مطلع فجره ... تراءت دموعي فيه سابقة الفجر
سريت به طيفا إلى من أحبها ... وهل بالسهى في حلة السقم من
طرقت حماها بعد ما هب أهلها ... أخوض غمار الظن والنظر الشزر
فما راعني إلا نساء لقيتني ... يبالغن في زجري ويسرفن في
يقلن لمن أهوى وآنسن ريبة ... نرى حالة بين الصبابة والسحر
إليكن جارات الحمى عن ملامتي ... وذرن قضاء الله في خلقه يجري
وأحرجني دمعي فلما زجرته ... رددت قلوب العاذلات إلى العذر
فساءلتها ما اسمي فسمت ... يقلن أمانا للعذارى من الشعر
فقلت أخاف الله فيكن إنني ... وجدت مقال الهجر يزري بأن
أخذت بحظ من هواها وبينها ... ومن يهو يعدل في الوصال وفي

هذه أبيات في غاية الانسجام، ولأجل هذا أثبتها شوقي في الديوان، ولكن ما معناها؟

الشاعر يذكر أنه كان يحب فتاة، قاهرية بالطبع، لأن هذا من شعره القديم، وللقاهريات تقاليد في الصيانة والعفاف. ومع هذا طرق حماها بالليل فهب أهلها مذعورين، وأحاط به النساء يزجرنه وينهرنه، ثم توجه أولئك النساء إلى محبوبته يسألنها ما شأن هذا الزائر؟ وهنا أجهش الشاعر في البكاء فخمدت حمية النساء وسألن الفتاة عن اسمه فقالت شوقي! ولم تكد تلفظ هذا الاسم الكريم حتى تساقط النساء متخاذلات واهنات يطلبن من الشعر الأمان! وفي هذا الموقف كان الشاعر كريما، فقد طمأنهن قائلا: إنه يخاف فيهن الله!!

إن هذه الصورة المنكرة لا تقع في حي وضيع إلا موسومة بسقم الذوق، فكيف صح وقوعها في مدينة القاهرة قبل ثلاثين عاما!!

كل هذا لم يكن، ولكن شوقي أراد أن يتكلم، فليكن ما أراد لأنه يقول للشعر: كن فيكون.

وعلى القارئ أن يروض نفسه على الاقتناع بأن نساء القاهرة كانت شمائلهن من هذا الطراز: ولو في خيال أمير الشعراء!!

٣
نجوى القلب

شوقي شاعر محسود، فقد ملأ جميع الأسماع وأشجى كثيرا من القلوب، وقد أتيح له أن يظل زعيم الشعراء أكثر من أربعين عاما، وهي زعامة حقة لا يمتري فيها إلا المكابرون. وكم شقى خصومه في هدمه وهو على الزمن لا يصنع فيه النقد المغرض إلا كما يصنع المطر من متين الحصون، لا تسأل عن السر في عظمة شوقي لأن الشعر في أكثر الأحيان من النفحات الإلهية التي لا تنال بالجد وعرق الجبين، فليس هو بأعلم معاصريه ولا أذكاهم ولا أعرفهم بطبائع الحياة وسنن الوجود وقد أفصح عن ذلك أبدع إفصاح حين قال:

رب سامي البيان نبه شأني ... أنا أسمو إلى نباهة شانه
كان بالسبق والميادين أولى ... لو جرى الحظ في سواء عنانه
إنما أظهروا يد الله عندي ... وأذاعوا الجميل من إحسانه
ما الرحيق الذي تذوقون من كر ... مي وإن عشت طائفا بدنانه
وهبوني الحمام لذة سجع ... أين فضل الحمام في تحنانه
وتر في اللهاة ما للمغنى ... من يد في صفائه وليانه

وكذلك يجيد شوقي حين يسلم خياله إلى فطرته الجيدة، ويسف حين يتكلف ويتصنع، لأنه لا يتقن الصنعة إلا الشعراء المحرومون من هبات الروح.

وقد راجعت ما قال شوقي في النسيب فكان أكثر ما شاقني عنده نجواه لقلبه وقد ودع أحلام الشباب، وكلمة الشباب لها في شعر شوقي وفي حياته معان ساحرة لا يفهمها حق الفهم إلا من عاشوا كما عاش، أو رزقوا من رقة الحس ما يتوهمون به كيف كانت حياة مثله بين فتن المال والجمال والشباب.

وشوقي رجل ألقى في غيابات الماضي أطيب الأحلام والأوهام فهو اليوم يعيش تحت أثقال السنين، ولكن كاهله لا يزال قويا ولا يزال يقول: هات ما عندك يا زمان! ولا يزال في ذلك الجسم قلب حساس يفيض بأقوى العواطف والمشاعر والأحاسيس.

غير أن (شوقي) أذكى من ذلك، فهو يعلم علم اليقين أنه لا يأسر الجمال بصباه كما كان يفعل في أيامه الخوالي، وإنما ينقاد الجمال إليه لأن شهرته طبقت آفاق الأقطار العربية، وطبعت اسمه في صدور الناطقين بالضاد. كل هذا جعل شوقي من أشعر الناس حين يتحدث عن هزيمته في الحب، وكان لا يعرف الهزائم في ذلك الميدان فيا رحمة الله لقائد قضى عمره بين أكاليل النصر، ثم كتب عليه أن يشهد في آخر أيامه وقائع الإخفاق!

وإلى القارئ نجوى شوقي لقلبه وقد تقطعت حبائله في أودية الجمال:

شيعت أحلامي بقلب باك ... ولمت من طرق الملاح شباكي
ورجعت أدراج الشباب ووردة ... أمشي مكانهما على الأشواك
وبجانبي واه كأن خفوقه ... لما تلفت جهشة المتباكي
شاكي السلاح إذا خلا بضلوعه ... فإذا أهيب به فليس بشاك
قد راعه أني طويت حبائلي ... من بعد طول تناول وفكاك

ويح ابن جنبي كل غاية لذة ... بعد الشباب عزيزة الإدراك
لم تبق منا يا فؤاد بقية ... لفتوة أو فضلة لعراك
كنا إذا صفقت نستبق الهوى ... ونشد شد العصبة الفتاك
واليوم تبعث في حين تهزني ... ما يبعث الناقوس في النساك

وإلى القارئ قوله يخاطب قلبه من كلمة ثانية:

صحا القلب إلا من خمار أماني ... يجاذبني في الغيد رث عناني
حنانيك قلبي هل أعيد لك ... وهل للفتى بالمستحيل يدان
تحن إلى ذاك الزمان وطيبه ... وهل أنت إلا من دم وحنان
إذا لم تصن عهدا ولم ترع ذمة ... ولم تذكر إلفا فلست جناني
أتذكر إذ نعطي الصبابة حقها ... ونشرب من صرف الهوى بدنان
وأنت خفوق والحبيب مباعد ... وأنت خفوق والحبيب مدان
وأيام لا آلو رهانا مع الهوى ... وأنت فؤادي عند كل رهان
لقد كنت أشكو من خفوقك دائبا ... فولى فيا لهفي على الخفقان
سقاك التصابي بعد ما علك الصبا ... فكيف ترى الكأسين تختلفان
وما زلت في ريع الشباب وإنما ... يشيب الفتى في مصر قبل أوان
ولا أكذب الباري بنى الله هيكلي ... صنيعة إحسان ورق حسان
أديسن إذا اقتاد الجمال أزمتي ... وأعنو إذا اقتاد الجمال عناني

والفرق بين القطعتين واضح، فالأولى قوية تزخر بالحياة لأن الشاعر ألقى بها وهو واجد محزون، أما الثانية فوسط بين الجيد والرديء لأن الشاعر قالها

وهو شاب يتكلف سآمة الشيوخ ليثبت أن الفتى يشيب في مصر قبل أوان المشيب والضعف ظاهر في قوله:

أتـذكر إذ نعطـي الـصبابة حقهـا ... ونـشرب مـن صرف الهـوى بـدنان

وقوله:

وأيـام لا آلـو رهانـا مـع الهـوى ... وأنـت فـؤادي عنـد كـل رهـان

والفتور ملموس في قوله:

وأنـت خفـوق والحبيـب مباعـد ... وأنـت خفـوق والحبيـب مـدان

على أنه اختلس هذا المعنى من قول بعض الأقدمين:

ومـا في الأرض أشـقى مـن محـب ... ولـو وجـد الهـوى حلـو المـذاق
تـراه باكيـا في كـل حـال ... مخافـة فرقـة أو لاشـتياق
فيبكـي أن نـأوا شـوقا إليهم ... ويبكـي إن دنـوا خـوف الفـراق
فتـسخن عينيـه عنـد التنـائي ... وتـسخن عينـه عنـد التلاقـي

وفي القطعة الثانية عيب آخر وهو التناقض في عرض نفسية الشاعر، فهو يحدثنا أولا أنه ودع عهد الشباب ويذكر أن رد الصبا من المستحيل، ثم يعود فيذكر أنه لا يزال في ريع الشباب وأن الله بنى هيكله صنيعة إحسان ورق حسان، فهو في أول القطعة يندب شبابه وهو في آخرها يتغزل في نفسه فيذكر أن قوامه كالغصن الرطيب. وفي هذه الحيرة الفنية دليل على أن الشاعر لا يعني ما يقول.

ولننظر كيف يخاطب قلبه من كلمة ثالثة:

أرقت وعادتني لذكرى أحبتي ... شجون قيام بالضلوع قعود
ومن يحمل الأشواق يتعب ... عليه قديم في الهوى وجديد
لقيت الذي لم يلق قلب من الهوى ... لك الله يا قلبي أأنت حديد

وهذا شعر لا بأس به ولكن ما معنى قوله:

لك الله يا قلبي أأنت حديد؟

إنا نظن أن هذا التعبير لا يخلو من ابتذال.

ومن الإنصاف أن نذكر أننا نستجيد من هذه القصيدة القطعة الآتية:

وروض كما شاء المحبون ظله ... لهم ولأسرار الغرام مديد
تظللنا والطير في جنباته ... غصون قيام للنسيم سجود
تميل إلى مضنى الغرام وتارة ... يعارضها مضنى الصبا فتحيد
مشى في حواشيها الأصيل ... وماس عليها الحلى وهي تميد
وقامت لديها الطير شتى: فآنس ... بأهل ومفقود الأليف وحيد
وباك ولا دمع وشاك ولا جوى ... وجذلان يشدو في الربى ويشيد
وذو كبرة لم يعط بالدهر خبرة ... وعريان كاس تزدهيه مهود
غشيناه والأيام تندى شبيبة ... ويقطر منها العيش وهو رغيد
رأت شفقا ينعى النهار مضرجا ... فقلت لها حتى النهار شهيد
فقالت وما بالطير؟ قلت سكينة ... فما هي مما نبتغي ونصيد
أحل لنا صيدان: يوم الهوى مها ... ويوم تسل المرهفات أسود
يحطم رمح دوننا ومهند ... ويقتلنا لحظ ويأسر جيد

ونحكم حتى يقبل الدهر حكمنا ونحن لسلطان الغرام عبيد

وهذا من الشعر البارع الجيد السبك وإن كنا ننكر عليه البيتين الأخيرين، لأن شوقي لم يكن يوما من رجال السيف، حتى يصطاد المها في يوم الهوى ويصطاد الأسود في يوم الجلاد، وهو قد سرق هذا المعنى من عبد الله بن طاهر إذ يقول:

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ ـل على أننا نذيب الحديدا
وترانا عند الكريهة أحرا را وعند الغواني عبيدا

وعبد الله بن طاهر يقول ويفعل لأنه كان من كبار القواد ومن أقدر الناس على مقارعة الهيجاء، في حين أن شوقي حدثنا في مقدمته القديمة للشوقيات أنه كان يجتاز ميدان عابدين على ظهر أتان!

الجزل والرقيق:

شوقي يؤثر الرقيق على الجزل في الغزل والنسيب، ولا عيب فيه إلا أنه كما قيل يسيل رقة حتى يصل إلى النعومة واللين، وإلى القارئ هذه الأبيات:

يا حسنه بين الحسان في شكله إن قيل بان
كالبدر تأخذه العيو ن وما لهن به يدان
ملك الجوانح والفؤا د ففي يديه الخافقان
ومناي منه نظرة فعسى يشير الحاجبان
فعسى يزكى حسنه من لا له في الحسن ثان
فدعوه يعدل أو يجو ر فإنه ملك العنان

حـــق الـــدلال لمـــن لـــه في كـــل جارحـــة مكـــان

والتعبير عن ذلك المحبوب بأنه (حسن في شكله) من التعابير العامية، ولكن لا بأس فلعل ذلك الظبي كان يلعب في الحارة حينذاك.

وزكاة الحسن ما موضعها هنا؟ إن الشاعر يجاري بعض المتقدمين في هذا المعنى، وكان ينبغي أن يلحظ أن هذا من أخيلة الفقهاء.

ولشوقي قطعة رقيقة قالها في بعض الناس ووهبها للغناء، وهي:

منـــك يـــا هـــاجر دائـــي وبكفيـــــك دوائـــــي
يـــا منـــى روحـــي ودنيـــا ي وســـــؤلي ورجـــــائي
أنـــت إن شـــئت نعيمـــي وإذا شـــــئت شـــــقائي
لـــيس مـــن عمـــري يـــوم لا تـــرى فيـــه لقـــائي
وحيـــــاتي في التـــــداني ومماتي في التنـــــائي
نـــم عـــلى نـــسيان ســـهدي فيـــك واضـــحك مـــن بكـــائي
كـــل مـــا ترضـــاه يـــا مـــولا ي يرضـــــاه ولائـــــي
وكـــما تعلـــم حبـــي وكـــما تـــدري وفـــائي
فيـــك يـــا راحـــة روحـــي طـــال بـــالواشي عنـــائي
وتواريـــــت بـــــدمعي مـــن عيـــون الرقبـــاء
أنـــا أهـــواك ولا أر ضى الهـــوى مـــن شركـــائي
غـــرت حتـــى لـــترى أر ضي غـــيري مـــن ســـمائي
ليتنـــي كنـــت رداء لـــك أو كنـــت ردائـــي
ليتنـــي مـــاؤك في الغلـــ ـــة أو ليتـــك مـــائي

وهذا شعر مقبول، ولكن هل يستطيع شوقي أن يدلنا على بيت واحد فيه شيء من الإبداع؟ وما باله يرضى بأن يقدم للغناء هذه المعاني التي رددها مئات الشعراء؟

وهناك قصيدة أجزل من هذا وهي التي يقول فيها:

وقالوا في البديل رضا وروح ... لقد رمت البديل فرمت صعبا
وراجعت الرشاد عساي أسلو ... فما بالي مع السلوان أصبى
إذا ما الكأس لم تذهب همومي ... فقد تبت يد الساقي وتبا
على أني أعف من احتساها ... وأكرم من عذارى الدير شربا

وهي قصيدة أكثرها مستجاد، وإنما نقلنا هذه الأبيات لنسأل شوقي عن معنى قوله:

إذا ما الكأس لم تذهب همومي ... فقد تبت يد الساقي وتبا

لأننا لا نفهم موجب هذه الدعوة البشعة في الشطر الأخير وما ذنب الساقي إذا تحجرت نفس الشارب في حضرة الصهباء؟ وقد نفهم أن يكون شوقي أعف من احتسى الراح، إن كانت تبقي على عفاف، ولكننا لا ندري كيف رأى أن يحدثنا أنه أكرم من عذارى الدير شربا!! لقد كان أولى للشاعر أن يذكر أنه أقسى الشاربين فتكا، لا أنه أكرم شربا من العذارى المتبتلات، فإن الراح لا تثير معاني الحنان إلا في النفوس الضعاف!

ثم ما قيمة قوله في كلمة أخرى:

حبتك ذات الخال، والحب حالة ... إذا عرضت للمرء لم يدر ما هيا

وأنـك دنيـا القلـب مهـما غدرتـه ... أتـى لـك مملـوءا مـن الوجـد وافيـا
وبـين الهـوى والعـذل للقلـب ... كحالـك بـين السيف والنـار ثاويـا
وبـين المنـى واليـأس للـصبر هـزة ... كخصرك بين النهد والردف واهيا

ويا ليت الشاعر أسقط أمثال هذه الأبيات من الديوان.

وما قيمة قوله أيضا يستعطف محبوبته:

فحسب خـدي مـن عينـي مـا شربـا ... فمثـل مـا قـد جـرى لم تلـق عينـاي

وأين وجه الحسن في قوله:

يـا مـن هجـرت إلى الأوطـان رؤيتهـا ... فرحـت أشـوق مـشتاق لأوطـان
أتـذكرين حنينـي في الزمـان لهـا ... وسكبي الـدمع مـن تـذكارها قـاني
وغبطـي الطـير ألقـاه أصـبح بـه ... ليـت الكـريم الـذي أعطـاك أعطـاني

وبعد فقد كانت هذه الرسائل الثلاث تذكرة للقارئ بما في باب النسيب من مواطن القوة والضعف، أردنا بها توجيه الأنظار إلى الجزء الثاني من الشوقيات، ونحن أبعد الناس عن التحامل على بلبل النيل الذي يقول:

وقلـت لـه صـبرا فكـل أخـي هـوى ... عـلى يـد مـن يهـوى غـدا سيتوب

أحمد شوقي
والموازنة بينه وبين بعض الشعراء

عرفنا أن للشاعر أحمد شوقي حظ عظيم من عناية زكي مبارك، وأن الصلة التي توطدت بين الاثنين في يوم من الأيام وفترت بعد ذلك، لم تمنع زكي مبارك من أن يظل مشغولا بأحمد شوقي، فنقد الشوقيات وكتب عن الغزل في شعر شوقي.

ويقول زكي مبارك: (شوقي معروف في مصر والشرق، وهو خبير بأسرار اللغة العربية، وبصير بشئون الحياة، وله كلف بمعارضة القدماء) ولهذا فقد رأينا زكي مبارك يوازن بين الشاعر شوقي وبين الشعراء الحصري والبحتري والبوصيري، والبارودي، وابن زيدون.

ونحن نرى أن شوقي عارض الحصري في قصيدته الدالية:

يا ليل الصب متى غده؟

حين نظم شوقي داليته:

مضناك جفاه مرقده

وأن شوقي حين نظم قصيدته السينية في وصف قصر الحمراء كان يعارض بها سينية البحتري في وصف إيوان كسرى.

يقول البحتري:

صـنت نفـسي عـما يـدنس نفـسي وترفعـتَ عـن نـدى كـل جـبس

ويقول شوقي:

اخـتلاف النهـار والليـل ينـسي اذكـروا لي الـصبا وأيـام أنـسي

وللبوصيري قصيدته المشهورة (البردة) والتي يستهلها بقوله:

أمـن تـذكر جـيران بـذي سـلم مزجـت دمعـا جـرى مـن مقلـة بـدم

ويعارضها شوقي بقصيدته المشهورة أيضا (نهج البردة) فيقول:

ريـم عـلى القـاع بـين البـان والعلـم أحـل سـفك دمـي في الأشـهر الحـرم

وللبارودي قصيدة اسمها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) يقول البارودي في مطلعها:

يـا رائـد الـبرق يمـم داره العلـم واحـد الغـمام إلى حـي بـذي سـلم

والقصيدة طويلة وفيها أيضا وصف البارودي للغار الذي أوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم مع الصديق، فيقول البارودي بين ما يقول:

وجـاءه الـوحي إيـذانا بهجرتـه فـيمم الغـار بالـصديق في الغـسم

والتي عارضها البوصيري:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خـير البريـة لم تنـسج ولم تحـم

ويعارضها شوقي في ميميته قائلا:

سـل عـصبة الـشرك حـول الغـار لـولا مطـاردة المختـار لم تحـم

ثم هنالك نونية ابن زيدون المشهورة:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا

وهناك معارضة شوقي لابن زيدون في قصيدته النونية المشهورة أيضا:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

والآن مع زكي مبارك ونقده الممتع في الموازنة بين الشاعر أحمد شوقي والشعراء الذين عارضهم الشاعر أحمد شوقي.

الحصري وشوقي

ندخل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل: وهو الموازنة بين القصائد المشهورة التي جرت مجرى المعارضة والمماثلة، كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحاك وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد وابن دراج في معارضة أبي نواس، والبارودي في معارضة أبي فراس... إلخ.

ولهذا البحث أهمية كبيرة، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة وسيرينا كيف تتصاول العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعا من السباق في عالم البيان.

ولنبدأ بالموازنة بين دالية الحصري [١] (يا ليل الصب متى غده) ودالية شوقي (مضناك جفاه مرقده) فإن لهاتين القصيدتين أثرا في أندية الأدب ومجالس الغناء، ومن الخير أن نميط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن، ومظان الضعف، وأن نبين: أي الشاعرين أبرع لفظا وأشرف معنى وأسمى خيالا.

والحصري [٢] -بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة وبعدها راء مهملة- هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرير القيرواني، وهو ابن خالة أبي إسحاق الحصري صاحب كتاب زهر الآداب، وقد ذكر ابن

---

(١) الموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك الطبعة الثانية صفحة ١٠٩.

(٢) ذكر ابن خلكان أنه منسوب إلى الحصر التي تفرش وقد حدثنا السيد حسني عبد الوهاب أنه منسوب إلى الحصر وهي قرية قديمة بالقرب من القيروان.

بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، وأنه طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق معمور الطريق فتهاداه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم.

ولكنه -فيما نقل- لم يطمئن هناك فاحتمل على مضض بين زمانه وبعد قطره، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف وتوفي بها رحمه الله سنة ٤٨٨.

وله قصيدة طويلة في قراءات نافع، وله ديوان شعر [١] وهو القائل:

أقول له وقد حيا بكأس ... لها من مسك رقته ختام
أمن خديك تعصر قال كلا ... متى عصرت من الورد المدام

ويقول ابن بسام في وصفه (على أنه كان فيما بلغني من ضيق العطن، ومشهور اللسن، يتلفت إلى الهجاء تلفت الظمآن إلى الماء).

وكنا نود لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد، فإن كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن، وأين الظن من اليقين.

(١) راجع وفيات الأعيان.

ويمكن الحكم بأنه كان خبيرا بأسرار اللغة العربية، فإن التأليف في علم القراءات يدل على ذلك، ويمكن الحكم أيضا بأنه كان بصيرا بشئون الحياة فإن في الاغتراب وصحبة الملوك عونا على فهم دقائق الوجود.

أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق وله كلف بمعارضة القدماء وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية وبصير بشئون الحياة وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب واختتمها بالمديح ولكني سأقتصر في الموازنة على صدر القصيدتين، إذ كان النسيب هو السبب فيما يرجى لهما من الخلود، إن كان لهذا العالم حظ في الخلود:

قصيدة الحصري

يا ليل الصب متى غده ... أقيام الساعة موعده
رقد السمار وأرقه ... أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له ... مما يرعاه ويرصده
كلف بغزال ذي هيف ... خوف الواشين يشرده
نصبت عيناي له شركا ... في النوم فعز تصيده
وكفى عجبا أني قنص ... للسرب سباني أغيده
صنم للفتنة منتصب ... أهواه ولا أتعبده [1]
صاح والخمر جنى فمه ... سكران اللحظ معربده

(١) الصنم هو التمثال ولا تزال هذه الكلمة على ألسنة أهل المغرب وإن كانت في مصر مما ينكر الذوق.

ينضو من مقلته سيفا ... وكأن نعاسا يغمده
فبريق دم العشاق به ... والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتلت ... عيناه ولم تقتل يده
يا من جحدت عيناه دمي ... وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمي ... فعلام جفونك تجحده
إني لأعيذك من قتلي ... وأظنك لا تتعمده
بالله هب المشتاق كرى ... فلعل خيالك يسعده
ما ضرك لو داويت ضنى ... صب يدنيك وتبعده
لم يبق هواك له رمقا ... فليبك عليه عوده
وغدا يفضي أو بعد غد ... هل من نظر يتزوده
يا أهل الشوق لنا شرق ... بالدمع يفيض مورده
بهوى المشتاق لقاءكمو ... وصروف الدهر تبعده
ما أحلى الوصل وأعذبه ... لولا الأيام تنكده
بالبين وبالهجران فيا ... لفؤادي كيف تجلده

قصيدة شوقي

مضناك جفاه مرقده ... وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه ... مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا إلا رمقا ... يبقيه عليك وتنفده
يستهوي الورق تأوهه ... ويذيب الصخر تنهده
ويناجي النجم ويتبعه ... ويقيم الليل ويقعده

ويعلم كل مطوقة ... شجنا في الدوح ترددده
كم مد لطيفك من شرك ... وتأدب لا يتصيده
فعساك بغمض مسعفه ... ولعل خيالك مسعده
الحسن حلفت بيوسفه ... والسورة أنك مفرده
قد ود جمالك أو قبسا ... حوراء الخلد وأمرده
وتمنت كل مقطعة ... يدها لو تبعث تشهده
جحدت عيناك زكي دمي ... أكذلك خدك يجحده
قد عز شهودي إذ رمتا ... فأشرت لخدك أشهده
وهممت بجيدك أشركه ... فأبى واستكبر أصيده
وهززت قوامك أعطفه ... فنبا وتمنع أملده
سبب لرضاك أمهده ... ما بال الخصر يعقده
بيني في الحب وبينك ما ... لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لي ... باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تجن به ... فأقول وأوشك أعبده
مولاي وروحي في يده ... قد ضيعها سلمت يده
ناقوس القلب يدق له ... وحنايا الأضلع معبده
حسادي فيه أعذرهم ... وأحق بعذري حسده
قسما بثنايا لؤلؤها ... قسم الياقوت منضده
ورضاب يوعد كوثره ... مقتول العشق ومشهده
وبخال كاد يحج له ... لو كان يقبل أسوده
وقوام يروى الغصن له ... نسبا والرمح يفنده

وبخصر أوهن من جلدي ... وعوادي الهجر تبدده
ما خنت هواك ولا خطرت ... سلوى بالقلب تبرده

الموازنة

ولنذكر أولا ما في القصيدتين من الأغراض، وإنا لنجد الحصري تكلم عن طول الليل وطيف الخيال وخمر الرضاب، وسيف المقلة، وجناية العين، وحمرة الخد، واستعطاف الحبيب، وفناء المحب، ونجد شوقي تكلم عن لوعة المضنى، وطيف الخيال، وجمال المحبوب وجناية العين، وحسن القد والجيد، ودقة الخصر، والصبر على الوشاة وتفدية الحبيب، والرفق بالحساد، والحرص على الحب، والبراءة من السلوان، فقصيدة شوقي إذن أحفل بالأغراض.

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع، وإنا لنجد الحصري يقول:

يا ليل الصب متى غده ... أقيام الساعة موعده
رقد السمار وأرقه ... أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له ... مما يرعاه ويرصده

ونجد شوقي يقول:

مضناك جفاه مرقده ... وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه ... مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا إلا رمقا ... يبقيه عليك وتنفده

يستهوي الورق تأوهه ... ويذيب الصخر تنهده
ويناجي النجم ويتبعه ... ويقيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة ... شجنا في الدوح ترددده

والمطلع في رأينا هو أول صورة شعرية لا أول بيت، ومطلع شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصري وخطاب الحبيب في قول شوقي:

مضناك جفاه مرقده ... وبكاه ورحم عوده

أرق من خطاب الليل في قول الحصري:

يا ليل الصب متى غده ... أقيام الساعة موعده

وقول الشاعر شوقي في حيرة المحب وعذابه وفنائه:

حيران القلب معذبه ... مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا إلا رمقا ... يبقيه عليك وتنفده
يستهوي الورق تأوهه ... ويذيب الصخر تنهده

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصري:

رقد السمار وأرقه ... أسف للبين يردده

وقول شوقي:

ويناجي النجم ويتبعه ... ويقيم الليل ويقعده

أقرب في صدره إلى الواقع من قول الحصري:

فبكاه النجم ورق له ... مما يرعاه ويرصده

وقول الحصري في تصيد الطيف:

نصبت عيناي له شركا ... في النوم فعز تصيده
وكفى عجبا أني قنص ... للسرب سباني أغيده

أبرع من قول شوقي:

كم مد لطيفك من شرك ... وتأدب لا يتصيده
فعساك بغمض مسعفه ... ولعل خيالك يسعده

لأن الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة -وهي تمنع الطيف- فليس في طوق المحب أن يظفر بطيف حبيبه كلما مد له الأشراك..

ولا يعجبني تأدب شوقي في قوله:

كم مد لطيفك من شرك ... وتأدب لا يتصيده

لأن التأدب هنا ضعف، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحمدنا له هيبة الحسن وإن الحسن لمهيب الجناب [1].

ويروقني قول شوقي:

مولاي وروحي في يده ... قد ضيعها سلمت يده
ناقوس القلب يدق له ... وحنايا الأضلع معبده

---

(١) هذه اللفتة تذكر بقول الشاعر:

حمى نفسه الحسن أضعاف ما ... حمى نفسه الجمر لما التهب

حـــسادي فيـــه أعـــذرهم وأحـــق بعـــذري حـــسده

فإن فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه في ظلمه وعدوانه ولم يعرض الحصري لمثل هذا المعنى البديع، وأخلق بهذه الأبيات أن تكون صلاة للحسن، إن قضى الله أن نصلي له، كما يصلي فريق للشمس عند الشروق، والهوى -كما قيل- إله معبود.

وما أرفق شوقي وأرقه حين يقول:

قـــد ود جمالـــك أو قبـــسا حـــوراء الخلـــد وأمـــرده

فإن الحسن لا يعبد بأرق من هذا الوصف، وهل العبادة إلا وصف المعبود بالتفرد والجلال.

وقول الحصري:

صـــاح والخمـــر جنـــى فمـــه ســـكران اللحـــظ معربـــده

أروع وأبدع من قول شوقي:

ورضـــاب يوعـــد كـــوثره مقتـــول العـــشق ومـــشهده

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين، فإن بيت الحصري بيت فذ نادر المثال، وفيه وحده صورة شعرية رائعة. وما رددته إلا فتنت به فتنة جديده وظهر لي منه معنى جديد كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه. ولا حد لقدرته على تصريف القلوب.

ولك أن تتأمل كلمة (جنى) في قوله:

صـــاح والخمـــر جنـــى فمـــه ســـكران اللحـــظ معربـــده

وما هذه العربدة يا صاح؟ إنها الأشراك التي يقيدك بها اللحظ، وأنت تنهل من ورده العذب الجميل.

وقول شوقي:

جحـــدت عينـــاك زكـــي دمـــي أكـــذلك خـــدك يجحـــده
قـــد عـــز شـــهودي إذ رمتـــا فـــأشرت لخـــدك أشـــهده

أرق من قول الحصري:

يـــا مـــن جحـــدت عينـــاه دمـــي وعـــلى خديـــه تـــورده
خـــداك قـــد اعترفـــا بـــدمي فعـــلام جفونـــك تجحـــده

لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئا من الحسن وزاده تمكينا في النفس على ما فيه من الابتذال.

وقد أجاد الحصري في استعطاف الحبيب إذ يقول:

لم يبـــق هـــواك لـــه رمقـــا فليبـــك عليـــه عـــوده
وغـــدا يقـــضي أو بعـــد غـــد هـــل مـــن نظـــر يتـــزوده

ولا نجد هذه النغمة المحزنة في قصيدة شوقي وإنها لتذكرنا بهذا البيت الحزين:

وأرى الأيـــام لا تـــدني الـــذي أرتجـــي منـــك وتـــدني أجـــلي

مظان الضعف

وإني لأستثقل الصنم المنتصب في قول الحصري:

صـــنم للفتنـــة منتـــصب　　أهـــــواه ولا أتعبـــــده

لأن كلمة (الصنم) كلمة غير شعرية والعرب تستملح (الدمية) في وصف المرأة الجميلة والدمية هي الصورة المنشقة من الرخام والجمع دمي، قال بعض الأعراب:

وإني لأهـدي بـالأوانس كالـدمى　　وإني بـأطراف القنـا للعـسوب

وإني عـلى مـا كـان مـن عنجهيتـي　　ولوثـة أعرابيتـي لأديـب

وكذلك أستضعف قول الحصري:

مـا أحـلى الوصـل وأعذبـه　　لـولا الأيـام تنكـده

بـالبين وبـالهجران فيـا　　لفـؤادي كيـف تجلـده

وأضعف منه قول شوقي:

بينـي في الحـب وبينـك مـا　　لا يقـدر واش يفـسده

مـا بـال العـاذل يفـتح لي　　بـاب الـسلوان وأوصـده

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين. وهو لا يزيد شيئا عن صوت العامي المشهور (كيد العواذل كايدني بس اسمع شوف).

وكذلك لا قيمة لقوله:

وبخـصر أوهـن مـن جلـدي　　وعـوادي الهجـر تبـدده

وهي مبالغة مردودة لأن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادي الصدور.

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال:

وقـــوام يـــروي الغـــصن لـــه ... نـــسبا والـــرمح يفنـــده

كما أساء الحصري إلى شعره إذ قال:

إني لأعيـــذك مـــن قـــتلي ... وأظنـــك لا تتعمـــده

فإن هذا خيال فقهاء لا خيال شعراء..

روعة الخيال

وإنه ليجمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال الرائع وإنا لنستجيد قول الحصري:

ينـــضو مـــن مقتلـــه ســـيفا ... وكـــأن نعاســـا يغمـــده

فبريـــق دم العـــشاق بـــه ... والويـــل لمـــن يتقلـــده

كـــلا لا ذنـــب لمـــن قتلـــت ... عينـــاه ولم تقتـــل يـــده

وأن البيت الأول لمن وثبات الخيال، وفي البيت الثاني ضعف، والثالث مع ضعفه مستملح مقبول.

ونستجيد كذلك قول شوقي:

نـــاقوس القلـــب يـــدق لـــه ... وحنايـــا الأضـــلع معبـــده

وللقارئ أن يلومنا في استجادة هذا البيت، وأن يذكر أن هذا أيضا خيال فقهاء، لا خيال شعراء، ولنا أن نذكر القارئ بأن المعابد والنواقيس من الألفاظ التي استملحها العرب، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو وملاعب الشباب، ولهم في الأديار شعر ممتع عنيت بتفصيله في غير هذا الحديث، وكذلك ظرف شوقي حين تحدث عن المعبد والناقوس وكان خياله قريبا من الحسن من خيال الحصري، إذ توهم للحظ سيفا يكاد يغمده النعاس، وإني لمفتون بهذا الخيال.

البراعة في تناول المعاني

وإنا لنرى شوقي أبرع من الحصري في تناول المعاني، ومن السهل أن نعلل هذا.. فإن الحصري لم يجر في قصيدته إلا على الفطرة وكان من ذلك أن رضي بعفو الخاطر أما شوقي فمعارض من همه أن يظفر بالسبق. وكان من ذلك أن عني بترتيب المعاني واختيار الألفاظ وتنوع الأغراض. على أن هذا التكلف لم يمض بلا عيوب فإنه لا معنى لقول الشاعر شوقي:

وبخـــال كـــاد يحـــج لـــه ... لـــو كـــان يقبـــل أســـوده

ولا رونق لقوله:

وتمنـــت كـــل مقطعـــة ... يـــدها لـــو تبعـــث تـــشهده

الحكم

وللقارئ إن شاء الحكم أن يرجع إلى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن ومظان الضعف ومواقع الخيال ليرى أي الشاعرين أولى بالسبق، وأيهما أرجح في الميزان. وحسبه أن دللناه على ما في القصيدتين من المحاسن والعيوب، فإننا لا نعنى بالأشخاص وإنما يعنينا أن ندرس الشعر وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف والحسن والقبح، وكذلك ندرس البيان ونحن نوازن بين الشعراء.

البحتري وشوقي

قلنا: إن لشوقي كلفا بمعارضة المتقدمين من الشعراء ووازنا بين داليته ودالية الحصري في الكلمة السابقة، والآن نوازن بينه وبين البحتري فقد عارض سينيته في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء. ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة، ليقف القارئ على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان.

ولنذكر أولا أن شوقي يتأثر بالبحتري منذ زمن بعيد ويود لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية، التي ضربت بها الأمثال.

ولننظر كيف يقول في خطاب (أم المحسنين):

النيل فجر مشرعين وعيلما ... وتفجرت يمناك خمسة أبحر
أحييت في فضل الملوك وعزهم ... ما مات من أم الخليفة جعفر
إن الذي قد ردها وأعادها ... في بردتيك أعاد في البحتري

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء:

وعظ البحتري إيوان كسرى ... وشفتني القصور من عبد شمس

حياة البحتري:

ولد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في سنة ٢٠٦ بمنبج بين حلب والفرات. ومَنْبِج -بالفتح ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم- بلد قديم

طيب الهواء، ولد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم: البحتري وأبو فراس ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد لما دخل منبج: أهذا منزلك؟ قال: هو لك ولي بك يا أمير المؤمنين قال: كيف بناؤه؟؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس.

قال: وكيف ذلك وقدرك فوق أقدارهم؟؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به وأقفو أثره وأحذو حذوه. قال: فكيف طيب منبج؟ قال: عذبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدواء. قال: فكيف ليلها؟ قال: سحر كله.

وفي التشوق إلى منبج يقول إبراهيم بن المدبر وقد خلى بها شعبة من فؤاده:

وليلة عين المرج زار خياله ... فهيج بي شوقا وجدد أحزاني
فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحا ... بألمح آماق وأنظر إنسان
لعلي أرى أبيات منبج رؤية ... تسكن من وجدي وتكشف
فقصر طرفي واستهل بعبرة ... وفديت من لو كان يدري لفداني
ومثله شوقي إليه مقابلي ... وناجاه عني بالضمير وناجاني

وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لتدرك بعض السر في رقة البحتري وجمال شعره فإن للبلد الطيب الهواء، العذب الماء، القليل الأدواء، أثرا كبيرا في تكوين نفس الشاعر، والكاتب، والخطيب [1] ولأن البحتري كان كثير الحنين

(١)انظر تفصيل هذا المعنى في الكلام عن أبي الحسن الجرجاني في الجزء الثاني من كتاب (النثر الفني).

إلى منبج، وكان كثيرا ما يشيد بها في شعره. ولننظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي:

لا أنسين زمنا لديك مهذبا ... وظلال عيش كان عندك سجسج
في نعمة أوطنتها وسكنت في ... أفيائها فكأنني في منبج

بداية حياته

شب البحتري وترعرع في منبج. وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب البصل والباذنجان قالوا: وكان منه ما كان في علوة التي شبب بها في كثير من أشعاره، وهي بنت زريقة الحلبية وزريقة أمها ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم علوة لها شأن في عالم الجمال وأن البحتري حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده إلا بين يدي فتاة لعوب، نشأت في عهد المرح وتقلبت فوق أعطاف الدلال.. ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير لخلفوا لنا دمية لعلوة. وأرونا كيف كانت هذه الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد. وعلمته كيف تكون الشكوى وكيف يكون الأنين.. وأن الشعر لمدين لهذه الآلهة التي أوحت إلى البحتري أن يقول بعد أن خلاها بالشام وسكن العراق:

أعيدي في نظرة مستثيب ... توخى الأجر أو كره الأثاما
ترى كبدا محرقة وعينا ... مؤرقة وقلبا مستهاما
ألام على هواك وليس عدلا ... إذا أحببت مثلك أن ألاما
لقد حرمت من وصلي حلالا ... وقد حللت من هجري حراما
تناءت دار علوة بعد قرب ... فهل ركب يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبا علينا ... فما يعتادنا إلا لماما

وربت ليلة قد بت أسقي ... بعينيها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقا ... وأفنيناه ضما والتزاما
لئن أضحت محلتنا عرافا ... مشرقة وحلتها شآما
فلم أحدث لها إلا ودادا ... ولم أزدد بها إلا غراما

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحتري سلطان ومن الوقار أن لا نعرض لها في هذا الحديث وقد بسطنا عنها القول في كتاب (مدامع العشاق) ويكفي أن نذكر أنموذجا من شعره في وصف تلك النفس وأنه ليقول:

هل لي سبيل إلى الظهران من ... ونشوة بين ذاك الورد والآس
أمد كفي لأخذ الكأس من رشأ ... وحاجتي كلها في حامل الكاس
بقرب أنفاسه أشفي الغليل إذا ... دنا فقربها من حر أنفاسي

اتصاله بأبي تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحتري من عهد إلى عهد هو اتصاله بأبي تمام أمير الشعراء في ذلك الحين، فقد صار إليه وهو بحمص وعرض عليه شعره. وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره. فلما سمع شعر البحتري أقبل عليه وترك سائر الناس فلما تفرقوا قال له: أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك؟ فشكا إليه خلة، فكتب إلى أهل معرة النعمان يشهد له بالحذق ويوصيهم بإكرامه.. قال البحتري (فأكرموني بكتابه، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم. فكانت أول مال أصبته) وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شيئا من شعري فأنشدني بيت أوس بن حجر:

إذا مقـــرم منـــا ذرى حـــد نابـــه تخمـــط فينـــا نـــاب آخـــر مقـــرم [١]

وقال: نعيت إلي نفسي.. فقلت: أعيذك بالله من هذا! فقال: إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطيئ مثلك. أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم وهو من رهطه فقال: يا بني نعي نفسي إلى إحسانك في كلامك، لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله.

قال: فمات أبو تمام بعد سنة من هذا.

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام، ولكنها شاهد على حسن رأيه في شعر البحتري، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر حتى قالوا: إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

وقال البحتري: أنشدت أبا تمام شعرا لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال له خطر فقال لي (أحسنت. أنت أمير الشعراء بعدي) فكان قوله أحب إلي من جميع ما حويته.

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبي تمام للبحتري فقد نوه بها ابن رشيق وساقها صاحب زهر الآداب وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر وذوقه في اختيار الأوقات، وتدلنا على أسلوب البحتري في حياته الأدبية فقد ساس نفسه

---

(١) الفحل المقرم هو الذي أقرمه صاحبه: تركه عن الركوب والعمل وودعه للفحلة والقرمة. وتخمط الفحل: هدر. ومن المجاز: تخمط الرجل: تغضب وثار، والمراد هنا من تخمط الناب ظهوره وارتفاعه.

بما أوصاه به أستاذه وفيها أيضا نوع من التربية نحب أن نسجله في هذا الحديث.

قال البحتري: كنت في حداثتي أروم الشعر وكنت أرجع فيه إلى طبعي ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصدت أبا تمام وانقطعت فيه إليه. واتكلت في تعريفه عليه. فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم، صفرا من الغموم واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا. والمعنى رشيقا وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أياد، فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه، وأبن معالمه وشرف مقامه، ونضد المعاني، واحذر المجهول منها وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين: فما استحسن العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله.

قال البحتري: فأعلمت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة [1].

(١) السياسة هنا حسن التدبير.

ولهذه الوصية أغراض.. يرجع بعضها إلى رياضة النفس تأهبا للقريض ويرجع بعضها إلى جوهر الفن، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس ويلطف الحس. ويستيقظ الوجدان ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية والرياض الحالية، والأماكن الخالية إلا أن أبا تمام -مع أنه مسبوق- وفق كل التوفيق حين قال: (واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه فإن الشهوة نعم المعين) وهذه الكلمة فاصلة في حياة الفنانين على الإطلاق سواء أكانوا شعراء أم كتابا، أم مصورين، أم مثالين، لأن الإجادة في الفنون تتوقف على الشهوة. وأكاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد إلا إن كان له من فنه معبود جديد.

وأما فيما يرجع إلى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمديح وسكت عن بقية الأغراض التي يهتم بها الشعراء فلم يتكلم عن الرثاء ولا الهجاء ولا الفخر ولا الوصف. مع أن الوصف من أهم ما يعنى به الشعراء ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع إذ قال: (ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد) وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال.

ولا يحسبن القارئ أن في إقبال البحتري على ما أوصاه به أستاذه دليلا على أن شعر أبي تمام وشعر البحتري من نمط واحد.. كلا فإن أبا تمام في وصيته يمثل الأستاذ ولا يقبل أن يمثل الشاعر لأنا لو حاكمنا شعره إلى وصيته لراعنا

ما بين المنزعين من الفرق البعيد ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب فإن أبا تمام لم يتغن بالحسن إلا قليلا وحظه من صدق اللوعة ضئيل.

شخصية شوقي

ومهما يكن من شيء، فإن في عناية البحتري بوصية أستاذه بيانا لأسلوبه في رياضة نفسه وتهذيب شعره فلننظر بهذه المناسبة كيف يروض شوقي نفسه وكيف يهذب شعره وكيف يتناول ما يقصده إلى نظمه من شتى الأغراض فقد صحبنا شوقي وعاصرناه وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن نضعها في الميزان. وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم.

صاحب شوقي إن شئت فستراه قليل الحديث وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع لهذا الرجل الصموت. وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدبين ولكني وقد عرفت شوقي أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليلى. وليلاه هي الشعر وهو بالشعر مجنون لا مغرم ولا مفتون فإن الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب يحدثك شوقي حديثا عاديا لا روعة له ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه وحنايا نفسه وأعماق ضميره. دخلت عليه وهو يتأهب لرثاء عبد اللطيف الصوفاني فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد.. ثم بغتني بهذه الكلمة (الصوفاني بك معضلة من المعضلات هو تمثال إخلاص، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء؟؟) فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن

الجامعة المصرية وأن قلبه ونفسه وحسه ووجدانه في شغل بما يعده لرثاء الصوفاني (تمثال الإخلاص) وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئا في تحديد تلك الشخصية ثم انتظرت يوم التأبين فإذا هو يقول عن أثر الفقيد في المجالس النيابية:

ما كان قسا ولا زيادا ... ولا بسحر البيان جاء
لكن إذا قام قال صدقا ... وجانب الزور والرياء

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفا صادقا حين قال:

(ينظم بين أصحابه فيكون معهم، وليس معهم وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي وحين يشاء وحيث يشاء ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ غمغمة النغم الصادر من غور بعيد ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه إمرارا خفيفا هنيهة بعد هنيهة فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه جميل البادرة كعادته في الحديث. ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهرا ما تم منه حافظا لبقية المعنى الذي يضمره يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهرا، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة -يكلف أحيانا بمعارضة المتقدمين، ولا يندر عليه أن يبزهم- لا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو مبنى فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والأعراب، وفلسفة الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير

التي يحفظ منها غير يسير إلى مشاركات علمية وتنبيهات فنية استقاها من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول: ترى فيه من نسج البحتري ومن صياغة أبي تمام ومن وثبات المتنبي ومن مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم وهي أنه نظم شوقي: ذلك شعر العبقرية والتفوق).

ملامح وصفية

وإذا ذكرنا عادة البحتري وشوقي في قرض الشعر فلنذكر كذلك أنهما يشتركان في العناية بالآداب العربية فقد ترك البحتري كتابا سماه (معاني الشعر)[1] وترك كتابا آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات وشوقي -وإن لم يصنف كتبا في الآداب- يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب. ويختلفان في إنشاد الشعر والإشادة به فقد كان البحتري يحتفي بإنشاد شعره ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب، كان يطيل النظر في وجوه الحاضرين ليرى مبلغ إعجابهم به وإكبارهم له حتى نفر الناس منه وعبث أهل السفه به وأصحاب المجون. أما شوقي: فقلما يتحدث عن شعره وقلما ينشده وإنما يوكل بإنشاده من يتوسم فيه حسن الفهم، وحسن الأداء، وهذا المسلك -

(١)قد يظن أن هذا كتاب في النقد ولكنا نرجح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة على حسب المعاني.

مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم- غير مأمون العواقب وكثيرا ما آذى الشاعر، وعاد عليه بالضرر البليغ.

وفاء البحتري وشوقي

ولقد كانتَ الشاعرية، ولا تزال، دالة على سمو النفس، ويقظة الوجدان والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس، وقد وقع للبحتري وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس ومتانة الخلق وكرم العنصر ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي فلنكتف بهذا التلميح ولنذكر ما ضير البحتري مثلا في الوفاء.

كان المتوكل -كما ذكر صاحب زهر الآداب- عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المنتظر، ويقول له: أنت تتمنى موتي وتنتظر وقتي ويأمر الندماء أن يعبثوا به إلى أن أوغر صدره وأقل صبره فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفري ومعه جماعة من الندماء والمغنين وكان المنتصر معهم فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل، قال لزرافة التركي: ألا تسمعني ساعة حتى أشكون إليك ما يمر بي؟ قال: بلى، وجعل يماطله ويطاوله وغلق بغا الشرابي الأبواب كلها إلا باب الماء ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل وقد ضربوه ضربة قطع بها حبل عاتقه وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه فقتلا جميعا وبويع المنتصر من ساعته. قال الحصري (وكانت مدة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة

أشهر) وللظالم الويل، كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين.. وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحتري. وكان استبداد المنتصر إذ ذاك كافيا في ردعه عن رثاء مولاه، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله: ما قيلت هاشمية أحسن منها وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب) وفيها يقول:

تغير حسن الجعفري وأنسه ... وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءه ... فآضت سواء دوره ومقابره
ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت ... على عجل أستاره وستائره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
فأين عميد الناس في كل نوبة ... تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره
تخفى له مغتاله تحت غرة ... وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
صريع تقاضاه السيوف حشاشة ... يجود بها والموت حمر أظافره
حرام على الراح بعدك أو أرى ... دما بدم يجري على الأرض مائره
وهل يرتجى أن يطلب الدم طالب ... مدى الدهر والموتور بالدم واتره
فلا ملى الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك أن البحتري كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة، إنه لم يقف عند هذا الحد، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر المتوكل بن خاقان وانظر كيف يفض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يمدحه:

تداركني الإحسان منك ونالني ... على فاقة ذاك الندى والتطول

ودافعت عني حين لا الفتح ... لدفع الأذى عني ولا المتوكل

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية:

مضى جعفر والفتح بين موسد ... وبين قتيل في الدماء مضرج
أأطلب أنصارا على الدهر بعد ما ... ثوى منهما في الترب أوسى

وانظر كيف يقول وقد بان بعض من يهوى:

عسى آيس من رجعة الوصل ... ودهر تولى بالأحبة يقبل
أيا سكنا فات الفراق بنفسه ... وحال التعادي دونه والتزيل
أتعجب لما لم يغل جسمي الضنى ... ولم يخترم نفسي الحمام المعجل
فقبلك بان الفتح عني مودعا ... وفارقني شفعا له المتوكل
فما بلغ الدمع الذي كنت أرتجي ... ولا فعل الوجد الذي خلت يفعل
وما كل نيران الجوى تقتل الحشا ... وما كل أدواء الصبابة تقتل

تلك هي نفس البحتري الذي عذبته علوة في بداية حياته وصهره الحزن على المتوكل في أخريات أيامه وقد عرف القارئ عنه شيئا فيه بعض الغناء وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والائتلاف. ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك والتفجع لنكبات الشعوب قبل أن يرى كيف وصف البحتري إيوان كسرى وكيف وصف شوقي قصر الحمراء.

بكاء الممالك عند البحتري وشوقي

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية لا اجتماعية، فكان الشاعر يبكي وجده ونعيمه وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول، ولم يهتم العرب ببكاء الممالك والتفجع للشعوب إذ كانوا في بداية الحياة، وكان الرجل منهم قلما يعنى بغير نفسه وأهله وذويه فكانوا في شغل بأنفسهم عن بلايا الإنسانية التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون.

ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة مسلك التخويف والترهيب فلم يعطف عليها بكلمة، ولم يستر لها عورة، لأن القرآن لم يكن كتاب شعر، يرمي إلى روعة الفن وجمال الخيال؛ وإنما كتاب حكمة وموعظة فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب}.

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية لكان له شأن غير هذا الشأن، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس ومن إليهم من الجبابرة والطغاة، فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يغيض لو كان القرآن كتاب فن وكتاب خيال. على أن العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة ولم يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة

المدنية وإن شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي:

نام الخلي وما أحس رقادي ... والهم محتضر لدى وسادي
من غير ما سقم ولكن شفني ... هم أراه قد أصاب فؤادي
ومن الحوادث لا أبا لك أنني ... ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهتدي فيها لموضع تلعة ... بين العراق وبين أرض مراد
ولقد علمت سوى الذي نبأتني ... أن السبيل سبيل ذي الأعواد
إن المنية والحتوف كلاهما ... يوفى المخارم يرقبان سوادي
لن يرضيا مني وفاء رهينة ... من دون نفسي طارفي وتلادي

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين:

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
أرض تخيرها لطيب مقيلها ... كعب بن مامة وابن أم دواد
جرت الرياح على مكان ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهمو ... ماء الفرات يجيء من أطواد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به ... يوما يصير إلى بلى ونفاد

ثم عاد إلى بكاء شبابه فقال:

أما ترني قد بليت وغاضني ... ما نيل من بصري ومن أجلادي

---

(١) الأجلاد: جمع جلدة بالتحريك، وهو القوة.

وعـــصيت أصـــحاب الـــصبابة ... وأطعـــت عـــاذلتي ولان قيـــادي
فلقـــد أروح عـــلى التجـــار مـــرجلا ... مـــذلا بـــسمالي لينـــا أجيـــادي
لقـــد لهـــوت وللـــشباب لـــذاذة ... بـــسلافة مزجـــت بـــماء غـــواد
مـــن خمـــر ذي نطـــف أغـــن منطـــق ... وافى بهـــا لـــدراهم الأمجـــاد
يـــسعى بهـــا ذو تـــومتين مـــشمر ... قنـــأت أناملـــه مـــن الفرصـــاد
والبـــيض يـــرمين القلـــوب كأنهـــا ... أدحـــى بـــين صريمـــة وجمـــاد
يـــنطقن معروفـــا وهـــن نـــواعم ... بـــيض الوجـــوه رقيقـــة الأكبـــاد

ونحا هذا المنحى متمم بن نويرة في عينيته التي يقول فيها:

ولقـــد علمـــت ولا محالـــة أننـــي ... للحادثـــات فهـــل ترينـــي أجـــزع
أفنـــين عـــادا ثـــم آل محـــرق ... فتركـــنهم بـــددا ومـــا قـــد جمعـــوا
ولهـــن كـــان الحارثـــان كلاهمـــا ... ولهـــن كـــان أخـــو المـــصانع تبـــع [1]
لا بـــد مـــن تلـــف مـــصيب فـــانتظر ... أبـــأرض قومـــك أم بـــأخرى تـــصرع
وليتـــأتين عليـــك يـــوم مـــرة ... يبكـــي عليـــك مقنعـــا لا تـــسمع

وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما انقرض من الممالك والشعوب ولكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي تشد إليها الرحال. كوقفة البحتري عند رسوم الإيوان ووقفة شوقي عند أطلال الحمراء.

(١) المصانع: القصور.

إيوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن إيوان كسرى، الذي استلم البحتري أحجاره، وطاف بأركانه كان مضرب المثل عند الأعراب فقد قيل لأعرابي:

كيف تصنع بالبادية إذا انتصب النهار، وانتعل كل شيء ظله؟ فأجاب وهل العيش إلا ذاك؟ يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى.

وقد حكي فيما نقل ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آلته في عمارة بغداد. فقال له:

لا تفعل يا أمير المؤمنين. فقال: أبيت إلا التعصب للفرس. فقال: ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين ولكنه أثر عظيم يدل على أن ملة ودينا وقوما أذهبوا ملك بانيه لدين وملك عظيم، فلم يصغ إلى رأيه وأمر بهدمه فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة فتركه، فقال خالد: الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه، لئلا يقال عنك: عجزت عن خراب ما عمره غيرك، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة.

وقد تكون الحكاية صحيحة، وقد تكون خرافة تناقلها الناس ولكنها على كل حال دليل على منزلة الإيوان في صدور العرب لذلك العهد، أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس. والأندلس هي الفردوس. المفقود. الذي يبكيه المسلمون ولنتنظر فسيحدثنا شوقي عنه أصدق الحديث.

نفسية البحتري

وأريد بنفسية البحتري ذلك الخاطر الذي استولى عليه حين هم بوصف الإيوان وقد رأيناه يذكر لذلك علتين: إحداهما في بداية القصيدة والثانية في النهاية أما الأولى فهي الهرب من الهموم ومن ظلم الأقارب بالفزع إلى طلول الإيوان، ينسى في أكنافها حزنه وبثه، ويستودعها أساه وشجاه وذلك حيث يقول:

صنت نفسي عما يدنس نفسي ... وترفعت عن ندى كل جبس [١]
وتماسكت حيث زعزعني الـ ... ـدهر التماسا منه لتعسي ونكسي
بلغ من صبابة العيش عندي ... طففتها الأيام تطفيف بخس
وبعيد ما بين وارد رفه ... علل شربه ووارد خمس [٢]
وكأن الزمان أصبح محمو ... لا هواه مع الأخس الأخس
واشترائي العراق خطة غبن ... بعد بيعي الشآم بيعة وكس
لا ترزني مزاولا لاختياري ... عند هذي البلوى فتنكر مسي [٣]
وقديما عهدتني ذا هنات ... آبيات على الدنيئات شمس
ولقد رابني نبو ابن عمي ... بعد لين من جانبيه وأنس
وإذا ما جفيت كنت حريا ... أن أرى غير مصبح حيث أمسي

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة فقال:

---

(١) الجبس: هو الدنيء الجبان.

(٢) الخمس: شر الإظماء.

(٣) لا ترزني: لا تمتحني.

حـضرت رحـلي الهمـوم فوجهـ ـت إلى أبـيض المـدائن عنـي
أتـسلى عـن الحظـوظ وآسـى لمحـل مـن آل ساسـان درس
ذكـرتنيهم الخطـوب التـوالي ولقـد تـذكر الخطـوب وتنـسي

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الإيوان. وليست الدار داره ولا الجنس جنسه، لأن لأهله نعمى عند أهله، ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قواه بما أمدوهم من الكتائب في أيام القتال وذلك حيث يقول:

عمـرت للـسرور دهـرا وصـارت للتعـزي ريـاعهم والتـأسي
فلهـا أن أعينهـا بـدموع موقفـات عـلى الـصبابة حـبس
ذاك عنـدي وليـست الـدار داري بـاقتراب منهـا ولا الجـنس جنـسي
غـير نعمـى لأهلهـا عنـد أهـلي غرسـوا مـن ذكائهـا خـير غـرس
أيـدوا ملكنـا وشـدوا قـواه بكـماة تحـت الـسنور خمـس [1]
وأعـانوا عـلى كتائـب أريـا ط بطعـن عـلى النحـور ودعـس
وأراني مـن بعـد أكلـف بالأشـ ـراف طـرا مـن كـل سـنخ وأس [2]

وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالأشراف من كل جنس ويبكي المجد الذاهب، وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب.

(١) السنور: السلاح.
(٢) السنخ: الأصل والأجنس.

نفسية شوقي

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء، فترك لنا قطعة منثورة تصف حسه ووجدانه وهو يطوف بذلك البيت، وقد سلك شوقي هذا المسلك غير مرة فإنا نراه قدم قصيدته في وصف رومة برسالة بعث بها إلى أستاذنا الجليل إسماعيل رأفت، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للأستاذ مرجليوث قصيدته في وصف النيل، وإلى القارئ كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون:

(لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها، ورم لهم ربوع السلم وجدد مزارها أصبحت وإذا العوادي مقصرة، والدواعي غير مقصرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجد والبخار المشتد، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط فبلغت النفس بمرآة الأدب وكحلت العين في ثراه بآثار العرب وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع في ذلك الفلك الجامع، يسري زائرها من حرم إلى حرم كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم، فلا تقارب غير العتق والكرم، طليطلة تطل على جسرها البالي، وإشبيلية على قصرها الخالي، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء، وكان البحتري رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال والأحوال تصلح على الرجال، كل رجل لحال، فإنه أبلغ من جلى الأثر وحيا الحجر ونشر الخبر وحشر العبر،

ومن قام في مأتم على الدول الكبرى، والملوك البهاليل الغرر، عطف على الجعفري حين تحمل عنه الملا، وعطل من الحلى، ووكل بعد المتوكل للبلى، فرفع قواعده في السير وبنى ركنه في الخبر وجمع معالمه في الفكر حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وإن خلا البصر، وتكفل بعد ذلك لكسرى بإيوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه وسينيته المشهورة في وصفه ليست دونه وهو تحت كسرى في رصه ووصفه، وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار. قال صاحب (الفيح القسي في الفتح القدسي) بعد كلام:

(فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحتري في وصفه، تجدوا الإيوان قد خرت شعفاته وعفرت شرفاته وتجدوا سينية البحتري قد بقي بها كسرى في ديوانه أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه).

وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها:

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن ندى كل جبس

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله:

والمنايا مواثل وأنوشر وان يزجي الصفوف تحت

فكنت كلما وقفت بحجر أو طفت بأثر بأبياتها واسترحت من مواثل العبر إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وعظ البحتري إيوان كسرى وشفتني القصور من عبد شمس

---

(١)الدرفس: العلم وهي كلمة فارسية.

(ثم جعلت أروض القول على هذا الروي وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المهلهلة وأتممت هذه الكلمة الريضة وأنا أعرضها على القراء راجيا أن يلحظوها بعين الرضاء ويسحبوا على عيوبها ذيل الإغضاء).

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي فهو يسجع ولا يكاد يبين [1] غير أنه قد يوفق إلى تشابيه مبتكرة تسير مسير الأمثال كقوله في وصف آثار العرب في بلاد الإسبان:

(يسري زائرها من حرم إلى حرم، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم).

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل).

وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحتري فهو عنده أبلغ من جلى الأثر، وحيا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر، وتصور لنا تلك الكلمة ما كان يجول في نفس شوقي وكيف كان روح البحتري يطيف به وهو يطوف بالحمراء.

ولا ندري من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد من قصيدة البحتري هو قوله:

والمنايـــا مواثـــل وأنـــوشر وان يزجـــي الـــصفوف تحـــت

وكنا نحب لو تنبه لقوله في وصف الإيوان:

لـيس يـدرى أصـنع إنـس لجـن سـكنوه أم صـنع جـن لإنـس

(١)غضب شوقي رحمه الله من هذه الكلمة وكان يرى نفسه أكتب الناس ونحن لا نؤمن بقوته الكتابية ولكنا مع ذلك نراه بلغ الغاية في رسالته عن قناة السويس.

وقوله في بكائه:

لـــو تـــراه علمـــت أن الليـــالي جعلـــت فيـــه مأتمـــا بعـــد عـــرس

ولشوقي رأيه، فقد يختلف النقد أحيانا باختلاف الأذواق.

حنين شوقي لمصر

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحتري ابتدأ سينيته بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان، والتنكر لظلم الأقربين، وكان ذلك لأن نزعته لم تكن اجتماعية وإنما كانت فردية. أما شوقي فقد ابتدأ سينيته بقطعة وجدانية تفيض بالحنين إلى مصر، وتزخر بالشوق إلى النيل، وهو كأنما يتكلم عن نفسه، ويحدث الناس عن شجونه، ولكنه في الواقع يتوجع لما يعاني وطنه من وطأة الظلم ويتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة الاضطهاد وإنه ليبكي ملاعب شبابه وعهود صباه حين يقول في مطلع هذه السينية:

اخـتلاف النهـار والليـل ينـسي فـاذكرا لي الـصبا وأيـام أنـسي
وصـفا لي مـلاوة مـن شـباب صـورت مـن تـصورات ومـس
عـصفت كالـصبا اللعـوب ومـرت سـنة حلـوة ولـذة خلـس

ثم يأخذ في الحديث عن مصر فيقول:

وسـلا مـصر هـل سـلا القلـب عنهـا أو أسـا جرحـه الزمـان المـؤسي
كلـما مـرت الليـالي عليـه رق والعهـد في الليـالي تقـسي
مـستطار إذا البـواخر رنـت أول الليـل أو عـوت بعـد جـرس

ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أنبه القارئ إلى روعة الحسن في قوله:

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي، وجعل جرحه في هوى مصر أعضل من أن يطلب له الزمان، وانظر كيف وصف قلبه حين قال:

كلما مرت الليالي عليه رق والعهد في الليالي تقسي
مستطار إذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بعد جرس

وها هو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق أو هب النسيم كما كان يتحدث الأعراب، وإنما يصف ما يحسبه الغريب على شواطئ المحيط، وأين وميض البرق، وهبوب الريح من أصوات البواخر في غسق الليل؟ ثم قال:

يا بنة اليم ما أبوك بخيل ما له مولعا بمنع وحبس
أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل إلا في خبيث من المذاهب رجس

والقارئ يتلقى هذه الأبيات الآن بشيء من الطمأنينة، أما الذين قرءوها يوم قالها شوقي فلهم فيها رأي، ومن كان في ريب من هذا فليذكر الأحكام العرفية لا قدر الله لها رجعة، ولا كتب لها أوبة فقد كنا نتغنى بقول شوقي:

أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس

ثم يتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة نفرت عنها البلابل المغردة ثم صارت مأوى للبوم ومقيلا للغربان، وكذلك كانت مصر في ذلك الحين فكان شهيد الحرية محمد فريد يرسل الأماني عساها تقبل ثرى مصر، وتنهل من سلسبيل النيل، ثم لا تجاب له طلبة، ولا يدنو منه مأمول في حين أن بلاد الفراعنة كانت مفتحة الأبواب لكل أثيم القلب، وقاح الوجه خبيث اللسان وسيظل قول شوقي:

أحـــرام عـــلى بلابلـــه الـــدو ح حـلال للطـير مـن كـل جـنس

سيظل هذا البيت مثلا للشجى والأسى، حتى تغدو تلك الشجرة ذات الظلال والأفنان وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيل، أما قوله:

كـــل دار أحـــق بالأهـــل إلا في خبيـث مـن المـذاهب رجـس

فهو رمية مسددة في صدر الظلم، ونحر الاستبداد وسيظل غصة يشجى بها بعض الحلوق، ثم قال في خطاب الباخرة:

نفـــسي مرجـــل وقلبـــي شراع بهـما في الـدموع سـيري وأرسي
واجعـلي وجهـك (الفنـار) ومجـرا كـ يـد (الثغـر) بـين رمـل ومكـس
وطنـي لـو شـغلت بالخلـد عنـه نـازعتني إليـه في الخلـد نفـسي
وهفـــا بـــالفؤاد في سلـــسبيل ظمـأ للـسواد مـن عـين شـمس
شـهد الله لم يغـب عـن جفـوني شخـصه سـاعة ولم يخـل حـسي
يـــصبح الفكـــر والمـــسلة ناديـه وبالـسرحة الزكيـة يمـسي

وأي نفس يمثلها شوقي في هذا الشعر البديع إنه والله يمثل النفس المصرية وحسبي أن أقول: النفس المصرية، وهل في الدنيا -ولولا التقى لأضفت إليها الآخرة- وطن خليق بأن يعذب في سبيله أبناؤه مثل وادي النيل؟

إن الذي يعيش في مصر وله ذوق شوقي وإحساسه ليس بكثير عليه أن يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل ... ظمأ للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفوني ... شخصه ساعة ولم يخل حسي

ولقد كانت مصر ولا تزال بابا من الفتنة لكل من يمسي وله فيها رأي مطاع، وبفضلها يقول فرعون:

{أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون} ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده وهو يشاهد الأهرام: (أبهذه كفر فرعون بربه) فقال له أحد وزرائه: يا أمير المؤمنين إن الله يقول: {ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كان يعرشون} فإذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر إن غلب عليه الضلال.

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة وتغرس فيهم من الجبروت، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك، ويحبب إليه العدوان، وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطا من أسباب الفتنة في هذه البلاد!

ثم يقول شوقي وهو يتمثل الجزيرة والنيل:

وكـــأني أرى الجزيـــرة أيكـــا ... نغمـــت طـــيره بـــأرخم جـــرس
هـــي بلقـــيس في الخمائـــل صرح ... مـــن عبـــاب وصـــاحب غـــير نكـــس
حـــسبها أن تكـــون للنيـــل عرســـا ... قلبهـــا لم يجـــن يومـــا بعـــرس
لبـــست بالأصـــيل حلـــة وشـــى ... بـــين صـــنعاء في الثيـــاب وقـــس[1]
قـــدها النيـــل فاســـتحت فتـــوارت ... منـــه بالجـــسر بـــين عـــرى ولـــبس
وأرى النيـــل كـــالعقيق بواديـــ ... ـــه وإن كـــان كـــوثر المتحـــسي
ابـــن مـــاء الـــسماء ذو الموكـــب الفخـــ ... ـــم الـــذي يحـــسر العيـــون ويخـــسي
لا تـــرى في ركابـــه غـــير مـــثن ... بجميـــل أو شـــاكر فـــضل غـــرس

وهذا خيال وادع جميل، ولكن شوقي لم يصبر عليه بل عاد إلى هجيراه من النوح على مجد خوفو ورمسيس وأخذ يقول:

وأرى الجيـــزة الحزينـــة ثكـــلى ... لم تفـــق بعـــد مـــن مناحـــة رمـــسي[2]
أكثـــرت ضـــجة الـــسواقي عليـــه ... وســـؤال الـــيراع عنـــه بهمـــس
وقيـــام النخيـــل ضـــفرن شـــعرا ... وتجـــردن غـــير طـــوق وســـلس[3]
وكـــأن الأهـــرام ميـــزان فرعـــو ... ن بيـــوم عـــلى الجبـــابر نحـــس
أو قنـــاطيره تـــأنق فيهـــا ... ألـــف جـــاب وألـــف صـــاحب مكـــس
روعـــة في الـــضحى ملاعـــب جـــن ... حـــين يغـــشى الـــدجى حماهـــا ويغـــسى

---

(١) قس: بالفتح موضع بين العريش والفرماء من أرض مصر تنسب إليه الثياب القسية.

(٢) يريد رمسيس.

(٣) السلس من قولهم: سلسلت النخلة إذا ذهبت منها أصول السعف.

وكذلك يحسب شوقي وهو يندب مجد الفراعنة أن ما في الطبيعة من ماء ونبات وجمال يبكي معه ذلك الملك الذي بطش به القدر وعدا عليه القضاء.

والشاعر حين يرضى يحسب الكون يبتسم لابتسامه، وحين يغضب يحسب الكون يكتئب لاكتئابه، ولعل هذه السذاجة هي أظرف ما في الشعراء إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة، وكم في الطفولة من معان تسكن إليها شوارد النفوس.

ثم انتقل شوقي إلى الحديث عن أبي الهول فقال:

ورهين الرمال أفطس إلا ... أنه صنع جنة غير فطس
تتجلى حقيقة الناس فيه ... سبع الخلق في أسارير إنسي
لعب الدهر في ثراه صبيا ... والليالي كواعبا غير عنس [1]
ركبت صيد المقادير عينيه ... له لنقد ومخلبيه لفرس
فأصابت به الممالك كسرى ... وهرقلا والعبقري الفرنسي

وهذا أيضا خيال شعراء فهو يتوهم أن المقادير ركبت عيني أبي الهول لنقد الحوادث وأعدت مخلبيه لافتراس الطغاة، ولكن هيهات لما يظن هيهات، والويل لأمة تنتظر في خمود حتى يثأر لها قعيد الصحراء.

على أن من الحق أن نبين أن شوقي لم يسق هذه الخرافة، وهو يحسبها حقيقة إنما هو الفن يقضي على صاحبه باستغلال موارد الخيال، وأبو الهول -رضي الله عنه إن كان واليا جل جلاله إن كان إلها- معبود قديم طالما قدمت له القرابين

(١)عنس: جمع عانس وهي الفتاة يطول مكثها في دار أبيها بعد إدراكها حتى تخرج من عداد الأبكار.

ولا يزال المصريون يتيمنون بما كان يتيمن به آباؤهم من قبل ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه كما لا يزال العرب يحسبون حساب السانح والبارح أسوة بما كان يفعل آباؤهم الأقدمون. ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من أساطير الأولين ترينا كيف كان (هداة الأمم) يثيرون ما ركد فيها من العواطف بالإشادة بما عرف لهم من المعبودات وعلى هذا النهج جرى شوقي فسبح بحمد أبي الهول في جملة من قصائده الطوال والشاعر كالخطيب لا تهمه العقول إذا ظفر بالقلوب.

ثم عاد شوقي إلى قلبه وقد غمره الحزن فأخذ يناجيه بهذا الترجيع الحزين وانظر كيف يقول:

يا فؤادي! لكل أمر قرار ... فيه يبدو وينجلي بعد لبس
عقلت لجة الأمور عقولا ... كانت الحوت طول سبح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف ... أو غريق ولا يصاخ لحس
فلك يكسف الشموس نهارا ... ويوم البدور ليلة وكنس
ومواقيت للأمور إذا ما ... بلغتها الأمور صارت لعكس
دول كالرجال مرتهنات ... بقيام من الجدود وتعس
وليال من كل ذات سوار ... لطمت كل رب روم وفرس
سددت بالهلال قوسا وسلت ... خنجرا ينفذان من كل ترس
حكمت في القرون خوفو ودارا ... وعفت وائلا وألوت بعبس
أين مروان في المشارق عرش ... أموي وفي المغارب كرسي

(١) الغس مرادف للسبح.

وقفة قصيرة

لاحظنا أن شوقي تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة، ثم اندفع في الحديث عن شوقه لمصر وتفجعه لما تقاسي من عاديات الخطوب فرأيناه يصور الجزيرة ويمثل استحياءها حين قدها النيل، ثم رأيناه يذكر أن الجيزة لا تزال في أثواب الحداد على رمسيس وأن السواقي لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والأنين وأن النخيل تجردت من الحزن عليه فلم يبق عليها غير الشعور والأطواق، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبي الهول وعن الأهرام ويتخيل أبا الهول قارعة عتيدة لإهلاك الطغاة ثم رأيناه وقد عاود القلق على مصر، ولم يقنعه السكون إلى الخيال فأخذ يزفر من جديد ويقول:

يـا فـؤادي! لكـل أمـر قـرار ... فيـه يبـدو ويـنجلي بعـد لـبس

وأين هذا القرار، يا بلبل النيل، هاته، وخذ من أرواحنا ما تشاء!

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول:

عقلـت لجـة الأمـور عقـولا ... كانـت الحـوت طـول سـبح وغـس
غرقـت حيـث لا يـصاح بطـاف ... أو غريـق ولا يـصاخ لحـس
فلـك يكـسف الـشموس نهـارا ... ويـسوم الـدور ليلـة وكـس

ولم تظفر النفس الإنسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة وهي على جبروتها ألعوبة القدر وأضحوكة القضاء، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الأمم المعذبة ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التي

عقلتها لجة الخطوب والتي غرقت حيث لا يصاخ لحس، ولا يصاح بطاف أو غريق.

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء، فقد مهد شوقي لوقفته على أطلالها تمهيدا هو غاية في إعداد النفس لبكاء المجد الذاهب، والملك السليب، والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد العرب كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة، والشجى يبعث الشجى، وهذا كله قبر مالك، لو يعلم اللائمون!

ولم يصنع البحتري هذا الصنيع، وإنما حدثنا عما طففت الأيام من صبابة عيشه، وما كان من غبنه حين باع الشام واشترى العراق، وكيف رابه نبو ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر، لين الجانبين، ثم قال:

حضرت رحلي الهموم فوجهت ... إلى أبيض المدائن عنسي
أنسلي عن الحظوظ وآسى ... لمحل من آل ساسان درس

وهذا هو عين الاقتضاب ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة وإن لم يوجد ما يرجح هذا الظن فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة ولكن المريب هو أن يزهد البحتري في حسن التخلص وهو يحبر قصيدة من أروع قصائده إن لم تكن أجمل ما قال، وكان من عادته كذلك أن يتخير للبداية ما يمت بصلة وثيقة إلى ما سينقل إليه وأشهر ماله في هذا الأسلوب قصيدته الميمية في عتاب الفتح بن خاقان فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هي أيضا عتاب وذلك حيث يقول:

يهون عليها أن أبيت متيما ... أعالج شوقا في الضمير مكتما

وقد جاوزت أرض العراق ... حمى وصلها مذ جاورت أبرق
بكت حرقة عند الفراق وأردفت ... سلوا نهى الأحشاء أن تتضرما
فلم يبق من معروفها غير طائف ... يلم بنا وهنا إذا الركب هوما

وفي هذه القصيدة يقول:

ولم أعرف الذنب الذي سؤتني له ... فأقتل نفسي حسرة وتندما
ولو كان ما خبرته أو ظننته ... لما كان غروا أن ألوم وتكرما
أذكرك العهد الذي ليس سؤددا ... تناسيه والود الصحيح المسلما
أقر بما لم أجنه متنصلا ... إليك على أني أخالك ألوما
لي الذنب معروفا وإن كنت ... به ولك العتبى علي وأنعما
ومثلك إن أبدى الفعال أعاده ... وإن صنع المعروف زاد وتمما

نقول: إن البحتري لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية وإنما آثر الاقتضاب ولا كذلك شوقي فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك ونكبات الشعوب ثم دخل في الموضوع برفق وهو يقول:

أين مروان في المشارق عرش ... أموي وفي المغارب كرسي
سقمت شمسهم فرد عليها ... نورها كل ثاقب الرأي نطس
ثم غابت وكل شمس سوى هاتيـ ... ـك تبلى وتنطوي تحت رمس
وعظ البحتري إيوان كسرى ... وشفتني القصور من عبد شمس

نقرر هذا ثم نذكر أن البحتري لا لوم عليه في أن خلت قصيدته من مثل هذه المقدمة الممتعة التي افتتحت بها قصيدة شوقي لأن ظروف البحتري وقد ضاق به عيشه وظلمه أهله غير ظروف شوقي وهو يحاول العودة إلى وطن

أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان وأصلاه أهله نار العقوق، وهو قد خلف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة ثم هو لا يدري إذا عاد يقر قراره فيلقي عصا التسيار أم تعصف به وشاية جديدة، تحمله إلى المنفى من جديد.

ولو كان للبحتري مثل هذا القلب المشرد، وهو يشد رحاله إلى الإيوان لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب الأمثال ولكن الشاعر له رسالة يؤديها إلى أهل عصره ولا مفر له من أدائها ما دام له قلب ووجدان، وكانت رسالة شوقي حين قال سينيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من الكمد وهم يودعون كل يوم فريقا من أبنائهم الأحرار ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقي إليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار.. وكان له في ذلك البيت الذي يصلح لكل أمة ولكل جيل:

أحـــرام عـــلى بلابلـــه الـــدو ح حـلال للطـير مـن كـل جـنس

وفي مقابله يقول البحتري وهو يتحدث عن نفسه:

واشـــترائي العـــراق خطـــة غـــبن بعـــد بيعـــي الـــشآم بيعـــة وكـــس

ولكن أين هذا من ذاك؟! وأين قول البحتري في عنف الدهر وجوره:

وكـــأن الزمـــان أصـــبح محمـــو لا هـــواه مـــع الأخـــس الأخـــس

ومن قول شوقي في المعنى نفسه:

عقلـــت لجـــة الأمـــور عقـــولا كانـت الحـوت طـول سـبح وغـس
غرقـــت حيـــث لا يـــصاح بطـــاف أو غريـــق ولا يـــصاخ لحـــس

فإن هذه صورة شعرية نادرة المثال.

ومطلع البحتري:

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

فيه ضعف وانحلال، وليس بقاطع الدلالة على الإباء، وخير منه مطلع شوقي:

اختلاف النهار والليل ينسي فاذكرا لي الصبا وأيام أنس

وإن كنا لا ندري بمن يستنجد وقد نسي أيام صباه ورحم الله ابن الأحنف إذ يقول:

نزف البكاء دموع عينيك فاستعر عينا لغيرك دمعها مدرارا

من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرأيت عينا للدموع تعار

ويذكرون أن لورد كرومر حضر عرسا مصريا وسمع المغني يقول:

(حبيبي غاب، هاتوه لي يا ناس) فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت ووقف على مدلوله قال: (إن المصري لكسول وإنه ليطلب حتى من يعينه على رد محبوبه الغائب) وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام الأنس في عهد الشباب وإنه لمطلب عجيب!

بين البحتري وشوقي

ولقد أخذ البحتري بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن إيوان كسرى، ويتحدث عن بناته ويعرض بسكان القفار من الأعراب فيقول:

أنسلي عن الحظوظ وآسى ... لمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالي ... ولقد تذكر الخطوب وتنسي
وهمو خافضون في ظل عال ... مشرف يحسر العيون ويخسي
مغلق بابه على جبل القبـ ... ـق إلى دارتي خلاط ومكس
حلل لم تكن كأطلال سعدى ... في قفار من البسابس ملس
ومساع لولا المحابـاة مني ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس
نقل الدهر عهدهن من الجد ... ة حتى غدون أنضاء لبس
فكأن الجرماز من عدم الأنـ ... ـس وأخلاقه بنية رمس
لو تراه علمت أن الليالي ... جعلت فيه مأتما بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم ... لا يشاب البيان فيهم بلبس

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما في الإيوان من النقوش والتهاويل، ولنا إليه عودة فلنلاحظ الآن أن البحتري يتحبس وهو يبين على أثر الإيوان في نفسه، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى الفروق، وترجع هذه الحبسة إلى اتقاء الفتنة، وكبح ما يجمح عن هذه المقارنة من شهوة التنافر وإثارة الأحقاد، ولهذا يقول في هدوء:

حلل لم تكن كأطلال سعدى ... في قفار من البسابس ملس

ومساع لولا المحاباة مني ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس

وقد صدق، وإن جرح الإيوان، وإلا فما هي أطلال سعدى، ورسوم ليلى ونؤى عفراء! ولم يجد شوقي ما يضطره إلى مثل هذه المواربة، إذا كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب في بلاد إسلامية مجموعة الأهواء، ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء:

رب ليل سريت والبرق طرفي ... وبساط طويت والريح عني
أنظم الشرق في (الجزيرة) بالغر ... ب وأطوي البلاد حزنا لدهس
في ديار من الخلائف درس ... ومنار من الطوائف طمس
وربا كالجنان في كنف الزيتو ... ن خضر وفي ذرا الكرم طلس
لم يرعني سوى ثرى قرطبى ... لمست فيه عبرة الدهر خمسي
يا وقى الله ما أصبح منه ... وسقى صفوة الحيا ما أمسي
قرية لا تعد في الأرض كانت ... تمسك الأرض أن تميد وترسي
غشيت ساحل المحيط وغطت ... لجة الروم من شراع وقلس
ركب الدهر خاطري في ثراها ... فأتى ذلك الحمى بعد حدس
فتجلت لي القصور ومن فيها ... ما من العز في منازل قعس
ما ضفت قط في الملوك على نذ ... ل المعالي ولا تردت بنجس

ومن الخير أن ندل على الأبيات المختارة هنا وهناك ونحن نستجيد قول البحتري:

ذكرتنيهم الخطوب التوالي ... ولقد تذكر الخطوب وتنسي

ولعجز هذا البيت مغزى بديع، ونستجيد كذلك قوله:

نقـل الـدهر عهـدهن مـن الجـد ة حتـى غـدون أنـضاء لـبس
فكـأن الجرمـاز مـن عـدم الأنـس وأخلاقـه بنيـة رمـس

وفي هذين البيتين دقة وخيال وللقارئ أن يتأمل كيف صارت هذه الحلل: (أنضاء لبس) وكيف أمسى الجرماز وكأنه (بنية رمس) فأما قوله:

لـو تـراه علمـت أن الليـالي جعلـت فيـه مأتمـا بعـد عـرس

فهو غاية الغايات في بكاء المغاني، يتحكم فيه البلى، وتبطش بها أيدي العفاء.

ونستجيد قول شوقي:

لم يرعنـي سـوى ثـرى قرطبـى لمـست فيـه عـبرة الـدهر خمـس

ولمس العبرة من المعاني الدقيقة وقد بلغ غاية الرفق وهو يقول في تحية هذا الثرى:

يـا وقـى الله مـا أصـبح منـه وسـقى صـفوة الحيـا مـا أمـسي

ونستجيد كذلك قوله:

ركـب الـدهر خـاطري في ثراهـا فـأتى ذلـك الحمـى بعـد حـدس

يصف تلك البقعة بالدروس ويذكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن ركب خاطره الدهر ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحدس وتلك وثبة ومن وثبات الخيال.

ثم أخذ البحتري يصف ما في الإيوان من صور المعارك فقال:

فـإذا مـا رأيـت صـورة أنطـا كيـة ارتعـت بـين روم وفـرس
والمنايـا مواثـل وأنـوشر وان يزجـي الـصفوف تحـت
في اخـضرار مـن اللبـاس عـلى أصـف نختـال في صـبغة ورس
وعـراك الرجـال بـين يديـه في خفـوت منهم وإغماض جرس
مـن مـشيح يهـوى بعامـل رمـح وملـيح مـن الـسنان بـترس
تـصف العـين أنهـم جـد أحيـا ء لهـم بيـنهم إشـارة خـرس
يغـتلي فـيهم ارتيـابي حتـى تتقراهمـو يـداي بلمـس

وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف، يذكر أنه شهد في الإيوان صورة كسرى وهو يحاصر أنطاكية وأنك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة الفرس على الروم وكيف يرتاع المرء وهو يشاهد صورة على الحائط؟ هذا هو وجه الحسن فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة لا يخطر ببالك أنها صورة وإنما تحسب -لصدق التصوير- أنك في ميدان القتال والمنايا مواثل أمامك وأنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء. ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثياب وما هم عليه من إيثار الخفوت، بين مشيح بالرمح، ومليح بالسنان وانظر كيف يقول:

تـصف العـين أنهـم جـد أحيـا ء لهـم بيـنهم إشـارة خـرس
يغـتلي فـيهم ارتيـابي حتـى تتقراهمـو يـداي بلمـس

فهو يراهم جد أحياء وإن لم يسمع لهم صوت، لأن في سماتهم ما يدل على اكتفائهم بالإشارة كما يكتفي الخرس، ثم يعود إلى نفسه فيذكر أنه أمام صورة، ثم يغلب على حسه فيرتاب فيما يراه فيلمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم

خيال؟ والمصور الحاذق هو الذي يسبغ على صوره أثواب الحياة. ولقد أذكر أني شهدت في أطلال الفراعنة بالأقصر صورة سمكة ولم أكد أملأ منها عيني حتى خلتها تتقلب وكذلك يسحر الفن الجميل.

ولقد نحا شوقي منحى البحتري في الوصف وإن اختلف الموصوف، فقال وقد تجلت له تلك القصور:

وكأني بلغت للعلم بيتا ... فيه مال العقول من كل درس
قدسا في البلاد شرقا وغربا ... حجه القوم من فقيه وقس
وعلى الجمعة الجلالة (والنا ... صر) نور الخميس تحت الدرفس
ينزل التاج عن مفارق (دون) ... ويحلى به جبين (البرنس)
سنة من كرى وطيف أمان ... وصحا القلب من ضلال وهوس
وإذا الدار ما بها من أنيس ... وإذا القوم ما لهم من محس
ورقيق من البيوت عتيق ... جاوز الألف غير مذموم حرس
أثر من (محمد) وتراث ... صار (للروح) ذي الولاء الأمس
بلغ النجم ذروة وتناهى ... بين (ثهلان) في الأساس
مرمر تسبح النواظر فيه ... ويطول المدى عليها فترسي
وسوار كأنها في استواء ... ألفات الوزير في عرض طرس
فترة الدهر قد كست سطربها ... ما اكتسى الهدب من فتور ونعس
ويحها كم تزينت لعليم ... واحد الدهر واستعدت لخمس
وكأن الرفيف في مسرح العين ... ن ملاء مدثرات الدمقس
وكأن الآيات في جانبيه ... يتنزلن من معارج قدس
منبر تحت (منذر) من جلال ... لم يزل يكتسيه أو تحت قس

ومكـــان الكتـــاب يغريـــك ريـــا ورده غائبـــا فتـــدنو للمـــس

وهذه القطعة على طولها لا تسمو إلى ما وصلت إليه تلك النفثة البحترية من فتنة القلب والوجدان، ولعل السر في هذا أن البحتري وجد في الإيوان صورة للحرب بين الفرس والروم وصورة الحرب تهز النفس وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة، أما شوقي فقد وجد بالقصر آيات من القرآن لم يذكر أكانت في وصف الجنة أم في الدعوة إلى القتال؟ والفن الذي يستمد قوته من الأصول الدينية الوادعة الهادئة لا يصلح الا للكهول والويل للأمم إذا لم تغلب عليها الفروسية ولم يستبد بها ما في الشباب من نشاط وجنون.

وما أبعد الفرق بين قول البحتري:

والمنايـــا مواثـــلٌ وأنـــوشر وان يزجـــي الـــصفوف تحـــت

وبين قول شوقي:

وعـــلى الجمعـــة الجلالـــة والنـــا صر نـور انخميس تحـت الـدرفس

وشوقي يصف ما رآه فلا لوم عليه ولا تثريب وصدق من قال:

فلـو أن قـومي أنطقتنـي رمـاحهم نطقـت ولكـن الرمـاح أجـرت

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بأن توضع في المساجد والمعابد صور المعارك والحروب ولم يظلم أحد أهل الشرق، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية إلى الآخرة، كما بينا ذلك في كتاب (الأخلاق عند الغزالي) وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب. وحيا الله أولئك الشياطين فهم ملائكة هذا الجيل وإن رزائل القوة لخير من

فضائل الضعف لو يعلم الشرقيون. ولشوقي أن يذكر أن جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك، ولم تكن صورة رسمية يستبق إليها طلاب الرزق وللرزق أبواب، يدل على هذا قوله:

سنة من كرى وطيف أمان ... وصحا القلب من ضلال

وإذا الدار ما بها من أنيس ... وإذا القوم ما لهم من محس

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك وما فيه من آثار العقول ليس إلا سنة من الكرى وطيفا من الأماني.

ويعجبني قوله في وصف القصر:

مرمر تسبح النواظر فيه ... ويطول المدى عليها فترسي

وسوار كأنها في استواء ... ألفات الوزير في عرض طرس

وإن كان تشبيه سواري القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف، إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن إلى الجلال والفرق بعيد بين الحسن الفاتن والجمال الرائع فجمال النهر في الليالي المقمرة فيه حسن وفتنة وفيه أيام السرار روعة وجلال.

وقول شوقي:

ومكان الكاتب يغريك ريا ... ورده غائبا فتدنو للمس

مأخوذ من قول البحتري:

يغتلي فيهم ارتيابي حتى ... تتقراهم يداي بلمس

وبيت البحتري أجود في معناه وهو كذلك يقتضيه السياق، أما بيت شوقي فهو في مكانه غريب، وقول شوقي بعد ذلك الوصف:

صنعة (الداخل) المبارك في الغر ب وآل لـه ميامين شمس

فيه ضعف وكأنه لم يقله إلا على سبيل التكملة وما أغنى الشعر عن مثل هذا التذييل!!

الفصل بين البحتري وشوقي

رأينا كيف وصف البحتري ما رآه في الإيوان من رسم الموقعة بين الفرس والروم ونذكر الآن أنه انتقل من ذلك الوصف إلى الحديث عن تلك الكأس الروية التي اصطبح بها في الإيوان فقال:

قد سقاني ولم يصرد أبو الغو ... ث على العسكرين شربة خلس
من مدام تقولها هي نجم ... أضوأ الليل أو مجاجة شمس
وتراها إذا أجدت سرورا ... وارتياحا للشارب المتحسي
أفرغت في الزجاج من كل قلب ... فهي محبوبة إلى كل نفس
وتوهمت أن كسرى ابرويز ... ز معاطى والبلهبذ أنسي
حلم مطبق على الشك عيني ... أم أمان غيرن ظني وحدسي

وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها في سينية شوقي لأن صاحب الشوقيات لم يزر أطلال الحمراء ليغرق همومه هناك في أكواب الشمول كما فعل البحتري وهو يزور الإيوان، فكان لنا أن ندرس هذه الأبيات على سبيل الاستطراد إذ لا تقتضيها الموازنة ولا يدعو إليها التفصيل ونحن نستملح قوله:

من مدام تقولها هي نجم ... أضواء الليل أو مجاجة شمس

ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال وعجز هذا البيت يشفع لصدره.

وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات، ويمر البيت في خلال الأبيات، كما يقول صاحب زهر الآداب، وكذلك نستجيد قوله في وصف تلك الصهباء:

وتراهـــا إذا أجـــدت سرورا ... وارتياحـــا للـــشارب المتحـــسي
أفرغـت في الزجـاج مـن كـل قلـب ... فهـــي محبوبـــة إلى كـــل نفـــس

ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسي إلى المدام، ثم يخالها أفرغت في الزجاج من كل قلب. ولا تنسى أنه يقول (من كل قلب) وإنها لذلك (محبوبة إلى كل نفس) فإن لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب الأذواق من علماء المعاني. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحتري فتوهم -ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله- أن كسرى نديمه، والبلهبذ أنيسه، وكيف ثاب إلى رشده وأخذ يفكر أهو في حلم أطبق عينيه على الشك، أم هي أمان غيرن ظنه وحدسه. وفي هذا الترديد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب في رأس المتعقل النشوان.

ثم عاد إلى وصف الإيوان فقال:

وكـأن الإيـوان مـن عجـب الـصـ ... ـنعة جـوب في جنـب أرعـن جلـس
يتظنـــى مـــن الكآبـــة أن يبـــ ... ـــدو لعينـــي مـــصبح أو ممـــسي
مزعجـا بـالفراق عـن أنـس ألـف ... عـــز أو مرهقـــا بتطليـــق عـــرس
عكـست حظـه الليـالي وبـات المـشـ ... ـترى فيـه وهـو كوكـب نحـس
فهـــو يبـــدي تجلـــدا وعليـــه ... كلكـل مـن كلاكـل الـدهر مـرسي
لم يعبـه أن بـز مـن بـسط الديبـ ... ـاج واستل مـن ستور الـدمقس
مـــشمخر تعلـــو لـــه شرفـــات ... رفعـت في رءوس رضـوى وقـدس

لابسات من البياض فما ... تبصر منها إلا فلائل برس
ليس يدري أصنع إنس لجن ... سكنوه أم صنع جن لإنس
غير أني أراه يشهد إن لم ... يك بانيه في الملوك بنكس

وفي هذه القطعة نجد البحتري يتمثل الإيوان في صورة المحب أترعت الليالي كأسه بأنس أليفه، ثم أزعجته بالفراق، والعروس أصفاه الدهر حلاوة الوصل، ثم أرهقه بالطلاق، ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعيني من يطالعه عند الصباح أو عند المساء، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليالي، فأصبح مثار الشجى، مبعث الأسى، بعد أن كان من مرابع الغزلان، وملاعب الحور الحسان!! وانظر كيف يقول:

فهو يبدي تجلدا عليه ... كلكل من كلاكل الدهر مرسي

وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صوره البحتري كائنا حيا أناخ الدهر عليه بكلكله وأراه كيف تكون مضاضة الذل بعد نضارة العز وكيف يكون العدم بعد الوجود. وللشاعر في الديار الخالية وقفات تبعث ميت الوجد، وتثير دفين الإحساس فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني أي شيطان أو أي ملاك أوحى إلى البحتري: أن الإيوان أصبح -وقد استلت منه ستور الدمقس وبسط الديباج- شبيها بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك من الثياب فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حينا وتغريك بالفتون أحيانا؟

ونحن نعيذ القارئ أن يرمينا بالغلو والإسراف فهذا والله ما نفهمه من قول البحتري:

لم يعبه أن بز من بسط الديبا ... ج واستل من ستور الدمقس

وكذلك نزع الدهر ما كان بالإيوان من عارض التهاويل، وخلاه كالغادة المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر أم من سكر الدلال.

وما نريد أن نزيد! وللقارئ أن يتأمل حسن الأداء في قوله:

عكست حظه الليالي وبات المشـ ـترى فيه وهو كوكب نحس

فإنه لم يقل (بات المشترى فيه كوكب نحس) وإنما قال (بات المشترى فيه وهو كوكب نحس) وكلمة وهو؛ لها ما لها من الفضل في تأكيد المعنى وتقريره عند علماء المعاني وكذلك قوله فيما صارت إليه شرفات الإيوان:

لابسات من البياض فما تبصر منها إلا فلائل برس

فإن كلمة (من) لها هنا موقع جميل وهي أدل على التقليل من التنوين.. أما قوله:

ليس يدري أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لإنس

فهو من عيون هذه القصيدة، والعرب ينسبون إلى الجن صنع كل عجيب، وهي خرافة قديمة تزخر بها الأساطير وهي كذلك مورد من موارد الخيال، وكان من المستهجن أن يعقب البحتري على هذا البيت الفرد بقوله:

غير أني أراه يشهد أن لم يك بانيه في الملوك بنكس

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد.. وقد عاد إلى وصف ما في الإيوان فقال:

فكأني أرى المراتب والقو م إذا ما بلغت آخر حسي
وكأن الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس

وكـــأن القيـــان وســـط المقـــا ... صـير يـرجحن بـين حـو ولعـس
وكـــأن اللقـــاء أول مـــن أمـــس ... ووشـــك الفـــراق أول أمـــس
وكـــأن الـــذي يريـــد اتباعـــا ... طـــامع في لحـــوقهم صـــبح خمـــس
عمـرت للـسرور دهـرا وصـارت ... للتعـــزي ربـــاعهم والتـــأسي
فلهـــا أن أعينهـــا بـــدموع ... موقفـــات عـــلى الـــصبابة حـــبس

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد البحتري في أعطاف الإيوان، والبحتري بهذا الوصف فنان يقول على علم ويعرف ما يعني ولك أن تتأمل كلمة كأن وموقعها الجميل في قوله:

وكـأن الوفـود ضـاحين حـسرى ... مـن وقـوف خلـف الزحـام وخنس

وقوله:

وكـــأن القيـــان وســـط المقـــا ... صـير يـرجحن بـين حـو ولعـس

وقوله:

وكـــأن اللقـــاء أول مـــن أمـــ ... ـــس ووشـــك الفـــراق أول أمـــس

وقد دللت القارئ على مواطن الحسن في هذه القصيدة فلينهل بعد ذلك من رحيقها كما يشاء.

نقثة شوقي

أما شوقي فقد أخذ يبكي الحمراء بعد وصفها فقال:

مـن لحمـراء جللـت بغبـار الدهـ ... ـــر كـالجرح مـن بـرء ونكـس

كسنا البرق لو محا الضوء لحظا ... لمحتها العيون من طول قبس
حصن غرناطة ودار بني الأحـ ... ـمر من غافل ويقظان نـدس
جلل الثلج دونها رأس شيرى ... فبدا منه في عصائب برس
سرمد شيبه ولم أر شيبا ... قبله يرجئ البقاء وينسي
مشت الحادثات في غرف الحمرا ... ء مشي النعي في دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت ... سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها ... واستراحت من احتراس وعس
ومغان على الليالي وضاء ... لم تجد للعشي تكرار مس
لا ترى غير وافدين على التـ ... ـاريخ ساعين في خشوع ونكس
نقلوا الطرف في نضارة آس ... من نقوش وفي عصارة ورس
وقباب من لا زورد وتبر ... كالربا الشم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت للمعاني ... ولألفاظها بأزين لبس
وترى مجلس السباع خلاء ... مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جواري الثريا ... يتنزلن فيه أقمار أنس
مرمر قامت الأسود عليه ... كلة الظفر لينات المجس
تنثر الماء في الحياض جمانا ... يتنزى على ترائب ملس

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء، وهي مجللة بغبار الدهر وهذا خيال رائع، ولكنه ليس بكثير على شوقي فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود وكلف منذ بعيد بالإنابة عن عدوان الحوادث والإفصاح عن عسف الخطوب ويكاد يستنطق الموت وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق.. وانظر كيف يذكر أن الحمراء أصبحت كالجرح بين برء

ونكس وهذا أصدق تصوير لذلك الأثر الذي يحج إليه أحفاد بناته فيعدونه ويمنونه لو تنفع الأماني أو تصدق الوعود ومن ذا الذي لم يفكر في نكبة الحمراء، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفة ابن زياد؟ ولكن أين فتوة العرب وأين شباب الزمان؟ وللقارئ أن يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي في دار عرس فهذا أيضا خيال رائع وهو مأخوذ مَن قول أبي نواس:

فتمشت في مفاصلهم ... كتمشي البرء في السقم

ما لنا ولهذا التكلف؟ فقد ذكر النقاد أن أبا نواس كذلك مسبوق على أن تشبيه هتك الحوادث لأستار الحمراء بهتك النعي لدار العرس أروع من تشبيه أثر الخمر في مفاصل الندامى بأثر البرء في جسم السقيم وقول شوقي:

مشت الحادثات في غرف الحمـ ... ـراء مشي النعي في دار عرس

هتكت عزة الحجاب وفضت ... سدة الباب من سمير وأنس

فيه روعة وفيه جلال فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان.. أما قوله:

وترى مجلس السباع خلاء ... مقفر القاع من ظباء وخنس

لا الثريا ولا جواري الثريا ... يتنزلن فيه أقمار أنس

فهو وصف انفرد به ولم يعرض لمثله البحتري وكان عجبا أن يغفل عن إيراده فإن القصور الخالية تذكر الإنسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها ويلعب من كل ممشوقة القد مجدولة الخلق، مصقولة الجبين.

خروج العرب من الجنة

وقد انفرد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة ولا أعبر بغير ذلك فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلك الفردوس ويرونه حسبهم من نعيم الآخرة والأولى، ولقد نظر شوقي إلى خروجهم نظرة مملوءة بالدمع حين قال:

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عرك من الزمان وضرس
فتراها تقول: راية جيش ... باد بالأمس بين أسر وحس
ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صم ... عن حفاظ كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا وكانت ... تحت آبائهم هي العرش أمس
رب بان لهادم وجموع ... لمشت ومحسن لمخس
إمرة الناس همة لا تأتي ... لجبان ولا تسنى لجبس
وإذا ما أصاب بنيان قوم ... وهي خلق فإنه وهي أس

ومع أن شوقي أشار كما ترى في هذه الأبيات إلى أن ضعف العرب في أخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد، إذ كانت إمرة الناس لا تتسنى لجبس ولا تتأتى لجبان، فقد أشار كذلك برفق إلى أن عهدهم لم ينقض إلا بعد عرك من الزمان وضرس. والحق أن فتح العرب للأندلس كان من الأحداث الخطيرة وكان من الطبيعي أن تدور عليهم الدائرة وأن يحل بهم ما حل بالفرس والروم ولا أذكر ما شب في صدورهم من نار العداوة والبغضاء،

ولا ما شجر بينهم على الملك من الخلاف ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات ولكن أذكر أنهم كانوا يحتلون بلادا لا يزال أهلها يفكرون في الحرية ويحلمون بالاستقلال، والأمة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الآبدين كما يتوهم الفاتحون وإنما يظل ضعفها يفتك بالغاصبين في خفاء كما تفتك على ضعفها الجراثيم ثم ينفض هذا الضعف فجأة فإذا هو جارفة قوية تسقط من بأسها الممالك وتطيح من هولها العروش، فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين ألم تثأر تلك الشعوب لنفسها من الدين؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوساوس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيروه كالخرقة البالية لا تصلح لزينة ولا ستر ولا وقاية؟ اسمع يا صاح.

القوة هي كل شيء في هذا الوجود، والقوة فوق الحق فإن أردت أن تحيا فتسلح لهذه الحياة القوة هي السلاح. ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة إلى استشارة الطبيب.

وكذلك كان العرب فقد ركبوا البحر وهم أقوياء فكان عرشا وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشا، وما تغير البحر ولكن تغير الناس ركبوه أول مرة وهم فاتحون ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار.

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار:

يـا ديـارا نزلـت كالخلـد ظـلا ... وجنـى دانيـا وسلسال أنـس
محسنات الفصول لا ناجر فيهـ ... ـا بقيظ ولا جمادى بقرس
لا تحس العيون فوق رباها ... غير حور حو المراشف العس

كسيت أفرخي بظلك ريشا ... وربا في رباك واشتد غرسي
هم بنو مصر لا الجميل لديهم ... بمضاع ولا الصنيع بمنسي
من لسان على ثنائك وقف ... وجنان على ولائك حبس
حسبهم هذه الطلول عظات ... من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفات إلى الما ... ضي فقد غاب عنك وجه التأسي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الأبيات فقد طال الحديث إنما أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الأندلس وغنمنا معها (قطعة خشب) من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المهذب حسين شوقي ويا ليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين.

وسيذكر القارئ بعد هذا كله أني أوازن بين البحتري وشوقي وسيسأل أيهما أشعر وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء.. أما أنا فقد حكمت والسلام[1].

---

(١) بمناسبة سينية البحتري يحسن أن نشير إلى أن الشاعر محمد الهراوي وضع قصيدة سينية عن أبي الهول كان فيها معنى المعارضة للبحتري وإن لم يقل ذلك وهي قصيدة جيدة نختار منها قوله:

نبئ الناس أبا الهول أنا ... أمة كالحديد صلب المجس
لم يعبنا أنا بلتنا شعوب ... وبلونا الشعوب من كل جنس
كل من ساءنا أذقناه سوءا ... بيد الله كل كاس بكاس
فاسألوا الروم ما دها الروم فينا ... واسألوا الفرس عن مصاب الفرس
أمم تلك ذات ناب وضرس ... قد مضغنا ما بين ناب وضرس
فنيت كلها ونحن بقينا ... من حمى الله في حظيرة قدس

البوصيري وشوقي

للبوصيري قصيدة مشهورة تسمى (البردة) عارضها شوقي بقصيدة سماها نهج البردة. وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الإسلام فقد عني هذان الشاعران بدرس الشريعة لإظهار ما فيها من المحاسن ودرء ما يوجه إليها من الشبهات، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ. وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الأشخاص. وحسبنا أن ندل القارئ على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة إسلامية، وللقارئ بعد ذلك رأيه فإن شاء مضى في البحث والتنقيب، وإن شاء رضي واكتفى بما عليه عامة الناس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

حياة البوصيري

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج كان أحد أبويه من (أبو صير) والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبة وقيل: (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري.. وكان يعاني صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببلبيس [1].

وللهراوي قصيدة أخرى سينية هي بلا شك من وحي البحتري وهي قصيدته التي وقف بها على دار الشيخ محمد عبده في عين شمس وكان من الحتم أن يشير إلى ذلك ليبين كيف سرت أنفاس البحتري إلى شعراء هذا الجيل.

(١) توفي البوصيري سنة ٦٨٥هـ وله قبر مشهور في الإسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية.

والبوصيري شاعر مصري ظريف من شعراء القرن السابع تجري في شعره النكت المستملحة وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره وأحسبه من الصادقين فهو يذكر أن الموظفين كانوا يسرقون الغلال وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير، ولا شربوا الخمور، وإن من الكتاب طائفة تنسكت وعدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت وتأكل مال الأيتام.

ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف:

أهوى والمشيب قد حال دونه ... والتصابي بعد المشيب رعونه
أبت النفس أن تطيع وقالت ... إن حبي لا يدخل القنينه
كيف أعصى الهوى وطينة قلبي ... بالهوى قبل آدم معجونه
سلبته الرقاد بيضة خدر ... ذات حسن كالدرة المكنونه
سمتها قبلة تسر بها النف ... س فقالت كذا أكون حزينه
قلت لا بد أن تسيري إلى الدا ... ر فقالت عسى! أنا مجنونه!
قلت سيري فإنني لك خير ... من أب راحم وأم حنونه
أنا نعم القرين إن كنت تبغ ... ين حلالا وأنت نعم القرينه
قالت اضرب عن وصل مثلي ... ا واضرب الخل أو يصير طحينه
لا أرى أن تمسني يد شيخ ... كيف أرضى به لطشتي مشينه
قلت إني كثير مال فقالت ... هبك أنت المبارز القارونه

وهذا شعر ضعيف ولكن فيه (حكاية ظريفة) من حكايات مولانا الشيخ رضي الله عنه وأرضاه.

وأظرف من هذه القطعة أبياته التي بعث بها إلى ناظر الشرقية وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته فكتب على لسانها إليه:

يـا أيهـا الـسيد الـذي شـهدت ... أخلاقـه لي بأنـه فاضـل
مـا كـان ظنـي يبيعنـي أحـد ... قـط ولكـن صـاحبي جاهـل
لـو جرسـوه عـلى مـن سـفه ... لقلـت غيظـا عليـه يـستاهل
أقـصى مـرادي لـو كنـت في بلـدي ... أرعـى بهـا في جوانـب الـساحل
وبعـد هـذا فـما يحـل لكـم ... أخـذي لأني مـن سـيدي حامـل

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات ورد إليه الحمارة ولم يكن فيها من الزاهدين!

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها إلى أحد الوزراء في شكوى حاله وهي قصيدة طريفة يذكر فيها أنه فقير وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون وأنهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد.. وأن امرأته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال فأشارت عليها بضربه ونتف ذقنه شعرة شعرة، وفي تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير:

إليـك نـشكو حالنـا أننـا ... حاشـاك مـن قـوم أولي عـسره
في قلـة نحـن ولكـن لنـا ... عائلـة في غايـة الكثـره
أحـدث المـولى الحـديث الـذي ... جـرى لهـم بـالخيط والإبـره
صـاموا مـع النـاس ولكـنهم ... كـانوا لمـن أبـصرهم عـبره

إن شربوا فالبئر زير لهم ... ما برحت والشربة الجره
لهم من الخبيز مسلوقة ... في كل يوم تشبه النشره
أقول مهما اجتمعوا حولها ... تنزهوا في الماء والخضره
وأقبل العيد وما عندهم ... قمح ولا خبز ولا فطره
فارحمهمو أن عاينوا كعكة ... في كف طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهمو نحوها ... بشهقة تتبعها زفره
كم قائل يا أبتا منهمو ... قطعت عنا الخبز في كره
ما صرت تأتينا بفلس ولا ... بدرهم ورق ولا نقره
وأنت في خدمة قوم فهل ... تخدمهم يا أبت سخره
ويوم زارت أمهم أختها ... والأخت في الغيرة كالضره
وأقبلت تشكو لها حالها ... وصبرها مني على العشره
قالت لها كيف تكون النسا ... كذا مع الأزواج يا عره!
قومي اطلبي حقك منه بلا ... تخلف منك ولا فتره
وإن تأبى فخذي ذقنه ... أو انتفيها شعرة شعره
قالت لها ما هكذا عادتي ... فإن زوجي عنده ضجره
أخاف إن كلمته كلمة ... طلقني قالت لها بعره
وهونت قدري في نفسها ... فجاءت الزوجة مجتره
فقاتلتني فتهددتها ... فاستقبلت رأسي بآجره
وحق من حالته هذه ... أن ينظر المولى له أمره

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ولا تزال بقاياها موجودة في بلبيس [١].

قصيدة البردة

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيمة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء، والبوصيري هو الذي ابتكر هذا النوع أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيدة فإن قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي أكثر منه المولدون. وقد مدح الرسول في حياته، مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التي يقول في أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

ومدحه الأعشى بداليته التي يقول فيها:

فأقسمت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا

ويرتاب الدكتور طه حسين في قصيدة الأعشى ويظنها من وضع الرواة، وهي على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية.. وكذلك بانت سعاد لأن المدح الذي جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئا عن غيره من المدح الذي جرى في ذلك العهد موجها إلى الملوك، أما المدائح النبوية فتمتاز بعد شمائل النبي وسرد ما في الرسالة من المحاسن الباقية. ودفع ما وصم به الرسول

(١) ما كتب هنا عن البوصيري هو أصل ما في كتاب المدائح النبوية في الأدب العربي..

من النقائص والعيوب وهي فوق هذا كله تقال وتنشد تقربا إلى الله وهي عند الصوفية من جملة الأوراد.

البردة

وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة فقال: (كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما كان اقترحه علي الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح على وجهي بيده المباركة وألقى علي بردة فانتبهت ووجدت في نهضة فقمت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحدا فلقيني بعض الفقراء فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: أيها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك وذكر أولها فقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة فأعطيته إياها وذكر الفقير ذلك وشاع المنام).

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري فهو رجل فيه طيبة وسذاجة وكأكثر الصوفية فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها أو قصيدة ينشدها كما يرى البوصيري بقصيدته ولو مرض مفتي الديار المصرية – لا سمح الله– ما استغنى بالبردة عن الطبيب. ولعل حكاية البوصيري هذه

هي سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون. وهذا النوع من الغفلة قديم فقد كان الزمخشري يذكر شيئا من مثل هذا عن سور القرآن.. ونلاحظ كذلك أن البوصيري كرر عبارة (صلى الله عليه وسلم) خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة. وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين وقد زاد البوصيري على ذلك في القصيدة المصرية. فهو يدعو الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر وعدد نجم السماء ونبات الأرض وعدد وزن مثاقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر.. وما حوت الأشجار من ورق وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة وعدد الوحش والطير والأسماك والأنعام وعدد الجن والإنس والأملاك وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر.. وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر، وعدد نعم الله على الخلائق ومذ كانوا ومذ حشروا وعدد ما كان في الأكوان وما يكون إلى يوم البعث وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد:

في كل طرفة عين يطوفون بها ... أهل السموات والأرضين أو يذروا

ملء السموات والأرضين مع جبل ... والفرش والعرش والكرسي وما حصروا

ما أعدم الله موجودا وأوجد معـ ... ـدوما صلاة دواما ليس تنحصر

تستغرق العد مع جمع الدهو ... ر كما تحيط بالحد لا تبقي ولا تذر

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفا في صدر الإسلام وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب دلائل الخيرات.

والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية وقد كانت جزءا من الهدية التي قدمها ابن خلدون إلى تيمورلنك ولهذه الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين.

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكارا لحج الخديو السابق سنة ١٢٢٧هـ وقدمها إليه بكلمة صغيرة ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشري شرحا وجيزا بينا قال في نهايته (ولو أن الكاتب عمد إلى كل بيت ففسر غريبه وفصل مجمله وأفشى معناه ونزل عند مغازيه وعرض على وجوه العربية مفرده ومركبه وأرسل الإشارة إلى كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة التي يومأ إليها فيه، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره أطال القول وتجاوز القصد).

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشري لم يشرح نهج البردة وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز البشري وهذا كلام نقوله لأهميته في تاريخ الآداب فإن شاء الشيخ عبد العزيز أيده وإن شاء نفاه [1].

(١)غضب الأستاذ عبد العزيز البشري من هذا الكلام، وساجلناه في جريدة البلاغ وهو يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح ونحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذي كتب ذلك الشرح وكان الشيخ سليم رحمه الله غنيا بفضله الحق عن مثل هذا الفضل المفتعل ولكن هذا ما وقع وليت شعري كيف نطمئن إلى الأخبار الأدبية إذا عز علينا أن نحقق خبراً قامت الشواهد على صحته ونحن شهود العصر الذي وقع فيه.

ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له. فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبحه كقبح الكلام، وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن، ووصل إلى أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزن وأين التقفية وأين المعاني التي ينتجها الشعراء من معانيه وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه، ثم قال:

(فإذن لا مناسبة بينه وبين الشعراء إذا حققت) وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام في تحريم الشعر وإباحته مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين.

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيدا للموازنة بين البردة ونهج البردة وإنا لنرجو أن يكون في هذا التمهيد بعض الغناء.

بين البوصيري وشوقي والبارودي

ابتدأ البوصيري قصيدته بالتشبيب ونحا شوقي منحاه وتلك عادة عربية قديمة لم يفكر الشعراء في تركها إلا في هذا الجيل وإن كان من قدمائهم من نالها بملام كالمتنبي إذ يقول:

إذا كان مدح فالنسيب المقدم ... أكل فصيح قال شعرا متيم؟

وكان للصوفية شيء من الغزل المستملح المقبول فكان مريدوهم يؤولونه ويرونه موجها إلى الذات الإلهية أو الحضرة النبوية ولهم في ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين، فليرجع إليها من شاء في كتب التوحيد ليقف على شيء من تصوّرات أولئك الناس فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم من المجون وجعلوه نوعا من الرمز والتمثيل، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية وألحقوا ما يجري بين عشاق الأرواح بما يجري بين عشاق الأشباح إلى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال.

وهذا كله أثر تلك العادة وهي افتتاح الشعر بالنسيب وهي عادة لم يقلع عنها شوقي وأظرف ما وقع له في هذا المسلك قصيدته في مشروع ملنر، فقد افتتحها بهذه الأبيات:

اثن عنان القلب واسلم به ... من ربرب الرمل ومن سربه

ومن تثني الغيد عن بانه ... مرتجة الأرداف عن كثبه

ظباؤه المنكسرات الظبا ... يغلبن ذا اللب على لبسه

بيض رقاق الحسن في لمحة ... من ناعم الدر ومن رطبه

ذوابـــل النـــرجس في أصـــله ... يوانـــع الـــورد عـــلى قـــضبه
زن عـــلى الأرض ســـماء الـــدجى ... وزدن في الحـــسن عـــلى شـــهبه
يمـــشين أسرابـــا عـــلى هينـــة ... مـــشي القطـــا الآمـــن في سربـــه
مـــن كـــل وســـنان بغـــير الكـــرى ... تنتبـــه الآجـــال مـــن هدبـــه

وهي قصيدة طويلة ثلثها في النسيب ويذكر شوقي أنه قالها كارها ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءا من المنحة التي اجتداها أنصار المشروع إذ ذاك، وقد رأيت من شعراء العصر من يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعا من الرياضة لقرائح الشعراء، وأذكر أني رأيت في كلام القدماء ما يؤدي هذا المعنى فقد كان منهم من يرى التوفيق إلى إجادة التشبيب بابا للتوفيق إلى الإجادة في سائر القصيد، ومهما يكن من شيء فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء ولا تقل: كان الأدب يقضي بتجنب هذا المنهج في المدائح النبوية فقد شبب كعب بن زهير بمحبوبته وهو في حضرة الرسول فما لامه النبي ولا أنكرها عليه أصحابه ولا أخذه بها مؤرخو الآداب.

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيبه مجرى المحاكاة والتقليد فإنا نراه يقول في مطلع البردة:

أمـــن تـــذكر جـــيران بـــذي ســـلم ... مزجـــت دمعـــا جـــرى مـــن مقلـــة بـــدم
أم هبـــت الـــريح مـــن تلقـــاء كاظمـــة ... وأومـــض الـــبرق في الظلـــماء مـــن أضـــم

وذو سلم واد ينحدر عن الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة كما ذكر ياقوت وفيه يقول كثير:

أمـن آل سـلمى دمنـة بالـذنائب ... إلى الميث من ريعان ذات المطارب
يلـوح بـأطراف الأجـدة رسـمها ... بـذي سـلم أطلالهـا كالـذواهب

وكاظمة جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، وفيه يقول بعض الشعراء:

يـا حبـذا البرق مـن أكنـاف كاظمـة ... يـسعى عـلى قـصرات المـرخ والعـشر
لله در بيـــوت كـــان يعـــشقها ... قلبـي ويألفهـا أن طيبـت بـصري
فقـــدتها فقـــد ظمـــآن أداوتـــه ... والقيظ يقـذف وجـه الأرض بالـشرر
أمنيـــة الـــنفس أن تـــزدار ثانيـــة ... وحالنـــا والأمـــاني حلـــوة الثمـــر

وأضم واد بجبال تهامة وهو الوادي الذي فيه المدينة وفيه يقول سلامة بن جندل:

يـا دار أسـماء بالعليـاء مـن أضـم ... بـين الـدكادك مـن قـو فمعـصوب
كانـــت لهـــا مـــرة دارا فغيرهـــا ... مـر الريـاح بـسافي الـترب مجلـوب

وذكر البوصيري لهذه المواطن وشغفه بها وحنينه إليها ينافي مصريته وكان له أن يتشوق إلى أحبابه في بلبيس أو فاقوس، كما يتشوق بعض الناس إلى أحبابه في سنتريس وأسيوط ولكن يظهر أن المعاني العربية كانت احتلت رءوس الشعراء فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد وسلع وأروند، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق ولذلك نجد التكلف ظاهرا في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم ونحسبه اختارها للقافية كما اختار (أضم) لهذا الغرض وأين هذا الوجد المتكلف من قول من شغل عن أروند ببغداد:

وقالت نساء الحي أين ابن أختنا ... ألا خبرونا عنه حييتمو وفدا
رعاه ضمان الله هل في بلادكم ... أخو كرم يرعى لذي حسب عهدا
فإن الذي خلفتموه بأرضكم ... فتى ملأ الأحشاء هجرانه وجدا
أبغداد كم تنسيه أروند مربعا ... ألا خاب من يشري ببغداد أروندا
فدتهن نفسي لو سمعن بما أرى ... رمى كل جيد من تنهده عقدا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق إلى تلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة وتقليدا ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية وحن إلى مغنى من مغاني النيل [1]. ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال:

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

وإنما أطلق نفسه من ربقة التقليد فلم يتحدث عن نجد ولا عن تهامة وإن غلبت عليه بعض الأخيلة العربية فإن سفك الدم في الأشهر الحرم بقية من خيال الأعراب فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف ويظلون لا عاصم لهم من فتك العيون.

ولم يوفق البوصيري إلى حسن الأداء حين قال:

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

فإن قوله: (جرى من مقلة) حشو لا قيمة له، ولا وجه لما يقوله بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد فإنه لم يشك أحد في أن الدم يجري من العين.

---

(١) في كتاب (المدائح النبوية) توجيه لكلام البوصيري فارجع إليه هناك.

ومن رجال الأدب من لا تروقه كلمة (على القاع) في قول شوقي (ريم على القاع بين البان والعلم)

أما قوله:

(أحل سفك دمي في الأشهر الحرم)

ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع وفيه براعة استهلال وهو كذلك غاية في حسن الأداء، وقول البوصيري:

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا ... وما لقلبك إن قلت استفق يهم

فيه ضعف وابتذال وهو غير موصول بسابقيه وقد انتقل قبل أن يتم المعنى فقال:

أيحسب الصب أن الحب منكتم ... ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ... ولا أرقت لذكر البان والعلم

وقد حار الشراح في ربط هذه الأبيات.

وقد يستجاد قوله:

فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت ... به عليك عدول الدمع والسقم
وأنبت الوجد خطى عبرة وضنى ... مثل البهار على خديك والعنم

وشوقي أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال فإنا نجد البوصيري يقول:

نعم سرى طيف من أهوى ... والحب يعترض اللذات بالألم

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى. أما شوقي فقد أفصح عن مراده حين قال:

يـا نـاعس الطـرف لا ذقـت الهـوى أسـهرت مـضناك في حفـظ الهـوى
أفـديك ألفـا ولا آلـو الخيـال فـدى أغـراك بالبخـل مـن أغـراه بـالكرم
سرى فـصادف جرحـا داميـا فأسـا ورب فـضل عـلى العـشاق للحلـم

والفرق بين قول البوصيري:

(نعم سرى طيف من أهوى فأرقني)

وبين قول شوقي:

(سرى فصادف جرحا داميا فأسا)

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب وهو صاحب هذا البيت البديع:

نظـــرة فابتـــسامة فـــسلام فكـــلام فموعـــد فلقـــاء [1]

وقول شوقي (ورب فضل على العشاق للحلم) أرفق من قول البوصيري:

(والحب يعترض اللذات بالألم) أما قول شوقي:

يـا نـاعس الطـرف لا ذقـت الهـوى أسـهرت مـضناك في حفـظ الهـوى

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون وفي قوله:

أفـديك ألفـا ولا آلـو الخيـال فـدى أغـراك بالبخـل مـن أغـراه بـالكرم

---

(١) نقدنا هذا البيت في بعض مؤلفاتنا فقلنا: إنه نظرة سينماتية، ولكن قد يتفق أحيانا أن تتلاقى القلوب بأسرع من ذلك، وللقلوب وثبات أسرع من البرق.

صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب فهو يغري المحبوب بالبخل ويغري طيفه بالجود، وسماحة الطيف باب إلى اضطرام الفؤاد.

ويقول البوصيري في مدافعة اللائمين:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة ... مني إليك ولو أنصفت لم تلم

ويقول شوقي:

يا لائمي في هواه والهوى قدر ... لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

وبيت شوقي أجمل وقوله (الهوى قدر) من أبدع ما قيل في دفع العذل والملام [1].

أما قوله (لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم) فهو أجود في معناه من قول الشريف الرضي:

أقول للائم المهدى ملامته ... ذق الهوى وإن استطعت الملام لم

ومن قول ابن الفارض:

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى ... فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

ولكن البوصيري كان أرق، وهو يحاور اللائم بقوله:

عدتك حالي لا سرى بمستتر ... عن الوشاة ولا دائي بمنحسم

أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة وهو يقول في حوار لائمه:

---

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال: إن هذا المعنى مسروق من الأغنية البلدية: (وعد ومكتوب علي ومقدر عالجبين) ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقي: (والهوى قدر).

لقـد أنلتـك أذنـا غـير واعيـة ورب منتـصت والقلـب في صـمم

وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة، وتلك إحدى سماته ولكنها قد تزحزحه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان، على أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل أذنا غير واعية وقلبا غير سميع. ولا كذلك البوصيري فقد جعل الوجد داء ترجى منه السلامة ووصف لائمه بنصح الحبيب حين قال:

محـضتني النـصح لكـن لـست إن المحـب عـن العـذال في صـمم

إلى هنا فرغ البوصيري من النسيب فلنقف قليلا عند المعاني التي انفرد بها شوقي وإنا لنستجيد قوله:

رمـى القـضاء بعينـي جـؤذر أسـدا يـا سـاكن القـاع أدركْ ساكن الأجـم

وهذا معنى قديم والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمي به القضاء فهو لا يذكر أن الجؤذر رماه.. وإنما يذكر أن القضاء رماه بعيني جؤذر والقضاء خبير بأنواع النصال!

وقد بلغ غاية الرفق في قوله:

لمـا رنـا حـدثتني الـنفس قائلـة يـا ويح جنبك بالسهم المصيب رمـي
جحـدتها وكتمـت الـسهم في كبـدي جـرح الأحبـة عنـدي غـير ذي ألم
رزقـت أسـمح مـا في النـاس مـن خلـق إذا رزقـت الـتماس العـذر في الـشيم

والبيت الأخير يمت إلى ما قبله بصلة ضعيفة، لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن تعد من جملة الذنوب والذي يكتم جرح الحب لا يصفح لمحبوبه عن جناية فما هذا المن على الجمال!

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي:

ان كان سركمو ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكمو ألم

ثم أخذ شوقي يصف هذا السراب الذي صحب حبيبته فقال:

من الموائس باتا بالربا وقنا ... اللاعبات بروحي السافحات دمي
السافرات كأمثال البدور ضحى ... يغرن شمس الضحى بالحلى والعصم
القاتلات بأجفان بها سقم ... وللمنية أسباب من السقم
العاثرات بألباب الرجال وما ... أقلن من عثرات الدل في الرسم
المضرمات خدودا أسفرت وجلت ... عن فتنة تسلم الأكباد للضرم
الحاملات لواء الحسن مختلفا ... أشكاله وهو فرد غير منقسم
من كل بيضاء أو سمراء زينتا ... للعين والحسن في الآرام كالعصم
يرعن للبصر السامي ومن عجب ... إذا أشرن أسرن الليث بالعنم
وضعت خدي وقسمت الفؤاد ربا ... يرتعن في كنس منه وفي أكم

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل، وأستملح منها قوله:

العاثرات بألباب الرجال وما ... أقلن من عثرات الدل في الرسم

فقد جعلهن يمشين على القلوب فيعثرن بقلب بعد قلب وإن لم يسلمن من عثرات الدلال وهن يتخطرن في الضحى وعند الأصيل.

وأستجيد كذلك قوله:

يرعى للبصر السامي ومن عجب ... إذا أشرن أسرن الليث بالعنم

فقد وصفهن بالخفر والحياء وذكر أنهن يرعن حين تسمو إليهن العين والسحر كل السحر في الحسن الحذر الهيوب. وكان من العجب أن يأسر هؤلاء الخفرات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب وما أروع قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته:

يا بنت ذي اللبد المحمي جانبه ... ألقاك في الغاب أم ألقاك في الأطم
ما كنت أعلم حتى عن مسكنه ... أن المنى والمنايا مضرب الخيم
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر ... وأخرج الريم من ضرغامة قرم
بيني وبينك من سمر القنا حجب ... ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك إلا في غضون كرى ... مغناك أبعد للمشتاق من أرم

وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذي تحوكه الطبيعة، وإنها لصناع! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه البأس، وتعيس الدنيا حين يعبس ويثور الوجود حين يثور، وفي بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها وحيائها ظبية تتثنى أو غصنا يميد.

وقول شوقي:

ما كنت أعلم حتى عن مسكنه ... أن المنى والمنايا مضرب الخيم
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر ... وأخرج الريم من ضرغامة قرم

أجود في معناه من قول الطغرائي:

أتى أريد طروق الحي من أضم ... وقد حماه رماة من بني ثعل
يحمون بالبيض والسمر اللدان به ... سود الغدائر حمر الحلى والحلل

وإنما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من أن ينبت الغصن من السيف الذكر ويخرج الريم من الضرغامة القرم!

وقول شوقي:

بيني وبينك من سمر القنا حجب ... ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك إلا في غضون كرى ... مغناك أبعد للمشتاق من إرم

أصرح في معناه وأجود من قول الطغرائي:

نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت ... نصالها بمياه الغنج والكحل [1]
قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ... ما بالكرائم من جبن ومن بخل
تبيت نار الهوى منهن في كبد ... حرى ونار القرى منهم على القلل
يقتلن أنضاء حب لا حراك بهم ... وينحرون كرام الخيل والإبل

(١) الغنج: حلاوة العينين.

قصيدة البارودي

ونريد أن نلم إلمامة قصيرة بقصيدة البارودي التي سماها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) وهي ميمية طويلة ضمنها سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من حين مولده إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وبناها -كما قال- على سيرة ابن هشام، والبارودي شاعر فحل يعتز به تاريخ الأدب في مصر وقد نوازن بينه وبين أبي فراس، ولم نفكر في الموازنة بينه وبين البوصيري لأنا لم نتأكد من أنه رمى إلى معارضته، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارئ نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي ليكون الموضوع أوفى.. وليجد القارئ في تعدد الصور الشعرية مجالا للنقد والتمييز فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسيب قال:

يا رائد البرق يمم دارة العلم ... واحد الغمام إلى حي بذي سلم
وإن مررت على الروحاء فامر لها ... أخلاف سارية هتانة الديم
من الغزار اللواتي في حواليها ... ري النواهل من زرع ومن نعم
إذا استهلت بأرض نمنمت يدها ... بردا من النور يكسو عاري الأكم
ترى النبات بها خضرا سنابله ... يختال في حلة موشية العلم
أدعو إلى الدار بالسقيا وبي ظمأ ... أحق بالري لكني أخو كرم
منازل لهواها بين جانحتي ... وديعة سرها لم يتصل بفمي
إذا تنسمت منها نفحة لعبت ... بي الصبابة لعب الريح بالعلم
أدر على السمع ذكراها فإن لها ... في القلب منزلة مرعية الذمم
عهد تولى وأبقى في الفؤاد له ... شوقا يفل شباة الرأي والهمم

إذا تذكرتـــه لاحـــت مخايلـــه ... للعـين حتـى كـأني منـه في حلـم
فـما عـلى الـدهر لـو رقـت شـمائله ... فعـاد بالوصـل أو ألقـى يـد الـسلم
تكـاءدتني خطـوب لـو رميـت بهـا ... مناكـب الأرض لم تثبـت عـلى قـدم
في بلـدة مثـل جـوف العـير لـست ... فيهـا سـوى أمـم تحنـو عـلى صـنم
لا أسـتقر بهـا إلا عـلى قلـق ... ولا ألـذ بهـا إلا عـلى ألم
إذا تلفـت حـولي لم أجـد أثـرا ... إلا خيـالي ولم أسـمع سـوى كلمـي
فمـن يـرد عـلى نفـسي لبانتهـا ... أو مـن يجـير فـؤادي مـن يـد الـسقم

وهذا شعر جزل رصين تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، فهو يستسقي للروحاء وما إليها من المغاني العربية ويجمع بين شتى الأغراض في الموضوع الواحد، ويعرض له المعنى تبعا فيتحول إليه حتى لتحسبه نسي المعنى الأصيل، ألا ترى كيف استسقى للروحاء وهذا هو الغرض الأول ثم مضى في وصف السارية الهتانة الديم فقال:

مـن الغـزار اللـواتي في حواليهـا ... ري النواهـل مـن زرع ومـن نعـم
إذا استهلت بـأرض نمنمـت يـدها ... بـردا مـن النـور يكسـو عـاري الأكـم
تـرى النبـات بهـا خـضرا سـنابله ... يختـال في حلـة موشـية العلـم

وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم فانتقل من هذا الغرض إلى وصف ما تكاءدته من الخطوب وما مني به من الإقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام.. لا يستقر به إلا على قلق.. ولا يلذ به إلا على ألم، إذا تلفت حولهِ لم يجد سوى خياله ولم يسمع غير أصداء.

وهذا بحث مجمل، نرجو أن نعود إليه في الكلمة الآتية بشيء من التفصيل.

أسلوب البارودي

قلت في الكلمة الماضية: أن شعر البارودي تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطارئ حتى لنحسبه نسي المعنى الأصيل، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين ومن نحا نحوهم من شعراء الأعصر الخالية فإنا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين ثم يترك المشبه ويمضي في الحديث عن المشبه به فيقول:

كأن حمول المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أو من سفين بن يامن ... يجور بها الملاح طورا ويهتدي

يشق عباب الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفائل باليد

وتراه يهم بالحديث عن نفسه فيقول:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره ... بهوجاء مرقال تروح وتغتدي

ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارئ في أنه قال من أجلها هذه القصيدة، إذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتا، ثم يعود بعد لأي إلى الحديث عن نفسه فيقول:

ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وكذلك نجد كعب بن زهير يقول في ثغر محبوبته سعاد:

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول

ثم يمضي في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول:

شجت بذي شبم من ماء محنية ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمون
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه ... من صوب سارية بيض يعاليل

وتراه يقول في بعد محبوبته:

أمست سعاد بأرض لا يبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيل

وكان هذا كافيا في الإبانة عن بعد الشقة ولكنه وصف الناقة التي تبلغه تلك الأرض بنحو عشرين بيتا، ثم عاد بعد هذا كله إلى ما رمى إليه من استعطاف الرسول فقال:

تسعى الوشاة بجنبيها وقولهمو ... إنك يا بن أبي سلمى لمقتول
وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكمو ... فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك ... نافلة القرآن فيها مواعيظ وترتيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وإن كثرت في الأقاويل

وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة) فقد رأينا كيف أفاض في وصف السحب وهو يستسقي للروحاء وكيف انتقل من الحديث عن وجده إلى الحديث عن غربته ولنذكر الآن شاهدا آخر نؤيد به اختياره لهذا الأسلوب.

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذي آوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم مع الصديق وصفا لا زخرف فيه إذ قال: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها}.

ووصفه أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحو فقال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين قلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما).

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت: (ولما كان ليلة بات النبي صلى الله عليه وسلم في الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعا معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد وقال رجل آخر: الغار! فقال أمية بن خلف: ما أربكم فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى إنه قبل أن يولد محمد).

فأمامنا الآن حقيقة ثابتة (هي أن النبي كان معه رفيقه في الغار، وأن الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن) وقد وصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفا يرجع في جوهره إلى الإشادة بفضل الله ورحمته.

ووصفت في كلام عائشة وصفا فيه شيء من الزخرف والخيال: إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت -ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان- فلنذكر كيف تناول البوصيري وشوقي والبارودي الحادثة وكيف نحا البارودي في وصفها منحى شعراء الجاهلية.

أما البوصيري فقد قال:

فالصدق في الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما في الغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وهذا الوصف لم يخرج عما في القرآن من وقاية الله لنبيه وإنزاله السكينة عليه ولم يعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت.

أما شوقي فقد قال:

سل عصبة الشرك حول الغار حائمة ... لولا مطاردة المختار لم تحم
هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا ... همس التسابيح والقرآن من أمم [٢]
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم ... كالغاب والحائمات الزغب كالرخم

(١) أي لا أثر فيه.
(٢) من قرب.

فـأدبروا ووجـوه الأرض تلعـنهم ... كباطـل مـن جـلال الحـق منهـزم
لـولا يـد الله بالجـارين مـا سـلما ... وعينـه حـول ركـن الـدين لم يقـم
تواريـا بجنـاح الله واسـتترا ... ومـن يـضم جنـاح الله لا يـضم

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين، ويهزأ بهم ويمثل ضلالهم وإخفاقهم تمثيلا بشعا مخيفا يخزى له وجه الشرك ويرغم به أنف الجحود، وللقارئ أن يتأمل قوله:

فـأدبروا ووجـوه الأرض تلعـنهم ... كباطـل مـن جـلال الحـق منهـزم

فإنه من أجمل ما شبه فيه المحسوس بالمعقول، أما البارودي فقد قال:

وجـاءه الـوحي إيـذانا بهجرتـه ... فـيمم الغـار بالـصديق في الغـسم [1]
فـما اسـتقر بـه حتـى تبـوأه ... مـن الحمائـم زوج بـارع الـرنم
بنـى بـه عـشه واحتلـه سـكنا ... يـأوي إليـه غـداة الـريح والـرهم
ألفـان مـا جمـع المقـدار بينهما ... إلا لـسر بـصدر الغـار مكتـتم
كلاهمـا ديـدبان فـوق مربـأة ... يرعـى المـسالك مـن بعـد ولم ينـم
إن حـن هـذا غراما أو دعـا طربـا ... باسـم الهـديل أجابـت تلـك بـالنغم
يخالهـا مـن يراهـا وهـي جاثمـة ... في وكرهـا كـرة ملـساء مـن أدم [2]
إن رفرفـت سـكنت ظـلا وإن هبطـت ... روت غليـل الـصدى مـن حـائر شـبم
مرقومـة الجيـد مـن مـسك وغالبـة ... مخـضوبة الـساق والكفـين بـالعنم
كـأنما شرعـت في قـانئ سرب ... مـن أدمعـي فغـدت محمـرة القـدم

(١) في الظلام.
(٢) من جلد.

وسجف العنكبوت الغار مختفيا ... بخيمة حاكها من أبدع الحكم
قد شد أطرافها فاستحكمت ورست ... بالأرض لكنها قامت بلا دعم
كأنها سابري حاكه لبق ... بأرض سابور في بحبوحة العجم
وارت فم الغار عن عين تلم به ... فصار يحكي خفاء وجه ملتثم
فيا له من ستار دونه قمر ... يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم
فظل فيه رسول الله معتكفا ... كالدر في البحر أو كالشمس في النسم
حتى إذ سكن الأرجاف واحترقت ... أكباد قوم بنار اليأس والوغم
أوحى الرسول بإعداد الرحيل إلى ... من عنده السر من خل ومن حشم
وسار بعد ثلاث من مباءته ... يؤم طيبة مأوى كل معتصم

وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية إلى الإفاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت فتحدث عن بناء العش والغرض من سكناه، وتكلم عن حراسة الحمامتين ورعايتهما للمسالك البعيدة وهجرهما النوم وتغنيهما باسم الهديل، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين، وكيف كانت مرقومة الجيد وكيف كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء، وتكلم عن الخيمة التي شد أطنابها العنكبوت ووصفها بجودة النسيج حتى ليحسبها الرائي حله صابرية إلى آخر ما قال.

وهذا كله خروج عن الموضوع واستسلام إلى الخيال وكذلك كان يفعل الأقدمون.

النظم في قصيدة البارودي

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب لأنه ساير الحوادث وفقا لما قصه ابن هشام ولا كذلك شوقي والبوصيري فقد أطاعا الخواطر الطارئة وقدما بعض الحوادث على بعض وتكلما عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن معجزاته مثلا قبل أن يذكر الميلاد.

ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت بابا لفقد الشعر في أكثر القصيدة فأصبحت بذلك منظومة كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون، وإلى القارئ أنموذجا يرى فيه غلبة النظم في ميمية البارودي إذ قال:

وأم طيبة مسرورا بعودته ... يطوي المنازل بالوخادة الرسم
ثم استهلت وفود الناس قاطبة ... إلى حماة فلاقت وافر الكرم
فكان عام وفود كلما انصرفت ... عصابة أقبلت أخرى على قدم
وأرسل الرسل تترى للملوك بما ... فيه بلاغ لأهل الذكر والفهم
وأم غالب أكناف الكديد إلى ... بني الملوح فاستولى على النعم
وحين خانت جذام فل شوكتها ... زيد بجمع لرهط الشرك مقتثم
وسار منتحيا وادي القرى فمحا ... بني فزارة أصل اللؤم والقزم
وأم خيبر عبد الله في نفر ... إلى اليسير فأرداه بلا أتم
ويمم ابن أنيس عرض نخلة إذ ... طغا ابن ثور فأصماه ولم يخم
ثم استقل ابن حصن فاحتوت يده ... على بني العنبر الطراز والشجم
وسار عمرو إلى ذات السلاسل في ... جمع لهام لجيش الشرك مصطلم

وغزوتـــان لعبـــد الله واحـــدة إلى رفاعـــة والأخـــرى إلى أضـــم

وهذا الأسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة، وقد يصل أحيانا إلى الغموض ولا يرجع الشاعرية إلى البارودي إلا حين يذكر نفسه وبلواه وانظر كيف يقول وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له يوم المعاد:

إني وإن مـــــــــــال بي... ضيم أشاط على جمر النوى أدمي
لثابـــت... لم يحلـــل قـــوى أمـــلي يـــأس ولم تخـــط بي في ســـلوة قـــدمي
لم ينـــزل الـــدهر لي مـــا أســـتعين بـــه عـــلى التجمـــل إلا ســـاعدي وفمـــي
هـــذا يحـــبر مـــدحي في الرســـول وذا يتلو على الناس ما أزجيه من كلمي

وفي هذه الأبيات الأربعة لونان من التعبير أولهما مملوء بالحرارة لأنه يمثل أمنية دفنتها الحوادث في صدر الشاعر وثانيهما فيه ضعف وفتور لأنه عاد إلى القصص من جديد ولعل أغرب ما وقع له من النظم اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول:

فهاكهـــا يـــا رســـول الله زاهـــرة تهـــدي إلى الـــنفس ريـــا الآس والـــبرم
وســـمتها باســـمك العـــالي فألبســـها ثوبـــا مـــن الفخـــر لا يـــبلى عـــلى القـــدم
غريبـــة في إســـار البـــين لـــو أنـــست بنظـــرة منـــك لاســـتغنت عـــن النـــسم
لم ألتـــزم نظـــم حبـــات البـــديع بهـــا إذ كـــان صـــوغ المعـــاني الغـــر ملتزمـــي
وإنـــما هـــي أبيـــات رجـــوت بهـــا نيـــل المنـــى يـــوم تحيـــا بـــذة الـــرمم
نثـــرت فيهـــا فريـــد المـــدح فانتظمـــت أحـــسن بمنتثـــر فيهـــا ومنـــتظم
صـــدرته بنـــسيب شـــف باطنـــه عـــن عفـــة لم يـــشنها قـــول مـــتهم
لم أتخـــذه جزافـــا بـــل ســـلكت بـــه في القـــول مـــسلك أقـــوام ذوي قـــدم

تابعت كعبا وحسانا ولي بهما ... في القول أسوة بر غير متهم
والشعر معرض ألباب يروج به ... ما نمقته يد الآداب والحكم
فلا يلمني على التشبيب ذو عنت ... فبلبل الروض مطبوع على النغم

ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودي يغلب فيها النظم عند سرد الحوادث ويغلب فيها الشعر عند الوصف وعند مناجاة الوجدان.

سميك يا رسول الله

وقد اشترك الشعراء الثلاثة -البوصيري والبارودي وشوقي- في التسمي باسم النبي عليه الصلاة والسلام وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه فنجد البوصيري يقول:

أن آت ذنبا فما عهدي بمنتقض ... من النبي ولا حبلي بمنصرم
فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

ونجد شوقي يقول:

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي ... وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

ونجد البارودي يقول:

خدمته بمديحي فاعتليت على ... هام السماك وصار السعد من خدمي
وكيف أرهب ضيما بعد خدمته ... وخادم السادة الأجواد لم يضم
أم كيفي يخذلني من بعد تسميتي ... باسم له في سماء العرش محترم

والبوصيري هو صاحب الفكرة وقد تبعه البارودي، ولحقهما شوقي وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون!

التخلص والاقتضاب في شعر البوصيري وشوقي والبارودي

التخلص هو انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة، ويقابله الاقتضاب ويكثر التخلص في شعر المحدثين كما يكثر الاقتضاب في شعر القدماء. قال ابن رشيق: وأولى الشعر بأن يسمى تخلصا ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى، ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان فيه كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر:

وكفكفت مني عبرة فرددتها ... إلى النحر منها مستهل ودامع
على حين عاتبت المشيب على ... وقلت ألما أصح والشيب وازع

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال:

ولكن هما دون ذلك شاغل ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع [1]
وعيد أبي قابوس في غير كنهه ... أتاني ودوني راكس فالضواجع

ثم وصف حاله عندما سمع ذلك فقال:

فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع
يسهد في ليل التمام سليمها [2] ... لحلي النساء في يديه قعاقع
تناذرها الراقون من سوء سمها ... تطلقه طورا وطورا تراجع

---

(١) الشغاف: هو غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب.

(٢) السليم: هو الملدوغ، سمي بذلك تفاؤلا بسلامته كما قيل في الصحراء مفازة.

فوصف الحية والسليم الذي شبه به نفسه ما شاء، ثم تخلص إلى الاعتذار الذي كان فيه فقال:

أتاني أبيت اللعن [١] (أنك) لمتني ... وتلك التي تستك منها المسامع

ثم اطرد ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة.

وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب ثم يرجع إلى المدح كما فعل أبو تمام، وإن أتى بمدحه الذي تمادي فيه منقطعا وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة:

ظلمتك ظالمة البريء ظلوم ... والظلم من ذي قدرة مذموم
زعمت هواك عفا الغداة كما عفت ... منها طلول باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى ... أجل وأن أبا الحسين كريم
ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت ... نفسي على إلف سواك تحوم

ثم قال بعد ذلك:

لمحمد بن الهيثم بن شبابة ... مجد إلى جنب السماك مقيم

ويسمى هذا النوع الإلمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح بل يقولون عند فراغهم في نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله: دع ذا، وعد عن ذا، ويأخذون فيما يريدون، أو يأتون بأن المشددة ابتداء للكلام

(١) تحية جاهلية عاشت حينا ثم ماتت وكانت في الأغلب مما يخاطب به الملوك، ولو خاطبت بها اليوم أحدا من ملوك عصرك لاتهموك بقلة الذوق.

الذي يقصدونه فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح، متصلا بما قبله، ولا منفصلا بقوله: (دع ذا) و(عد عن ذا) ونحو ذلك سمي طفرا وانقطاعا، وكان البحتري كثيرا ما يأتي به نحو قوله:

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى ... لكن قلبي بالرجاء موكل
إن الرعية لم تزل في سيرة ... عمرية مذ ساسها المتوكل

فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب.

أما البوصيري فقد آثر التخلص إذ قال في محاورة العذول:

إني اتهمت نصيح الشيب في عذل ... والشيب أبعد في نصح عن التهم
فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ... ضيف ألم برأسي غير محتشم
لو كنت أعلم أني ما أوقره ... كتمت سرا بدا لي منه بالكتم
من لي برد جماح من غوايتها ... كما يرد جماح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها ... إن الطعام يقوي شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم في الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت ... من المحارم والزم حمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم

ولا تطمع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
أستغفر الله من قول بلا عمل ... لقد نسبت به نسلا لذي عقم
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به ... وما استقمت فما قولي لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم
ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكت قدماه الضر من ورم

وهذا النوع من التخلص غير مقبول، إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى المدح، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس، ثم إلى مدح الرسول فإنا نغفر له هذه الإطالة، لأنها في غرض من أغراضه الأساسية وهو الدعوة إلى تهذيب النفس وتطهير الوجدان.

ومن الخير أن نذكر أن البوصيري لا يفعل ذلك في جميع قصائده فقد رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة في هزيمته فيقول:

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حا ... ل سنا منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء

وكأنما جاراه شوقي في افتتاح همزيته فقال:

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي ... والمنتهى والسدرة العصماء

ولكن أين ابتداء شوقي من ابتداء البوصيري؟؟ إن الفرق بينهما لبعيد.. وإن كان في تعبير البوصيري شيء من الجفاء في حق الأنبياء.

وأعود فأذكر أني أستملح قول البوصيري في رياضة النفس:

واخش الدسائس من جوع ومن ... فرب مخمصة شر من التخم

وجمال هذا البيت يرجع إلى ما فيه من صدق الدعوة: فإن النفس يضر بها الزهد كما يطغيها الترف كالجسم ترديه المسغبة كما تضره البطنة.

وأستجيد كذلك قوله:

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به ... وما استقمت فما قولي لك استقم

وحسن هذا البيت يرجع إلى سماحة الشاعر ورفقه وخلوص دعوته من شوائب الصلف والكبرياء، وهذا أدب يحتاج إلى مثله أطباء النفوس.

وقد آثر البارودي أيضا حسن التخلص إذ قال:

ليت القطا حين سارت غدوة حملت ... عني رسائل أشواقي إلى أضم
مرت علينا خماصا وهي قاربة ... مر العواصف لا تلوي على أرم
لا تدرك العين منها حين تلمحها ... إلا مثالا كلمح البرق في الظلم
كأنها أحرف برقية نبضت ... بالسلك فانتشرت في السهل والعلم
لا شيء يسبقها إلا إذا اعتقلت ... بنانتي في مديح المصطفى قلمي

وهذا تخلص مستملح مقبول، ومضى الشاعر في وصف القطاة إيثار للأسلوب القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية، ونريد أن نقرر أن هذا

الأسلوب جزء من الفن الشعري عند الجاهليين والمخضرمين ومن سايرهم من المحدثين وبيان ذلك أن الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفا يحيله صورة شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعا من الاستقلال وتكون لهذا الوصف قيمة أي قيمة حين يراد تأكيد معنى من المعاني المقصودة ومن أمثلة ذلك قول أبي صعترة اليولاني:

فما نطفة من حب مزن تقاذفت ... به جنبتا الجودي والليل دامس [١]
فلما أقرته اللصاب تنفست ... شمال بأعلى مائه فهو قارس [٢]
بأطيب من فيها وما ذقت طعمه ... ولكنني فيما ترى العين فارس

فإن للشاعر من المبالغة في وصف ماء المزن غرضا خاصا هو الإشادة بعذوبة ذلك الثغر الشهي المذاق، ويماثل هذا قول عاتكة المرية، وكانت كما قال صاحب زهر الآداب: عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها:

وما طعم ماء أي ماء تقوله ... تحدر عن غر طوال الذوائب
بمنعرج من بطن واد تقابلت ... عليه رياح الصيف من كل جانب
نفت جرية الماء القذى عن متونه ... فما أن به عيب تراه لشارب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه ... تقى الله واستحياء بعض العواقب

فإن لها من وصف الماء في عذوبته وجمال موقعه وحاجة الأعراب إليه غرضا خاصا هو الإشادة بجمال الحياء وطيب العفاف.

---

(١) الجودي: الجبل.

(٢) اللصاب: الشعب الصغيرة في الجبل.

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دريد:

وما وجد أعرابية قذفت بها ... صروف النوى من حيث لم تك ظنت
تمنت أحاليب الرعاء وخيمة ... بنجد فلم يقدر لها ما تمنت
إذا ذكرت ماء العضاه وطيبه ... وبرد الحصى من نحو نجد أرنت
بأوجد من وجد بريا وجدته ... غداة غدونا غدوة واطمأنت
فإن يك هذا عهد ريا وأهلها ... فهذا الذي كنا ظننا وظنت

وأروع من هذا قول الأبيوردي [1]:

وما أم ساجي الطرف مال به الكرى ... على عذبات الجزع تحسبه قلبا
تراعي بإحدى مقلتيها كناسها ... وترمي بأخرى نحوه نظرا غربا
فلاح لها من جانب الرمل مرتع ... كأن الربيع الطلق ألبسه عصبا
فمالت إليه والحريص إذا غدت ... به سورة الأطماع لم يحمد العقبى
وآنسها المرعى الخصيب فصادفت ... مدى العين في أرجائه بلدا خصبا
فلما قضت منه اللبانة راجعت ... طلاها فألفته قضى بعدها نحبا
أتيح له عاري السواعد لم يزل ... يخوض إلى أوطاره مطلبا صعبا
فولت على ذعر وبالنفس ما بها ... من الكرب لا لقيت في حادث كربا
بأوجد مني يوم عجت ركابها ... لبين فلم تترك لذي صبوة لبا

(١) تجد تفصيل هذه المعاني في كتاب (مدامع العشاق) عند الكلام عن (الطبيعة في أنفس الشعراء).

وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظبية يغتال رشأها الذئب، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزالة المروعة الملتاعة جعلت المعنى أوقع في النفس وأملك للقلب وأروع للوجدان.

ولننتقل بعد ذلك إلى شوقي وإنا لنراه صدف عن التخلص وآثر الاقتضاب، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق إلى الحديث عما تضمر الدنيا من المبكيات، وما تجن من ظلمات الخطوب وتدرج من هذا إلى الحديث عن غفلة النفس وفقرها إلى الأخلاق وكذلك يقول:

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية ... وإن بدا لك منها حسن مبتسم
فضي بتقواك فاها كلما ضحكت ... كما يفض أذى الرقشاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة ... من أول الدهر لم ترمل ولم تئم
يفنى الزمان ويبقى من إساءتها ... جرح بآدم يبكي منه في الأدم
لا تحفلي بجناها أو جنايتها ... الموت بالزهر مثل الموت بالفحم
كم نائم لا يراها وهي ساهرة ... لولا الأماني والأحلام لم ينم
طورا تمدك في نعمى وعافية ... وتارة في قرار البؤس والوصم
كم ضللتك ومن تحجب بصيرته ... إن يلق صابا يرد أو علقما يسم
يا ويلتاه لنفسي راعها ودها ... مسودة الصحف في مبيضة اللمم
ركضتها في مريع المعصيات وما ... أخذت من حمية الطاعات للتخم
هامت على أثر اللذات تطلبها ... والنفس إن يدعها داعي الصبا تهم
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها في خير عافية ... والنفس من شرها في مرتع وخم
تطغى إذا مكنت من لذة وهوى ... طغي الجياد إذا عضت على الشكم

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل ... في الله يجعلني في خير معتصم
ألقي رجائي إذا عز المجير على ... مفرج الكرب في الدارين والغمم
إذا خفضت جناح الذل أسأله ... عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة ... قدمت بين يديه عبرة الندم
لزمت باب أمير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح حبل الله يغتنم

وهذه قطعة مختارة، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله في كلام البوصيري وأن قول شوقي:

لا تحفلي بجناها أو جنايتها ... الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

لأشرف معنى وأسمى خيالا من قول البوصيري:

واخش الدسائس من جوع ومن ... فرب مخمصة شر من التخم

ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين فلما وصل إلى نفسه ذكر أنه لم يصل ولم يصم سوى الفرض، وأنه يأسى على أن لم يتزود نافلة قبل الموت وأنه لذلك ظلم سنة من أحيا الظلام حتى تورمت قدماه ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليذرف شوقي من الدمع وأين شوقي من البوصيري؟ لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط وكان يحسن أن يقول:

رمضان ولى هاتها يا ساقي ... مشتاقة تسعى إلى مشتاق

ومن هنا سنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحارة ويرمي بذلك الندم الموجع الذي يذيب لفائف القلوب وانظر كيف يقول:

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

وكان شوقي أوفر الناس إحساسا بخطر ذنبه وكرم ربه حين قال:

وإن تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة الندم

{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم}.

المعجزات

لنا في المعجزات رأي خاص، لا يسمح به ظرف الزمان، لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرضا لما يحيط بها من الحقائق والفروض وقد يثير هذا فتنة نحن عنها أغنياء [1]، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيري وشوقي والبارودي من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام ولنذكر قبل ذلك أن القرآن يفيض بالتذمر من إلحاح المعاندين ولجاجتهم في طلب المعجزات إذ كان النبي يدعو إلى تحكيم العقل وكان أولئك الكفار يأبون إلا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية تنفر منها القلوب، وتأباها العقول، وتنبو عنها الأذواق، ولننظر كيف يقول فيهم عز شأنه وتبارك اسمه في سورة الإسراء: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}.

---

(١) ومع ذلك سمح الزمان وأبدينا بعض الآراء بصراحة في كتاب (المدائح النبوية) حين حللنا بردة البوصيري، وحين نقدنا قصة المولد النبوي، وقد بدأ الناس يفهمون أن الإسلام في غنى بجماله الحق عن زخرف الأباطيل.

وهذه الآيات صريحة في أن النبي لا يملك لنفسه شيئا وأن الأمر كله لله وأن في القرآن هدى وتبصرة لقوم يعقلون، وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة العنكبوت: {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} معنى هذه الآيات أن معجزة النبي الباقية هي القرآن، وفي تأييد ذلك يقول البوصيري:

آيات حق من الرحمن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم يقترن بزمان وهي تخبرنا ... عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدينا فقامت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تدم

وتبعه شوقي فقال:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد ... يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة ... يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة في المعجزات، وإن كان شوقي على شيء من الحرص ويليه البوصيري، أما البارودي فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل وقد اشترك البوصيري والبارودي في الحديث عن سجود الأشجار وسعيها إلى الرسول فقال البوصيري:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة ... تمشي إليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطرا لما كتبت ... فروعها من بديع الخط باللقم

وقال البارودي:

أتلك أم حين نادى سرحة فأتت ... إليه منشور الأغصان كالجمم
حنت عليه حنو الأم من شفق ... ورفرفت فوق ذاك الحسن من
جاءته طوعا وعادت حين قال لها ... عودي ولو خليت للشوق لم ترم

وانفرد البارودي بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام فقال:

فبينما هو يرعى البهم طاف به ... شخصان من ملكوت الله ذي العظم
فأضجعاه وشقا صدره بيد ... رفيقة لم يبت منهما على ألم
وبعد ما قضيا من قلبه وطرا ... توليا غسله بالسلسل الشبم
ما عالجا قلبه إلا ليخلص من ... شوب الهوى ويعي قدسية الحكم
فيا لها نعمة لله خص بها ... حبيبه وهو طفل غير محتلم

وشق الملائكة لصدر النبي وغسلهم إياه السلسبيل ليس من المعجزات لأن المعجزة تكون للإقناع وهو لم يدع إلى ربه في طفولته حتى يكون للإقناع مجال.. وإنما هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه الناس، والله يختص برحمته من يشاء، وقد مر البارودي بهذه السطور مر الطيف فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل، ونحن نكتفي هنا بأن نقرر أنها في حاجة إلى تحقيق ثم نلتفت إلى ما فيها من روعة الخيال، فقد صور النبي فيها صورة رائعة وتمثل فيها لطف الله به وإحسانه إليه وتكريمه إياه، وهي صورة شعرية نحب أن نمتع بها القارئ ليرى كيف ابتدأ القصص في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(وكنت مسترضعا في بني سعد بن بكر فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان إذا أنا برهط ثلاثة معهم طشت برهرهة من الذهب ملآن ثلجا، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق أصحابي هرابا حتى انتهوا إلى شفير الوادي، ثم أقبلوا على الرهط وقالوا: ما أربكم من هذا الغلام فإنه ليس منا، هذا ابن سيد قريش وهو مسترضع فينا، غلام يتيم ليس له أب، فما يرد عليكم قلته، وماذا تصيبون من ذلك؟ فإن كنتم لا بد قاتليه فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحيرون جوابا انطلقوا مسرعين إلى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم، قال: فعمد أحدهم فأضجعني إلى الأرض إضجاعا رفيقا ثم شق بطني ما بين مفرق صدري إلى عانتي، وأنا أنظر إليه، ولم أجد لذلك مسا، ثم أخرج أحشاء بطني فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم أعادها إلى مكانها، ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه: تنح عنه فنحاه عني ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ثم أمر يده يمنة منه، وكأنه يتناول شيئا فإذا بخاتم من نور في يده يحار الناظرون إليه فختم به قلبي فامتلأ نورا، وذلك نور النبوة والحكمة. ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرا، ثم قال الثالث: تنح عنه فنحاه عني فأمر يده على مفرق صدري إلى منتهى عانتي، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضا لطيفا. ثم قال الأول الذي شق بطني: زنه بعشرين من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال: دعه فوالله لو وزنته بأمته لرجحهم. قال: ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين

عيني ثم قالوا: لا ترع فإنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت به عيناك قال: فبينما نحن كذلك إذ أقبل الحي بحذافيرهم فإذا ظئري أمام الحي تهتف بأعلى صوتها وتقول: واضعيفاه فانكبوا علي وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني -يعني الملائكة- وقالوا: حبذا أنت من وحيد، وما أنت بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ثم قالت ظئري: وايتيماه استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك قال: فانكبوا علي وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني -يعني الملائكة- وقالوا: حبذا أنت من يتيم ما أكرمك على الله، لو تعلم ما يراد بك من الخير لقرت به عيناك. فوصل الحي إلى شفير الوادي فلما أبصرتني أمي -وهي ظئري- قالت: لا أراك إلا حيا بعد، فجاءت ثم انكبت علي ثم ضمتني إلى صدرها فوالذي نفسي بيدي إني لفي حجرها قد ضمتني إليها وإن يدي لفي يد بعض الملائكة وجعل القوم لا يرونهم قال: فقال بعض القوم: إن هذا الغلام قد أصابه لمم أو طائف من الجن فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت: يا هذا ما بي شيء مما تذكرون إن آرابي لسليمة وفؤادي صحيح.. ليست لي فلتة فقال أبي -وهو زوج ظئري: ألا ترون كلامه كلام فصيح؟ إني لأرجو أن لا يكون بابني بأس فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن فلما انصرفوا بي قصوا عليه قصتي فقال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه هو أعلم بأمره منكم فسألني فقصصت عليه القصة وأمري من أوله إلى آخره فوثب إلي وضمني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه.. فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينكم وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم وليخالفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله، قال: فعمدت ظئري إليه فانتزعتني من حجره وقالت:

لأنت أعته وأجن ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به فاطلب لنفسك من يقتلك، فإنا غير قاتلي هذا الغلام، ثم احتملوني وأدوني إلى أهلهم وأصبحت مفزعا مما فعل بي وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشراك)[1].

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لنمكن القارئ من نقده وتمييزه ولنجعله على بينة من الحكم له أو عليه، إن شاء، أما نحن فتريبنا فيه عبارته إذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو إلى ما في صحيح الحديث من متانة التركيب وحلاوة التعبير ويريبنا بنوع خاص مفتتح الحديث فإن طريقة القصص التي سلكها قد تدل على أنه موضوع وذلك قوله: (روى شداد بن أوس قال: بينا نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو مدره قومه، يتوكأ على عصاه فمثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه إلى جده، فقال: يا بن عبد المطلب إني أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس، وأن الله تعالى أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والخلفاء ألا وإنك تفوهت بعظيم.. إنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل. وأنت ممن يعبد الحجارة والأوثان فما لك والنبوة لكن لكل حق حقيقة فأنبئني بحقيقة قولك وبدو شأنك قال: فأعجب النبي بمسألته، ثم قال: يا أخا بني عامر إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ عظيما ومجلسا كريما... إلخ).

---

(١) راجع كتاب نجباء الأبناء.

فإن القارئ يرتاب على الأقل في صحة هذه الجملة: (إني أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس) فإن كلمة صلى الله عليه وسلم لا تقال لمن يزعم أنه رسول وعبارة فأنبئني بحقيقة قولك وبدو شأنك، عبارة مولدة لا ريب في ذلك وما أظن النبي يقول: (إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ عظيما ومجلسا كريما) فإن هذا أيضا من تعابير المولدين ولكل عصر أسلوب.

أكتفي بهذا في نقد هذه الأقصوصة وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها إلى محكمة التعديل والتجريح وأنتقل إلى ما ذكروه من العجائب عند ميلاد الرسول، كانصداع إيوان كسرى وخمود نار الفرس، ونضوب بحيرة ساوة وما إلى ذلك من خوارق العادات..

قال البوصيري في البردة:

أبان مولده عن طيب عنصره ... يا حسن مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم ... قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع ... كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف ... عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ... ورد واردها بالغيظ حين ظمي
كأن بالنار ما بالماء من بلل ... حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة ... والحق يظهر من معنى ومن كلم
عموا وصموا فإعلان البشائر لم ... تسمع وبارقة الإنذار لم تشم
من بعد ما أخبر الأقوام كاهنهم ... بأن دينهم المعوج لم يقم

ويعد ما عاينوا في الأفق من شهب ... منقضة وفق ما في الأرض من صنم
حتى غدا عن طريق الحق منهزم ... من الشياطين يقفو إثر منهزم

وقال في الهمزية:

وتداعى إيوان كسرى ولولا ... آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه ... كربة من خمودها وبلاء
وعيون الفرس غارت فهل كا ... ن لنيرانهم بها إطفاء

ويقول شوقي في نهج البردة:

وخل كسرى وإيوانا يدل به ... هوى على أثر النيران والأيم

ويقول في الهمزية:

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت ... وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم ... خمدت ذوائبها وغاض الماء
والآي تترى والخوارق جمة ... جبريل رواح بها غداء

ويرى القارئ أن البوصيري أكثر من شوقي إشادة بتلك الخوارق وشعره فيها يفيض بالحياة، أما شوقي فقد آثر الحيطة وهو يتكلم عن هذه الموضوعات فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض القصيدة وسنرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية.

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي في وصف الخوارق والمعجزات وأن شوقي أبعد نظرا من البوصيري في نقد الأخبار والآثار، فإن انصداع الإيوان، وخمود نار الفرس، ونضوب بحيرة

ساوة وانقضاض الشهب على الأصنام: كل هذه الحوادث فيها نظر وكلها في حاجة إلى تمحيص ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وصف القرآن

لم يعن البارودي بوصف القرآن كما عني به البوصيري وشوقي أما البوصيري فقد قال:

دعني ووصفي آيات له ظهرت ... ظهور نار القرى ليلا على علم

فالدر يزداد حسنا وهو منتظم ... وليس ينقص قدرا غير منتظم

فما تطاول آمال المديح إلى ... ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السذاجة وعبارة (دعني ووصفي آيات له ظهرت) عبارة عامية وقوله:

فالدر يزداد حسنا وهو منتظم ... وليس ينقص قدرا غير منتظم

غير واضح المدلول لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن، لأنه لا يهم بنظم القرآن ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن. إذ لم تسبق ذلك إشارة ولم يتقدمه دليل فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل، أما قوله:

فما تطاول آمال المديح إلى ... ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

فهو بيت يمدح به شخص ولا يقرظ به كتاب وقد كان الشاعر يرمي إلى وصف القرآن بأنه دعوة إلى محاسن الشيم، ومكارم الأخلاق ولكنه لم يوفق إلى حسن الأداء.

وقوله بعد ذلك:

آيات حق من الرحمن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا ... عن المعاد وعن عاد وعن إرم

فيه إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحدوثه وهي إشارة مبهمة لا تغني في دفع ولا تأييد، والبيت الثاني غير جيد المعنى لأن أخبار القرآن عن عاد وعن إرم ليس حجة إلا عند المسلمين أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار بعد أمن اللبس والتزوير.

أما قوله:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تدم

فهو بيت القصيد إذ كان القرآن هو المعجزة الباقية وكان هو المرجع حين يجد الخلاف، وهو أيضا المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل ويصبح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين أما نبع الماء من بين يدي الرسول وتظليل الغمام إياه، وسجود الأشجار له وما إلى ذلك من المعجزات فهي مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة وهي مخشية الضر قبل أن تكون مرجوة النفع ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

وقوله:

ما حوربت قط إلا عاد من حرب ... أعدى الأعادي إليها ملقي السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجاني عن الحرم

كلمة صدق ويكفي أن تقرأ القرآن بحيدة ونزاهة لتلمس هذه الحقيقة، فالقرآن كتاب خطر رهيب يحمل عدوه على الإيمان به والخشوع لديه، ولو صحت -لا صحت- أراجيف الملحدين من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون}.

وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز:

لها معان كموج البحر في مدد ... وفوق جوهرة في الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها ... ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له ... لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
إن تتلها خيفة من حر نار لظى ... أطفأت نار لظى من وردها الشبم
لا تعجبن لحسود راح ينكرها ... نجاهلا وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال وهو غاية في تقريع المكابرين.

أما شوقي فقد قال:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد ... يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة ... يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

وهذا الوصف على إيجازه جميل، وكنت أود أن لا يكتفي شوقي في وصف القرآن بهذه الأبيات. وقد انتقل إلى الإشادة بحديث النبي فقال:

يـا أفـصح النـاطقين الـضاد قاطبـة ... حـديثك الـشهد عنـد الـذائق الفهـم
حليـت مـن عطـل جيـد البيـان بـه ... في كـل منتثـر في حـسن منـتظم
بكـل قـول كـريم أنـت قائلـه ... تحيـي القلـوب وتحيـي ميـت الهمـم

وقول شوقي:

آياتـه كلـما طـال المـدى جـدد ... يـزينهن جـلال العتـق والقـدم

أروع من قول البوصيري:

فـما تعـد ولا تحـصى عجائبهـا ... ولا تـسام عـلى الإكثـار بالـسأم

وقول البوصيري:

إن تتلهـا خيفـة مـن حـر نـار لظـى ... أطفـأت نـار لظـي مـن وردهـا الـشبم

فيه ضعف لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله وهو تهذيب النفوس وتثقيف العقول إلى غرض ضئيل هو اتخاذه وردا من أوراد الصباح أو المساء كما فعل المتأخرون.

وقوله:

حليـت مـن عطـل جيـد البيـان بـه ... في كـل منتثـر في حـسن منـتظم

غير جيد المعنى وهو لا يزيد عن قول بعض الناس (أما القرآن فهو زينة البيان وقلائد العقيان) وعيب هذا النوع من الوصف يرجع إلى ما فيه من الشمول وجودة الوصف لا تتم إلا بتحديد الموصوف.

وصف الهيجاء

عني العرب كثيرا بوصف الحرب فأفاض شعراؤهم في الإشادة بذكر الغزاة والتمدح بآثار المجاهدين وهذا كتاب (الحماسة) شاهد عدل على تلك النزعة الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمنا غير قليل، فقد اختار أبو تمام قطعا قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق وفعل مثل ذلك في الفكاهات والملح والنسيب ثم ملأ كتابه بالحماسة والهجاء والمديح. وهي الفنون التي تترجم النفس العربية وتكشف عما فيها من مطوي النوازع ومكنون الميول وكذلك مهدت السبيل لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك وما اقتحم من الحروب وإن اختلفت مناحيهم في وصف الهيجاء.

أما البوصيري فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملة ولم يميز بعض الغزوات عن بعض وهو يتكلم عن أخبار القتال فوصفه للحرب وصف فضفاض يصلح لبوسا لكل موصوف. وانظر كيف يقول:

راعت قلوب العدا أنباء بعثته ... كنبأة أجفلت غفلا من الغنم
ما زال يلقاهم في كل معترك ... حتى حكوا بالقنا لحما على وضم
ودوا الفرار فكادوا يغبطون به ... أشلاء شالت مع العقبان والرخم

تمضي الليالي ولا يدرون عدتها ... ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم
كأنما الدين ضيف حل ساحتهم ... بكل قرم إلى لحم العدا قرم
يجر بحر خميس فوق سابحة ... يرمي بموج من الأبطال ملتطم
من كل منتدب لله محتسب ... يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
حتى غدت ملة الإسلام وهي بهم ... من بعد غربتها موصولة الرحم

وإنه ليحسن أن نسجل إعجابنا بقوله في وصف المجاهدين من أصحاب الرسول:

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ... ماذا رأى منهمو في كل مصطدم
وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا ... فصول حتف لهم أدهى من الوخم
المصدري البيض حمرا بعدما وردت ... من العدا كل مسود من اللمم
والكاتبين بسمر الخط ما تركت ... أقلامهم حرف جسم غير منعجم
شاكي السلاح لهم سيما تميزهم ... والورد يمتاز بالسيما من السلم
تهدي إليك رياح النصر نشرهمو ... فتحسب الزهر في الأكمام كل كمى

وقد يستضعف قوله:

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا ... من شدة الحزم لا من شدة الحزم
طارت قلوب العدا من بأسهم ... فما تفرق بين البهم والبهم

أما البارودي -جعل الله له لسان صدق في الآخرين- فقد وصف الحرب وصفا حيا صارخا يبعث ميت العزم ويثير مدفون الصيال، وما ظنك بجندي سفاح نشأ في أرض الفراعنة الذين هموا ببناء الصروح الشوامخ ليبلغوا أسباب

السموات وليحاربوا المقتدر القهار، وإنه لضلال أجمل من الهدى وغي أهدى من الرشاد.

ولننظر كيف يقول:

قام النبي لنصر الحق معتزما ... بجحفل لجموع الشرك مختزم
تبدو به البيض والقسطال منتشر ... كالشهب في الليل أو كالنار في الفحم
لمع السيوف وتصهال الخيول به ... كالبرق والرعد في مغدودق هزم
عرمرم ينسف الأرض الفضاء إذا ... سرى بها ويدك الهضب من خيم
فيه الكماة التي ذلت لعزتها ... معاطس لم تزلل قبل بالخطم
من كل معتزم بالصبر محتزم ... للقرن ملتزم في البأس مهتزم
طالت بهم همم نالوا السماك بها ... عن قدرة وعلو النفس بالهمم
بيض أساورة غلب قساورة ... شكس لدى الحرب مطعلمون في الأزم
طابت نفوسهم بالموت إذ علموا ... أن الحياة التي يبغون في العدم
ساسوا الجياد فظلت في أعنتها ... طوع البنانة في كر ومقتحم
تكاد تفقه لحن القول من أدب ... وتسبق الوحي والإيماء من فهم
كأن أذنابها في الكر ألوية ... على سفين لأمر الريح مرتسم
من كل منجرد يهوي بصاحبه ... بين العجاج هوي الأجدل اللحم
والبيض ترجف في الأغماد من ظمأ ... والسمر ترعد في الأيمان من قرم
من كل مطرد لولا علائقه ... لسابق الموت نحو القرن من ضرم
كأنه أرقم في رأسه حمة ... يستل كيد الأعادي بابنة الرقم
فلم يزل سائرا حتى أناف على ... أرباض مكة بالفرسان والبهم
ولفهم بخميس لو يشد على ... أركان رضوى لأضحى مائل الدعم

فـأقبلوا يـسألون الـصفح حـين رأوا ... أن اللجاجـة مـدعاة إلى النـدم
ريعـوا فـذلوا ولـو طاشـوا لـوقرهم ... ضرب يفـرق مـنهم مجمـع اللمـم

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال وإنك لتعجب حين ترى البارودي يفتن في تصوير الحرب وهو يتحدث عن الغزوات غزوة غزوة وانظر كيف يقول مثلا في يوم بدر:

يـوم تبـسم فيـه الـدين وانهملـت ... عـلى الـضلال عيـون الـشرك بالـسجم
أبـلى عـلي بـه خـير الـبلاء بـما ... حباه ذو العرش من بأس ومن هـمم
وجـال حمـزة بالصمـصام يكـسؤهم ... كـسأ يفـرق مـنهم كـل مـزدحم
وغـادر الـصحب والأنـصار جمعهمـو ... ولـيس فيـه كمـي غـير منهـزم
تقـسمتهم يـد الهيجـاء عادلـة ... فالهـام للبـيض والأبـدان للـرخم
كـأنما البـيض بالأيـدي صـوالجة ... يلعـبن في سـاحة الهيجـاء بـالقمم
لم يبـق مـنهم كـمي غـير منجـدل ... عـلى الرغـام وعـضو غـير مـنحطم
فـما مـضت سـاعة والحـرب مـسعرة ... حتـى غـدا جمعهـم نهبـا لمقتـسم
قـد أمطـرتهم سـماء الحـرب صـائبة ... بالمـشرفية والمـران كـالرجم
فـأين مـا كـان مـن زهـو ومـن صـلف ... وأيـن مـا كـان مـن فخـر ومـن شـمم
جـاءوا وللـشر وسـم في معاطـسهم ... فـأرغموا والـردى في هـذه الـسيم
مـن عـارض الحـق لم تـسلم مقاتلـه ... ومـن تعـرض للأخطـار لم يـنم

أما شوقي فقد وصف النبي في الحرب وصفا رقيقا لا يلائم ما تقضي به الحرب من غلبة الغضب وشمول العبوس ولننظر كيف يقول:

البـدر دونـك في حـسن وفي شرف ... والبحـر دونـك في خـير وفي كـرم

شم الجبال إذا طاولتها انخفضت ... والأنجم الزهر ما أوسمتها تسم
والليث دونك بأسا عند وثبته ... إذا مشيت إلى شاكي السلاح كمي
تهفو إليك وإن أدميت حبتها ... في الحرب أفئدة الأبطال والبهم
محبة الله ألقاها وهيبته ... على ابن آمنة في كل مصطدم
كأن وجهك تحت النقع بدر دجى ... يضيء ملتئما أو غير ملتئم
بدر تطلع في بدر فغرته ... كغرة النصر تجلو داجي الظلم

وهذا شعر جميل لكنه أرق من أن يوصف به ذوو البأس وهم يقارعون الهول في ميدان الجلاد، ويعجبني قوله في وصف الغزاة:

مهما دعيت إلى الهيجاء قمت لها ... ترمي بأسد ويرمي الله بالرجم
على لوائك منهم كل منتقم ... لله مستقتل في الله معتزم
مسبح للقضاء الله مضطرم ... شوقا على سابح كالبرق مضطرم
لو صادف الدهر يبغي نقلة فرمى ... بعزمه في رحال الدهر لم يرم
بيض مفاليل من فعل الحروب بهم ... من أسيف الله لا الهندية الخزم
كم في التراب إذا فتشت عن رجل ... من مات بالعهد أو من مات بالقسم
لولا مواهب في بعض الأنام لما ... تفاوت الناس في الأقدار والقيم

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال، وأشار إليها البارودي إشارة خفيفة حين قال:

ذاقوا الردى جرعا فاستسلموا ... للصلح والحرب مرقاة إلى السلم

أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد وأفصح عنها إفصاحا يرضي المنصف ويكبح جهل المعاند الكنود، ولننظر كيف يقول:

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذي حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية فقد كانت دين سلام وإخاء ولكنها لم تقم إلا بالسيف وفي هذا يقول:

سل المسيحية الغراء كم شربت ... بالصاب من شهوات الظالم الغلم
طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها ... في كل حين قتالا ساطع الحدم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها ... بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

ثم عاد إلى تأكيد فضيلة الجهاد فقال:

علمتهم كل شيء يجهلون به ... حتى القتال وما فيه من الذمم
لولاه لم نر للدولات في زمن ... ما طال من عمد أو قر من دعم
تلك الشواهد تترى كل آونة ... في الأعصر الغر لا في الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروش واعتلت سرر ... لولا القذائف لم تثلم ولم تصم

المدنية الإسلامية

وقد انفرد شوقي بالإفصاح عن جلال المدنية الإسلامية.. وتقديمها على مدنية المصريين واليونان والرومان وفي ذلك يقول:

دع عنك روما وآتينا وما حوتا ... كل اليواقيت في بغداد والتوم
وخل كسرى وإيوانا يدل به ... هوى على أثر النيران والأيم
واترك رعمسيس أن الملك مظهره ... في نهضة العدل لا في نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت ... دار السلام لها ألقت يد السلم
ما ضارعتها بيانا عند ملتأم ... ولا حكتها قضاء عند مختصم
ولا احتوت في طراز من قياصرها ... على رشيد ومأمون ومعتصم
من الذين إذا سارت كتائبهم ... تصرفوا بحدود الأرض والتخم
ويجلسون إلى علم ومعرفة ... فلا يدانون في عقل ولا فهم
يطأطئ العلماء الهام إن نبسوا ... من هيبة العلم لا من هيبة الحكم

وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الإسلام وما كان لهم من الأثر في حياطة الدين، ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله:

واترك رعمسيس أن الملك مظهره ... في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

فإنه من فرائد الأمثال.. ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة أن البوصيري سما في المدائح النبوية سموا لم يوفق إلى معشاره في سائر شعره وهذا أثر لصدق العاطفة بخلاف صاحبيه فإن شعرهما في هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ وصدق شوقي حين قال:

المادحون وأرباب الهوى تبع ... لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملي صادق الكلم

بين شوقي وابن زيدون

نحن مقبلون في هذا البحث على واد ظليل من أودية البيان [١]: مقبلون على الموازنة بين نونية شوقي ونونية ابن زيدون، مقبلون على مصافحة شاعرين من أهل العبقرية ومراجعة قصيدتين شغلت إحداهما الناس تسعة قرون وشغفت الثانية ألوف القلوب.

وابن زيدون صاحب النونية شخصية تمتاز بميزة ظاهرة، فهو رجل خلقته الدسائس في الحب والملك ولا يمكن أن نعرف فضل الشر إلا إذا تمثلنا مصير ابن زيدون فالدسائس من ألوان الشر الوضيع ولا يعتصم بالدسائس إلا الضعاف العجزة من صغار الناس، ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير في أكثر الأحيان فلولا الدسائس في الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التي تسطع من أدبه الرفيع.

ومن عجائب ما يقع في الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من نصيب من أصيبوا بالحرمان في دنيا الحب والمجد فالرجل حين يرحم تنفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوض عليه ما ضاع من نعيم الراحة الروحية والدنيوية والمجد الأدبي متاع ليس بالقليل، وهو جدير بأن يوضع في الميزان ولا يغض من قيمة هذه الغنيمة ما نعرف ويعرف الناس من أن العبقريين لا يحسون أثر هذا العوض ولا يرضون عن زمانهم، وإن بلغت شهرتهم آفاق السماء، هذا.

---

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٣٤٠.

لا يغض من قيمة تلك الغنيمة، فقد يظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أنسا مكنونا بظفرها في عالم الفكر والبيان.

وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة فابتلته ببليتين لا يبتلى بهما رجل كريم إلا عرف كيف يكون العز والذل، والشهد والعلقم والنعيم والجحيم.

أما البلية الأولى فهي الحب، وأما البلية الثانية فهي المجد وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق.

ولا يهمنا في هذا المقام أن نشير إلى منزلة ابن زيدون الوزير، وإنما يهمنا أن نشير إلى منزلة ابن زيدون العاشق فالوزارة منصب غادر يتنقل من يد إلى يد، كما يتنقل القرش المثقوب من جيب إلى جيب أما الحب فنفحة روحانية لا يعبق طيبها إلا في كرام القلوب.

الحب هو الذي فجر العبقرية في صدر ابن زيدون ولكن أي حب؟ لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة خطيرة تجمع بين الحسن والذكاء.

والحسن منحة إلهية يزفها الله إلى من يشاء، وهو خليق بأن يصنع ما يصنع، فيعز ويذل ويرفع ويضع ويكرم ويهين، ولكن الحسن وحده لا يأسر القلوب، إنما يسيطر ويستطيل حين يجد رفيقا، من خفة الروح ومن لطف الذكاء.

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة الشمائل ولطف الوجدان، وهذا النوع نادر الوجود، والمرأة حين تمنح الجمال والذكاء

تحارب بسيفين مرهفين، وتحول الدنيا إلى مآتم وأفراح، الشاعر الذي يحب امرأة جميلة ذكية يصبح إحساسه كالوقود الذي يقدم إلى النار، ومن قلب العاشق الحساس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنيا الشعر الجميل.

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زيدون؟

إن لم تعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة، وهو يتشوق إلى تلك المحبوبة التي ملكت قلبه واستأثرت بنهاه:

هل راكب ذاهب عنهم يحيينـي ... إذا كتاب يوافيني فيحيينـي
قد مت إلا ذماء في يمسكه ... أن الفؤاد بلقياهم يرجينـي
ما سرح الدمع من عيني أطلقه ... إلا اعتياد أسى في القلب مسجون
صبرا لعل الذي بالبعد أمرضني ... بالقرب يوما يداويني فيشفيني
كيف اصطباري وفي كانون فارقني ... قلبي وها نحن في أعقاب تشرين
شخص يذكرني فاه وغرته ... شمس النهار وأنفاس الرياحين
لئن عطشت إلى ذاك الرضاب لكم ... قد بات منه يسقيني فيروينـي
وإن أفاض دموعي نوح باكية ... فكم أراه يغنيني فيشجيني
وإن بعدت وأضنتني الهموم لقد ... عهدته وهو يدنيني فيسليني
أو حل عقد عزائي نأيه فلكم ... حللت عن خصره عقد الثمانين
يا حسن إشراق ساعات الدنو بدت ... كواكبا في ليالي بعده الجون
والله ما فارقوني باختيارهم ... وإنما الدهر بالمكروه يرمينـي
وما تبدلت حبا غير حبهم ... إذا تبدلت دين الكفر من ديني
أفدي الحبيب الذي لو كان مقتـ ... ـدرا لكان بالنفس والأهلين يفديني

ولنسارع فنذكر أن هذه المحبوبة هي ولادة بنت المستكفي التي يقول فيها ابن خاقان:

(كانت من الأدب والظرف وتتييم المسمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب).

كانت ولادة فاتنة الجمال وكانت أديبة تنظم الشعر البارع وتدك أسرار الكلام البليغ والشاعر الذي يهوى فتاة أدبية ينعم مرتين، ينعم بالحب وينعم بالشعر والشعر لا يقوى وينضج إلا إذا عرف المحب أنه يوجه أنغامه إلى أذن تسمع وقلب يذوق.

وإليكم هذا القصيد في خطاب تلك الأديبة الحسناء:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنه رق لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا
تلهو بما يستميل العين من زهر جال ... الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين إشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق ... وسنان نبه منه الصبح أحداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لا سكن الله قلبا عن ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملي نسيم الصبح حين ... سرى وافاكم بفتى أضناه ما لاقى

لـــو كـــان وفى المنـــى في جمعنـــا بكـــم ... لكـــان مـــن أكـــرم الأيـــام أخلاقـــا
كـان التجـاري بمحض الـود من زمـن ... ميـــدان أنـــس جرينـــا فيـــه أطلاقـــا
فـــالآن أحمـــد مـــا كنـــا لعهـــدكم ... ســـلوتم وبقينـــا نحـــن عـــشاقا

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون وإنما أردنا أن نمهد لتلك النونية البديعة التي نفحنا بها ذلك الغرام الطريف.

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأذباء في جميع البلاد العربية وهي في الشعر العربي تذكر بليالي ميسيه في الشعر الفرنسي فكما أن الفرنسيين جميعا يعرفون ليالي ميسيه فالعرب يعرفون جميعا نونية ابن زيدون، فإن كان في القراء من يجهل هذه القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته فإنه لا يليق بشاب مثقف يجهل نونية ابن زيدون التي سارت مسير الأمثال.

وقد يكون في القراء من يقول: إنها قصيدة في الحب، وما هو الحب، والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذي لا يعرف غير قلوب الفحول من الرجال وإنما نشير إلى أن رواية الأديب الحق الذي يصدر عن صدق المشاعر والقلوب هي في ذاتها متعة ذوقية لا يصدف عنها إلا الغافلون.

وإلى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء [1]:

أضـحى التنـائي بـديلا مـن تـدانينا ... ونـــاب عـــن طيـــب لقيانـــا تجافينـــا

(١) رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة لأنها في غرض واحد لا يظهر جماله إلا وهي مؤلفة الشمل ولا كذلك نونية شوقي فإنها مختلفة الأغراض. وستكشف الموازنة عن تنقل شوقي من فن إلى فن ونفاذه من مسلك إلى مسلك.

ألا وقد حان صبح البين صبحنا ... حين فقام بنا للحين ناعينا
من مبلغ المبلسينا بانتراحهم ... حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
إن الزمان الذي ما زال يضحكنا ... أنسا بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعـ ... ـوا بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقودا بأنفسنا ... وانبت ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا ... فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
يا ليت شعري ولم نعتب أعاديكم ... هل نال حظا من العتبى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم ... رأيا ولم نتقلد غيره دينا
ما حقنا أن تقروا عين ذي حسد ... بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا
وإذ صهرنا فنون الوصل دانية ... قطوفه فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... إذ طالما غير اليأس المحبينا
والله ما طلبت أرواحنا بدلا ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يساري البرق غاد القصر فاسق به ... من كل صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا ... إلفا تذكره أمسى يعنينا
ويا نسيم الصبح بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حيا كان يحيينا

فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة ... منه وإن لم يكن غبا تقاضينا
ربيب ملك كأن الله أنشأه ... مسكا وقدر إنشاء الورى طينا
أو صاغه ورقا محضا وتوجه ... من ناصع التبر إبداعا وتحسينا
إذا تأود آدته رفاهية ... توم العقود وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا في أكلته ... بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كأنما أثبتت في صحن وجنته ... زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا ... وفي المودة كاف من تكافينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها ... منى ضروبا ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته ... في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة ... فقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا
إذا انفردت وما شوركت في صفة ... فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يشفينا
لا غرو في أن ذكرنا الحب حين نهت ... عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله ... شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه ... سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختيار تجنبناه عن كثب ... لكن عدتنا على كره عوادينا
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة ... فينا الشمول وغنانا مغنينا

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
دومي على العهد ما دمنا محافظة ... فالحر من دان إنصافا كما دينا
فما استعضنا خليلا منك يجبسنا ... ولا استفدنا حبيبا عنك يثنينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه ... بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
أبلى وفاء وإن لم تبذلي صلة ... فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا
وفي الجواب متاع إن شفعت به ... بيض الأيادي التي مازلت تولينا

تلكم هي النونية التي شغلت الناس تسعة قرون.

ومن الظلم للحق أن نحكم بأن ابن زيدون وقف هواه على تلك الحسناء هيهات فلا يمكن أن يكون لمثله هوى واحد، وكيف وهو رجل طامح القلب مرهف الإحساس.

ولكن التاريخ لم يتحدث إلا عن تلك المليحة الحسناء ولو أنه دون جميع ما طاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عمن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيات:

ودع الصبر محب ودعك ... ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن ... زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا ... رحم الله زمانا أطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم ... بت أشكو قصر الليل معك

الموازنة بين القصيدتين

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسي القلوب ويكاد يعرف أسرار النفوس فماذا نقول عن شوقي؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر في فصول هذا الكتاب ونخشى أن يتحيف حقوق من عرضنا لهم من الشعراء ولكن كيف نستكثر القول في شوقي وقد بز ابن زيدون؟ إن نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب وقد أرسلها من الأندلس في أعقاب الحرب العالمية فضج لها شعراء مصر.. وأجابه إسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وعبد الحليم المصري ولكنهم عجزوا جميعا عن الجري في ميدانه ولم يؤثر لهم في معارضته شيء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء.

ابتدأ ابن زيدون بشكوى البين والأعداء والزمان وكانت الأبيات السبعة التي تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعبها ما وشيت به من الزخرف ولكن أين هي من بداية شوقي حين خاطب الطائر الحزين فاندفع يقول:

يـا نـائح الطلـح أشـباه عوادينـا ... نـشجى لواديـك أم نأسـى لوادينـا
مـاذا تقـص علينـا غـير أن يـدا ... قـصت جناحـك جالـت في حواشـينا
رمـى بنـا البـين أيكـا غـير سـامرنا ... أخـا الغريـب وظـلا غـير نادينـا
كـل رمتـه النـوى ريـش الفـراق لنـا ... سـهما وسـل عليـك البـين سـكينا
إذا دعـا الـشوق لم نـبرح بمنـصدع ... مـن الجنـاحين عـي لا يلبينـا
فـإن يـك الجنس يـا بـن الطلـح فرقنا ... إن المـصائب يجمعـن المـصابينا
لم تـأل مـاءك تحنانـا ولا ظمـأ ... ولا ادكـارا ولا شـجوا أفانينـا

تجـــر مـــن فـــنن ذيـــلا إلى فـــنن وتـــسحب الـــذيل ترتـــاد المؤاســـنا
أســاة جـسمك شـتى حـين تطلـبهم فمـــن لروحـــك بـــالنطس المـــداوينا

والشاعر في هذه الأبيات حيران يجعل الطائر في حالين حال المغترب وحال المقيم.. فما تدري أيبكي من الغربة أم ينوح من فقد الأليف ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية الرفق حين قال:

تجـــر مـــن فـــنن ذيـــلا إلى فـــنن وتـــسحب الـــذيل ترتـــاد المؤاســـنا

وهي حال نشهدها في الطائر المحزون، فقد نرى الطائر ينتقل على غير هدى من أيك إلى أيك، فنعرف أنه يبحث عمن يواسيه، ولكن أين من يواسي الطائر الحزين. إن شوقي نفسه أخطأ حين قال:

أســاة جـسمك شـتى حـين تطلـبهم فمـــن لروحـــك بـــالنطس المـــداوينا

فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه وإنما يجد من يذبحه ويشويه والناس ألأم من أن يطبوا لطائر جريح.

وانتقل ابن زيدون من شكي البين والأعداء والزمان إلى معاتبة حبيبته فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد إلا الوفاء، أما شوقي فقد انتقل من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر فقال:

واهـــا لنـــا نـــازحي أيـــك بأنـــدلس وإن حللنـــا رفيقـــا مـــن روابينـــا
رسـم وقفنـا عـلى رسـم الوفـاء لـه نجـيش بالـدمع والإجـلال يثنينـا
لفتيـــة لا تنـــال الأرض أدمعهـــم ولا مفـــــارقهم إلا مـــــصلينا
لـــو لم يـــسودوا بـــدين فيـــه منبهـــة للنـــاس كانـــت لهـــم أخلاقهـــم دينـــا

لم نسر من حرم إلا إلى حرم ... كالخمر من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته ... تماثل الورد خيريا ونسرينا
نسقي ثراهم ثناء كلما نثرت ... دموعنا نظمت منها مراثينا
كادت عيون قوافينا تحركه ... وكدن يوقظن في الترب السلاطينا

وللقارئ أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات فالشاعر يغلبه الدمع وهو يتذكر ملوك الأندلس ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء لأنه في ديار قوم لم تنقل الأرض أدمعهم ومفارقهم إلا عند السجود فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله وذلك من أبعد الغايات في الثناء.

ويأبى شوقي إلا أن يحرص على المعاني الشعرية فهو في الأندلس لا يسري من حرم إلى حرم ولكن كيف؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين وقدسية الخمر لا تجوز في غير مذاهب الشعراء.

ثم قال في الحنين إلى وطن النيل:

لكن مصر وإن أغضت على مقة ... عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنا ... وحول حافاتها قامت رواقينا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال:

أحب بلاد الله ما بين منعج ... إلى وسلمى لو يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمائمي ... وأول أرض مس جسمي ترابها

والبكر هو قول شوقي:

ملاعب مرحت فيها مآربنا ... وأربع أنست فيها أمانينا

وإنما كان هذا معنى بكرا لما فيه من طرافة الخيال، أرأيتم كيف تمرح المآرب وكيف تأنس الأماني؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة ١٩٢١ وكان دعاني للغداء عنده بالمطرية مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشي وسعيد عبده وأحمد علام فعجبت يومئذ لذلك المبسم الساحر وسألت نفسي: كيف كان ذلك الملاك في صباه؟

إن حنين شوقي إلى مصر حنين عميق وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد في مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون ودنيا شوقي لم تكن مثل دنيا الناس في هذا الزمان، كانت الدنيا في شباب شوقي تفيض بالبشر والإيناس وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مضمخة بالسحر والفتون وكان للجمال قدسية وكان للصبا سلطان. وكانت خطوب الزمن لا تهد النفوس كما تفعل في هذه الأيام.

ومن البكر أيضا قول شوقي:

بنا فلم نخل من روح يراوحنا ... من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا ... وباسمه ذهبت في اليم تلقينا

يريد أن يقول: إن مصر لم تلقه في يم المنفى إلا خوفا عليه من كيد فرعون.. فرعون القرن العشرين المستر جون بول!!

تذكروا قول ابن زيدون:

يا ساري البرق غاد القصر فاسق به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا

واسأل هنالك هل عني تذكرنا ... إلفا تذكره أمسى يعنينا

وهذا شعر جميل ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فقال:

يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا
لما ترقرق في دمع السماء دما ... هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم نهتك دياجيه ... على نيام ولم نهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا على قدم ... قيام ليل الهوى للعهد راعينا
كزفرة في سماء الليل حائرة ... مما نردد فيه حين يضوينا
بالله إن جبت ظلماء العباب على ... نجائب النور محدوا (بجبرينا)[1]
ترد عنك يداه كل عادية ... إنسا يعثن فسادا أو شياطينا
حتى حوتك سماء النيل عالية ... على الغيوث وإن كانت ميامينا
وأحرزتك شفوف اللازورد على ... وشي الزبرجد من أفواف وادينا
وحازك الريف أرجاء مؤرجة ... ربت خمائل واهتزت بساتينا
فقف إلى النيل واهتف في خمائله ... وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وآس ما بات يذوي من منازلنا ... بالحادثات ويضوي من مغانينا

انظروا ابن زيدون يسأل البرق أن يسقي القصر، وشوقي يسأل البرق أن يأسو المنازل الذاوية والمغاني الضاوية، والمعنيان مقتربان، ولكن شوقي أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق، وانحداره من أرض إلى أرض وأعطى صورا من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعرا ودع دنياه حين ودع النيل.

---

(١) جبرين: لغة في جبريل.

وقال ابن زيدون:

ويـا نـسيم الـصبا بلـغ تحيتنـا ... مـن لـو عـلى البعـد حيـا كـان يحيينـا

عارضه شوقي فقال:

ويـا معطـرة الـوادي سرت سـحرا ... فطـاب كـل طـروح مـن مراميـنـا

ذكيـة الـذيل لـو خلنـا غلالتهـا ... قمـيص يوسـف لم نحـسب مغالينـا

جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا ... بـالورد كتبـا وبالريـا عناوينـا

فلـو جزينـاك بـالأرواح غاليـة ... عـن طيـب مسراك لم تـنهض جوازينـا

هـل مـن ذيولـك مـسكى نحملـه ... غرائـب الـشوق وشـيا مـن أمالينـا

إلى الـذين وجـدنا ود غيرهـم ... دنيـا وودهـم الـصافي هـو الـدينا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال: (يا نسيم الصبا) وهو تعبير ورد في مئات القصائد، أما شوقي فراح يفتن افتنانا يدل على قوة الشاعرية وبراعة الخيال فوصف النسمة بأنها معطرة الوادي، وأنها سارت في السحر فطاب بمسراها كل مرمى سحيق، وأنها ذكية الذيل كأنها قميص يوسف. وأنها جشمت شوك السرى حتى أتت بالورد مجسما في رسائل وأتت بالريا ممثلة في عناوين وشكر لها النعمى فقال:

فلـو جزينـاك بـالأرواح غاليـة ... عـن طيـب مسراك لم تـنهض جوازينـا

وأن ابن زيدون يقول (بلغ تحيتنا) وهي عبارة جافية لأنها وردت في صورة الأمر، أما شوقي فيترفق ويقول:

هـل مـن ذيولـك مـسكى نحملـه ... غرائـب الـشوق وشـيا مـن أمالينـا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية، وشوقي يحمل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا، أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو في صفاء الدين.

ولا تنكر أن بعض أخيلة شوقي مقتبس من ابن زيدون فقول شوقي:

يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا

اختلس برفق وحذق من قول ابن زيدون:

ينتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

والمعنى الذي عرضه ابن زيدون في ثلاثة أبيات بسطه شوقي في ثمانية عشر بيتا وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون فكان لا بد له من توشية بارعة تعفي على النظرة الفطرية في أبيات ابن زيدون، ولابن زيدون فضل السبق ولشوقي فضل البراعة في تلوين الصورة الشعرية وهو فضل ليس بالقليل.

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأنس فقال:

حالت لفقدكمو أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا لياليا

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا

وإذ هصرنا فنون الوصل دانية ... قطوفه فجنينا منه ما شينا

ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

وهذا شعر صافي الديباجة رائع المعاني ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فجمع بين الأسى والفخر حين قال:

سقيا لعهد كأكناف الربا رفة [١] ... أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غيناء زاهية ... ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية ... والسعد حاشية والدهر ما شينا
والشمس تختال في العقيان تحسبها ... بلقيس ترفل في وشي اليمانينا
والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت ... لو كان فيها وفاء للمصافينا
والسعد لو دام والدنيا لو اطردت ... والسيل لو عف والمقدار لو دينا
ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا ... ماء لمسنا به الأكسير أو طينا
أعداه من يمنه (التابوت) ... على جوانبه الأنوار من سينا
له مبالغ ما في الخلق من كرم ... عهد الكرام وميثاق الوفيينا
لم يجر للدهر أعذار ولا عرس ... إلا بأيامنا أو في لياليناً [٢]
ولا حوى السعد أطغى في أعنته ... منا جيادا ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهريا ... ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق.. ... إذا تلون كالحرباء شانينا

والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أيهما أجود لأن ابن زيدون على قصر نفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال:

وإذ هصرنا فنون الأنس دانية ... قطوفه فجنينا منه ما شينا

---

(١) رفة: النضرة.

(٢) الاعذار: طعام يتخذ لأيام السرور.

وبلغ غاية الدقة حين قال:

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا

والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل فالعيش لم تتسع جوانبه إلا بفضل التألف، تألف القلبين واللهو لم يصف مورده إلا بفضل التصافي تصافي الحبيبين والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء وإنما تصفو حين تصفو النفوس وتقسو حين تقسو القلوب فالزهر، الذي يبسم لك لا يبسم لك وحدك وإنما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صفت لك، وقد يراه غيرك في ابتسامه صورة من صور العبوس والنهر الذي تنظر إليه في الليالي المقمرة فتراه عاشقا يغازل القمر ويتلقى دعابته في حنان، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك إلا لأنك تشاهد أمواجه الفضية بقلب مرح وحس طروب وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب.

ويروقنا قول شوقي:

سقيا لعهد كأكناف الربا رفة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غيناء زاهية ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية والسعد حاشية والدهر ما شينا
والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت لو كان فيها وفاء للمصافينا

يروقنا هذا الشعر لأن الشاعر جعل عهده في نضرة الزهر الذي يتفتح في أكناف الربوات، ولأنه رأى اللين في أيام الأنس شبيها باللين في أعطاف الصبا، وأعطاف الصبا جوهر نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعر أمكنته من أعطاف الصبا سورة الصبوات. ويروقنا أيضا لطرافة هذا الخيال:

(ترف أوقاتنا فيها رياحينا)

ورفيف الأوقات معنى يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أرجوحة اللهو الجموح. ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك:

(لو كان فيها وفاء للمصافينا)

ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كل شيء حين قال:

يـا روضـة طالمـا أجنـت لواحظنـا ... وردا جـلاه الـصبا غـضا ونـسرينا
ويـــا حيـــاة تملينـــا بزهرتهـــا ... منـــى ضروبـــا ولـــذات أفانينـــا
ويـا نعـيما خطرنـا مـن نـضارته ... في وشي نعمـى سـحبنا ذيلـه حينـا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون؟ أترون العذوبة في الهتاف بالروضة التي (طالما أجنت لواحظنا وردا جلاه الصبا) تأملوا عبارة (أجنت لواحظنا) انظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة وإنما تهجم الروضة عليه فعلمه كيف يهصر الأفنان وكيف يجني القطوف وعبارة (جلاه الصبا) ما رأيكم فيما تحويه من سحر أخاذ؟؟

ثم ما هذا التعبير الطريف:

(منى ضروبا ولذات أفانينا)

أتعرفون كيف يكون للمنى ألوان وللذات أفانين؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرة في كوثر الوصال.

وانظروا هذا البيت:

ويا نعيما خطرنا من نضارته ... في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا

أتحسون قوة هذا المعنى؟ ألا يريكم الخيال صورة فنان منعم يسحب ذيل النعيم؟ إن ابن زيدون في هذه الأبيات أقوى من شوقي في التحسر على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود.

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين أما ابن زيدون فيقول:

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والدهر قد غض من أجفان واشينا
سران في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
لا غرو أنا ذكرنا الحب حين نهت ... عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله ... شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه ... سالين عنه ولن نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كثب ... لكن عدتنا على كرة عوادينا

والشاعر في هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف، ويرى نفسه انتقل من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسلين، ويرى ورد الهوى القديم شربا لا يعدله شرب، وإن كان يرويه فيظميه ونعيم الوصل يرهف الحس فيزيد القلب ظمأ والتياعا إلى التياع، وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا صدود وإنما أكرهته العوادي.

ويروقنا هذا التعبير المونق:

(لم تجف أفق جمال أنت كوكبه)

فكأن الدنيا كانت لعهده من المفاتن.. وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق المطلول بأنداء الفتون.

هذا جزع من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون وعارضه شوقي فقال يصف قسوة الليل وقسوة الفراق:

ونـــايغي كـــأن الحـــشر آخـــره ... تمينتـــا فيـــه ذكـــراكم وتحيينـــا
نطـوي دجـاه بجـرح مـن فراقكمـو ... يكـاد في غلـس الأسـحار يطوينـا
إذا رسـا الـنجم لم ترقـأ محاجرنـا ... حتـى يـزول ولم تهـدأ تراقينـا
بتنـا نقـاسي الـدواهي مـن كواكبـه ... حتـى قعـدنا بهـا حسـرى تقاسـينا
يبـدو النهـار فيخفيـه تجلـدنا ... للـــشامتين ويأســـوه تأســـينا

وهذا من الشعر الرفيع ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف وإلا فكيف نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت:

نطـوي دجـاه بجـرح مـن فراقكمـو ... يكـاد في غلـس الأسـحار يطوينـا

أترون كيف يطوي الدجى بالجرح؟ أترون كيف تكون الجراح أعظم من ظلمات الليل؟؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسي الشاعر بطء الكواكب، ثم ينظر فيراها ابتليت به فباتت تقاسيه وهي حسرى لواغب؟ والشاعر قد يعظم سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساه.

وكان الشعراء الأقدمون يرون النهار يبدد الأشجان بفضل ما فيه من الشواغل أما شوقي فيرى أشجانه لا تهدأ نهارا إلا بفضل التأسي والتجلد للشامتين.

بقي النظر فيما تفرد به الشاعران.

ونحن نرى أن ابن زيدون تفرد بهذين البيتين في خطاب حبيبته التي أقصاه عنها الزمان:

نأسى عليك إذا حثت مشعشعة ... فينا الشمول وغنانا مغنينا

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

وهذا من أدق المعاني النفسية فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافية ويبعثان الوجد الدفين، وللشوق في أمثال هذه اللحظات لذعات أعنف من الجمر المشبوب، وأين الجمر بجانب ما يثور في القلب عند الشراب والسماع؟؟ إن هذه لحظات تكشف المقنع من سرائر النفوس وتصنع ما تصنع الحمى العاتية حين تنطق المحموم بأسماء لم يهذ بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين.

وقول ابن زيدون:

ولـو صبا نحونـا مـن علـو مطلعـه بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

هو صل المعنى الذي ساقه شوقي في السينية:

وطنـي لـو شـغلت بالخلـد عنـه نـازعتني إليـه في الخلـد نفـسي

وهو أخذ رفيق لا يحاسب على مثله الشعراء.

وتفرد شوقي بالفخر بنفسه وبأمجاد النيل فقال:

لم يجـر للـدهر أعـذار ولا عـرس إلا بأيامنـا أو في لياليـنـا

ولا حـوى الـسعد أطغـى في أعنتـه منـا جيـادا ولا أرخـى ميادينـا

نحـن اليواقيـت خـاض النـار جوهرنـا ولم يهـن بيـد التـشتيت غالينـا

ولا يحـول لنـا صـبغ ولا خلـق إذا تلـون كالحربـاء شـانينا

لم تنـزل الـشمس ميـدانا ولا صـعدت في ملكهـا الـضخم عرشـا مثـل وادينـا

ألم تؤلـه عـلى حافاتـه ورأت عليـه أبناءهـا الغـر الميامينـا

إن غازلـت شـاطئيه في الـضحى لبـسا خمائـل الـسندس الموشـية الغينـا [1]

وبـات كـل مجـاج الـواد مـن شـجر لـوافظ القـز بالخيطـان ترمينـا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف.

(١) الغين: جمع أغين، وهو الأخضر، والمؤنث غيناء.

وشوقي لم يعن إلا نفسه حين قال:

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ... ولم يهن بيد التشتيت غالينا

وقد صدق.. فقد قامت في وجه الرجل أحداث تهد الجبال وانتاشه الخصوم أسوأ انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته يصعب هدمه وإن تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد الهادمين.

وتفرد شوقي بالحديث عن الأهرام فقال:

وهذه الأرض من سهل ومن جبل ... قبل القياصير دناها فراعينا
ولم يضع حجرا بان على حجر ... في الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت ... بسه يد الدهر لا بنيان بانينا
إيوانه الفخم من عليا مقاصره ... يفنى الملوك ولا يبقى الأواوينا [1]
كأنها ورمالا حولها التطمت ... سفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحى ذهبا ... كنوز فرعون غطين الموازينا

وللقارئ أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت:

ولم يضع حجرا بان على حجر ... في الأرض إلا على آثار بانينا

وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت:

كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يد الدهر لا بنيان بانينا

وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت:

---

(١) الأواوين: جمع إيوان.

كأنهـا ورمـالا حولهـا التطمـت سـفينة غرقـت إلا أسـاطينا

وذلك شوقي وتلك آياته البينات.

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنساني وتفرد شوقي بوصف الجمال الطبيعي، أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هي تحفة في الصور الإنسانية وأعطى شوقي مفاتن النيل صورة هي غرة في الصور الطبيعية أما صور النيل فقد رآها القارئ من قبل.. وأما محبوبة ابن زيدون فقد صورها بهذه الأبيات:

ربيـب ملـك كـأن الله أنـشأه مسكا وقدر إنشاء الورى طينا
أو صاغه ورقا محضا وتوجه من ناصع التبر إبداعا وتحسينا
إذا تأود آدته رفاهية تـوم العقـود وآدتـه السرى لينا
كانت له الشمس ظئرا في أكلته بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كأنما أثبتت في صحن وجنته زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا وفي المودة كاف من تكافينا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصباحة، وفي الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون في علم الجمال، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم.. والزهر النضير الذي يضاحك الشمس في حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنسي الذي يتفتح وهو مهجور في ربوة قاصية لا يعرفها غير الذئاب. إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف ولكل لون من ألوان الجمال المحجب شبيها بما يوحيه الجمال المباح. إن الطبيعة قد يبدو لها أحيانا أن تكايد الناس فتنشئ من الحسن من حي بولاق ما تغيظ به الناعمين في حي القصر العالي، ولكنها لا تفلح، فالجمال الذي ينبت في البيئات السوقية يظل شوقي

المتمائل والنوازع أما الجمال الذي يتفتح في البيئات المنعمة فيظل ملحوظ المشارب والميول.

فمعشوقة ابن زيدون ربيبة ملك وربيبة الملك تألف السيطرة منذ أيام المهد ويظل دلالها طول الحياة دلالا سماويا يأخذ فيضه من قوة الطبع لا من لؤم التمنع، وينزل رضاها على القلب نزول الطل على الريحان وابن زيدون يتمثل محبوبته خلقت من المسك. ويرى الناس ما عداها خلقوا من طين، وكلمة (طين) وقعت قبيحة في شعر ابن زيدون إلا أن يكون أراد الإشارة إلى بعض الناس، والمرء حين يغضب يرى الناس خلقوا من طين.. وإن كان الطين أشرف من بعض من نرى من المخلوقات. والطين تربة يحيا بها الزهر ويتغذى بها الشوك وفوقه تتخطر الظباء، وعليه تزحف الأفاعي والصلال.

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال:

إذا تـــأود آدتـــه رفاهيـــة تـوم العقـود وأدمتـه الـبرى لينـا

والجمال الذي تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال غض رقيق يشبه في رقته نواطر العيون ولفائف القلوب وهذا الجمال منثور في المدائن نثر الزهر واللؤلؤ، ولولا وجوده في هذه الدنيا لما عرف الشاعر قيمة النعمة العظيمة نعمة البصر والحسن والذوق، لولا الجمال المنعم المصون -الذي لا يطمع في تفيؤ ظلاله غبي ولا لئيم- لأقفرت الدنيا من الشعر وخلت من الأنفاس العطرة وأنفاس الشعراء.. لولا الجمال المنعم المصون الذي لا يطمع في تفيؤ ظلاله غبي ولا لئيم لما استطاب شاعر سهر الليل وألم الجفون وهل يعنى القلب في سبيل الجمال المبتذل.. الذي ترنو إليه جميع العيون؟ إن الجمال

المبتذل شبيه بالكوكب المتهالك الذي لا تألم من النظر إليه عين رمداء أما الجمال المصون فشبيه بالشمس لا يقوى على النظر إليه إلا الفحول من الشعراء والأقطاب من الكتاب، هو الجمال الفرد ولا يصاوله إلا الرجل الفرد، وإن كان يتواضع فيقول:

ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا ... وفي المودة كاف من تكافينا

هذا تواضع فإن جوهر الحب في قلب الشاعر أنفس من جوهر الحسن في وجه الجميل وهل تعربد معاني الصباحة في الوجه المليح كما تعربد عرائس الشعر في قلب الشاعر الذي يلقى الأنوار والظلمات وحوله جيش من الهوى المتمرد والوجد المشبوب؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحد جمال الصبح المشرق ولا تنبه مخلوق إلى لمح الكواكب ولألاء النجوم. ولا تلفت باحث إلى شعر ابن زيدون وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون.

ثم ماذا؟ بقي أن نشرب صبابة الكأس من نونية شوقي، وكل صبابة في الكأس صاب، بقي أن نتوجع لبلواه وهو يتشوق إلى مصر فيقول:

أرض الأبوة والميلاد طيبها ... مر الصبا في ذيول من تصابينا
كانت محجلة فيها مواقفنا ... غرا مسلسلة المجرى قوافينا
فآب من كرة الأيام لاعبنا ... وثاب من سنة الأحلام لاهينا
ولم تدع لليالي صافيا فدعت ... (بأن نغص فقال الدهر آمينا)
لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغى والبحر غسلينا
سعيا إلى مصر نقضي حق ذاكرنا ... فيها إذا نسي الوافي وياكينا

أرأيتم هذا الشعر؟ أرأيتم الخيال في هذا البيت:

فآب من كرة الأيام لاعبنا وثاب من سنة الأحلام لاهينا

أرأيتم صورة الهول المقتحم في هذا البيت:

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة والبر نار وغى والبحر غسلينا

ثم ماذا؟ بقي ختام القصيدة وهي أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمي يرحمها الله.

وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه في حلوان:

كنز بحلوان عند الله نطلبه خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأته الشوق إلا من نواحينا
إذا حملنا لمصر أو له شجنا لم ندر أي هوى الأمين شاجينا

طيب الله ثراك أيها الشاعر.. ورحم والدي ووالديك فالدعاء في أعقاب شعرك كالدعاء في أعقاب الصلوات.

الموازنة بين عبقرية وعبقرية

نعيش الآن مع صفحات منقولة من كتاب (الموازنة بين الشعراء) لأنها من ناحية تتحدث عن ماهية الناقد ومن ناحية ثانية هي نقد لشعر شوقي كما يراه بعض النقاد وكما يراه زكي مبارك..

يقول زكي مبارك [١]:

(إن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية.. ويفاضل بين بصيرة وبصيرة ويقارن بين إدراك وإدراك، بغض النظر عن الفروق الموضعية التي يقضي بها اختلاف الأقاليم، والفوارق الزمنية التي يوجبها اختلاف العصور وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة، ولكنها ضرورية: يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته، وأن يفنى في شخصية الشاعر الذي يدرسه بحيث يبصر بعينه، ويسمع بأذنه، ويفقه بقلبه، ليسبر كما قلت أغوار نفسه، وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء).

ثم يقول زكي مبارك [٢]:

على الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر، وأن يعنى فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر في أذواق الشعراء.

---

(١)الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٢٤.

(٢)نفس المرجع صفحة ٢٠.

فقد أنكروا على شوقي قوله:

ارفعي الستر وحيي بالجبين ... وأرينا فلق الصبح المبين
وقفي الهودج فينا ساعة ... نقتبس من نور أم المحسنين
واتركي فضل زماميه لنا ... نتناوب نحن والروح الأمين

مع أن أم المحسنين إنما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض، ولكن هكذا بقي الهودج في ذهن شوقي، لإمعانه في دراسة الشعر القديم.

وأنكروا عليه قوله في سيارة الدكتور محجوب:

لكم في الخط سيارة ... حديث الجار والجاره

واستخفوا كلمة (حديث الجار والجاره) وفاتهم أن الدكتور محجوب يسكن في حي قد لا يعرف أهله غير الخيل والبغال والحمير.

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم:

أمشي يرنحني الأسى ... والبؤس ترنيح الشراب

لأن اليتيم البائس لا يعرف كيف يترنح السكران، ولكن حافظ يرى هذه المناظر في الصباح والمساء.

واستضعفوا قول مطران في رثاء إسماعيل صبري:

شهب تبين فما تثوب ... فكأنها حبب يذوب
أرأيت في كأس الطلا ... دررا وقد صعدت تصوب
هو ذاك في لج الدجى ... طفو الدراري والرسوب

لا فـــرق بـــين كبيرهـــا وصـــغيرها فـــيما ينـــوب

لأن مقام الرثاء يجل عن ذكر الحبب والكأس، وليس لك أن تشبه الشهاب حين يغيب بالحبب حين يذوب ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسه الممراح.

وكذلك نقول في توجيه كلمة شوقي في رثاء محمد تيمور:

ضربـوا القبـاب عـلى الـشباب وثـــووا إلى يـــوم الحـــساب
همـــدوا وكـــل محـــرك يومـــا سيـــسكن في الـــتراب
نزلـــوا عـــلى ذئـــب الـــبلى فتـــضيفوا شر الـــذئاب
وكـــأنهم صرعـــى كـــرى بالقـــاع أو صرعـــى شراب
فـــإذا صـــحوا و تنبهـــوا فـــالله أعلـــم بالمـــآب

فإن تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال، وإنما يشير بطرف خفي إلى ما لحياته من شتى الألوان ، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة ثانية:

مـا أنـت يـا دنيـا أرؤيـا نـائم؟ أم ليـل عـرس؟ أم بـساط سـلاف
نعـــماؤك الريحـــان إلا أنـــه مـــست حواشـــيه نقيـــع زعـــاف

وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه: لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز؟ فقال: أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله، فأنشده قوله في الهلال:

انظـر إليـه كـزورق مـن فـضة قـد أثقلتـه حمولـة مـن عنـبر

فقال له: زدني، فأنشده:

كـــــأن آزريونهـــــا غـــب ســـماء هاميـــه
مـــداهن مـــن ذهـــب فيهـــا بقايـــا غاليـــه

فصاح: واغوثاه. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولي من الناس، فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا من الجود كنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولي في صانع الرقاق:

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح المبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقى فيه بالحجر

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومي لأنه استطاع تشبيه الأرريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية، وليس لك أن تقدم ابن الرومي على ابن المعتز لأنه أجاد وصف الخباز، وهو يدحو الرقاق، فإن السبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التي أتيحت لكل من الشاعرين ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق، وإنما يجب عليك أن تعتمد إلى الشاعر وتسبر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء، فقد يكون ابن الرومي في وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز في وصف الهلال.

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف البدوية لأن الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة، فقد يكون البدوي في بدوته أشعر من الحضري في حضارته، كما قال أستاذنا المهدي، ومعنى ذلك أن البدوي قد يكون شعوره بالريح المسموم في مجاهل البيداء أقوى من شعور الحضري بالنسيم العليل في الروضة الغناء.

فليس قول خزيمة بن نهد في ريق محبوبته:

فتـــاة كـــأن رضـــاب البعـــير بفيهـــا يعـــل بـــه الزنجبيـــل

بأقل من قول الشريف الرضي:

يبسمن عـن بـرد الغـمام ويـرده ريـان يغبـق بالمـدام ويـصبح

ولا يفضلها من قال: (كأني ألتقط من فيها حب الرمان) لأن الأمر في ذلك يرجع إلى قوة إدراك الشاعر، بغض النظر عن تفاوت الأوصاف، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تعطر به الأفواه في البادية كما تكون الخمر، أو حب الرمان، أحلى ما تعطر به الثنايا في الحاضرة ولكل شعب وجهة في تناول الأشياء.

ألم تر إلى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه:

أنـت كالكلـب في حفاظـك للـود وكـالتيس في قـراع الخطـوب

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر، وإن كان جافي اللفظ بادي الخيال، لأنه أعجب بما له من قوة الشاعرية، وهي روح البيان، ثم أسكنه قصرا من قصور بغداد، واستدعاه بعد ذلك، وقد صقلته الحضارة فأنشده تلك الرائية البديعة التي يقول في أولها:

عيـون المهـا بـين الرصـافة والجـسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعـدن لي الـشوق القـديم ولم أكـن ... سـلوت ولكـن زدن جـرا عـلى جمـر

سـلمن وأسـلمن القلـوب كـأنما ... تـشك بـأطراف المثقفـة الـسمر [1]

خلـيلي مـا أحـلى الهـوى وأمـره ... وأعرفنـي بـالحلو منـه وبـالمر

بـما بيننـا مـن حرمـة هـل علمـتما ... أرق مـن الـشكوى وأقـسى مـن الهجـر

(١) المثقفة السمر: هي الرماح.

أحمد شوقي وزكي مبارك

كانت الأيام قد جمعت بين أحمد شوقي وزكي مبارك فتوثقت بينهما الصلة ثم عادت الأيام وفرقت بينهما، ولم يعد زكي مبارك يزور أحمد شوقي ولم يعد أحمد شوقي يسأل عن زكي مبارك.

ولم يكتف أحمد شوقي بعدم السؤال عن زكي مبارك! ولكن كيف؟

في سنة ١٩٢٧ يرى إصدار عدد خاص من السياسة الأسبوعية (لتكريم أحمد شوقي) ويدعى للاشتراك في تحرير هذا العدد الخاص رجال كان فيهم زكي مبارك، ويرى شوقي أن من حقه أن ينظر في محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان من بينها مقال زكي مبارك.

وتدور الأيام وينتقل أحمد شوقي إلى عالم الخلود فماذا نرى؟

نرى زكي مبارك يكتب ويكتب عن أحمد شوقي.

صحيح أن زكي مبارك قال: إن شوقي الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقي الذي يعرفه الناس كإنسان اجتماعي يخطئ ويصيب بين الحق والواجب.

ولكن زكي مبارك قال أيضا: لم أسئ يوما إلى شوقي الشاعر، والحمد لله وإن كنت بعت حظي في شوقي الصديق.

ويقول زكي مبارك: شوقي شاعر مصر، وهو على جحوده أستاذ الأساتذة في ميدان القصيد.

ثم انظر كيف يتحدث زكي مبارك إلى شوقي فيقول له: طيب الله ثراك أيها الشاعر، ورحم والدي ووالديك، فالدعاء في أعقاب شعرك كالدعاء في أعقاب الصلوات.. والآن مع بعض مقالات للأديب الناقد الفنان الدكتور زكي مبارك بعضها نشر في حياة الشاعر أحمد شوقي وبعضها نشر بعد رحيل الشاعر أحمد شوقي إلى عالم الخلود.

مقاصد الشعراء [١]

نريد من مقاصد الشعراء الغايات النبيلة التي يسعون إليها في الحياة، وبعبارة أوضح الصور الجميلة التي تتمثلها أرواحهم كلما هموا بضرب الأمثال للناس، ولست أريد في هذه الكلمة أن أنتزع صورة للشاعرية الحقة من بين ما قرأت من شعر العرب والفرنجة فإن ذلك وإن صح أن يكون هاديا لبعض العقول، فإنه كثير في الكتب المختارة من دواوين ومجاميع، وهو على الجملة في مقدور كثير من أهل العلم والبيان.

لم يعرف العلماء ولا الأدباء -إلا قليلا منهم- معنى الشعر في القرآن أو ما يقصد العرب من وصف النبي بأنه شاعر، أو الصورة التي تمثلوها حينما ظنوا القرآن قصيدة طويلة، وأحسوا أن النبي شاعر مطيل، ويخطئ من يظن أنهم

(١) جريدة المحروسة ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٢٠.

هازئون في وصف النبي بالشاعرية فإن الشعر كان عندهم في منزلة فوق الإعزاز والإجلال ولكنهم أرادوا أن يصفوه بالعبقرية وأن يجعلوا رسالته في وصف الأماني العالية التي لا يتخيلها إلا الشعراء وأن يجعلوا لأنفسهم عذرا في التخلف إذا رأوا في الشريعة تكليفا فوق الوسع، ثم استحبوا العمى على الهدى، فما يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس وأريد أن أقول: إنهم يرون في الشعر شرعة خاصة يلزم باتباعها من سمت نفسه إلى إدراك ما يوحى به إلى الشاعر المجيد، فهم يشيرون على النبي بأن يبحث عن طائفة من الناس تفهم كما يفهم ويكون مرأى الحياة في إدراكها كمرآها في إدراكه ويلذ لها من التكاليف العصبية ما يلذ له أما هم فإنهم بفضل سلامتهم من جنون الشعراء - والنبوغ نوع من الجنون- غير مكلفين باتباع ما يبدع الشعر وأهله من أنظمة الحياة العالية وكذلك يرون التشريع الخاص غير التشريع العام ويرون شريعة النبي دقة تسمو بها إلى الشرائع النظرية، وتبعدها عن الشرائع العملية، وإنهم لفي ضلال مبين.

الشعر في نظر العرب يدعو إلى شريف الخلال، وكريم الخصال، أو يبدع صورا للذائذ الحسية والمعنوية فالحق العالي الصرح والباطل الواهي الأساس والفضيلة العالية والرذيلة السافلة، كل أولئك مما يقع تحت حس الشاعر المبدع فهو فاضل إن دعا إلى الفضيلة، وناقص إن زين الرذيلة، وهو على كل حال معروف بالقدرة على وصف ما يدعو إليه العقل، أو يرنو له القلب، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وأقول ذلك لئلا يحسب واهم أني أجعل الشعراء في درجة الأنبياء ولكن كذلك أرجو أن لا يختلف عني بعض القراء فيما فهمناه معا من أن الشعر إنما يضع الأمثلة العالية، أو يصف الأمثلة العالية، فالشاعر إما واضع قادر أو واصف ماهر والناس مختلفون في اتباعه فمنهم من يتبعه أحسن أم أساء، لأن الحياة عندهم ذات ألوان. والشاعر يصف ألوانها الذميمة والوسيمة وهم يريدون أن يتذوقوا كل مظاهر الحياة ومنهم من يتبعه إن أخطأ ويصدف عنه إن أصاب. وهؤلاء هم المخلدون إلى الحياة الوادعة، والصادفون عن الحياة الخاملة، وهم لا يقرءون كل شعر كالصنف الأول ليقفوا على أنواع المدركات من حق واضح أو باطل فاضح ولكنهم يعكفون على طائفة من الشعر الذي انفصمت عراه، وتفككت أوصاله، ليتم التناسب بين ما تعمل أيديهم وما تقرأ ألسنتهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.

ومن الناس من يتبع الشعر الداعي إلى الحق، ويرى فيه نفحة من نفحات النبوة وعلامة من علائم الرسالة، والشعراء عنده لا يتفاوتون بما يتفاوتون به غيره من الرغبة في الفضيلة أو الميل إلى الرذيلة، ولكنهم يتفاضلون بتقديرهم للفضائل، وتصويرهم للمحامد، فهو يفضل بعض الشعراء على بعض، كما فضل بعض الأنبياء على بعض وهؤلاء الشعراء وتابعوهم من بناة المجد هم الذين عناهم أبو تمام حين قال:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بناة المعالي كيف تؤتى المكارم

ولا يتوهمن قارئ أن اختلاف الشعراء في مذاهبهم الخلقية مما يؤثر عليه في الحكم من الناحية اللغوية فإن أبا نواس في خمرياته أصح من أبي العتاهية في

زهدياته، لكن هناك وجها آخر للمفاضلة: وهو أن للغواية درجات، كما أن للهداية درجات فالمثل العالي للخلاعة إنما يدركه الخلعاء والمثل الأعلى للنبالة إنما يدركه الشعراء النبلاء ولكل شعر موضع، ولكل مقام مقال، فليس للشاعر أن يلبس روح الخليع حينما يريد أن يكون قدوة في المكارم وليس له أن يلبس روح النبيل حينما يرغب أن يكون عمدة في المآثم وإنما يلبس لكل حال لباسها من جد وهزل، فيتعالى في الجد حتى يقال نبي مرسل، أو حكيم موفق، ويتراجع في الهزل، حتى يقال ماجن مازح، أو ذو نشوة خليع.

إذا جـد حـين البـأس أغنـاك جـده وذو باطـل إن شـئت أرضـاك باطلـه

وليس يخفى على القارئ أني هنا إنما أحكم على أنواع الشعر وطوائف الشعراء ولست أدعو إلى مذهب خاص أو طريقة معينة فإن لذلك بحثا غير هذا البحث وأريد أن أسأل القارئ بعد ما سلف من البيان:

هل الشعر في مشروع اتفاق ملنر من الجد أو الهزل؟ وهل الشعراء فيه من الخلفاء أو الحكماء؟

وفي المقال الثاني وهو تتمة للمقال الأول يقول الأديب الناقد زكي مبارك[1] عن قصيدة شوقي في مشروع ملنر:

قرأنا للشاعر المجيد أحمد بك شوقي قصيدة في هذه الاتفاقية. كان نصفها الأول النسيب، وهو يتطلب الإسراف في الخلاعة، فلذلك راقنا منه أن يذكر أن قلبه لم يقلع عن الغواية وهو أشيب، وأن سرب الغواني لعب بلبه فأضله عن

(١) جريدة المحروسة ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠.

سواء السبيل، راقنا ذلك كله: لأنا نستملح كل ما يأتي عن طريق القلب ولأن النسيب من الأشيب عنوان ظرفه ولأن هذا المثل مما يتأسى به المسرفون في الصبابة وهم أحداث، ولا ننكر أن هذا مقبول ولو إنصافا للفن وإذ كنا نود لو وصف شوقي نفسه بما وصف به ابن الصمة أخاه إذ قال:

صبا ما صبا حتى علا الشيب فلما علاه قال للباطل ابعد

وكان النصف الثاني بيانا لرأيه في مشروع الاتفاق ولا يستطيع من قرظ قصيدة شوقي تلك بكلمة موجزة أن يدعي أن الحكم على هذا المشروع مما يدخل في طائفة الحكم على عتق الخمر وصفاء الكأس وحلاوة العين، وجمال الأنفس ورشاقة القد، إلى غير ذلك من الأوصاف الظاهرة لمحاسن النساء أو الأشجار أو الأنهار أو الجبال وإنما هو حكم على آمال أمة تختلف أطماعها السياسية باختلاف عقول أبنائها البررة من علماء وحكماء وشعراء وباختلاف الآمال ضعفا وقوة يوصف الرجل بأنه قوي أو ضعيف. ولئن كان الشاعر حرا في اختيار النوع الذي يحبه من الحياة فإنه غير حر أو غير مقتدى به في الدعوة إلى نوع من الحياة لا يتلاءم مع الشعب الذي ولد فيه والوطن الذي درج منه، وهو عرضة لأن يوصف بضعف العزيمة وخمود النفس وركود الطبع، وأهل لأن ينكر عليه ماضيه الأعز، وسابقه المخجل، وأقل ما يجد الناقد فيه من العيوب، أن شعره ليس شريعة عامة للشعب.

وأنه بدلا من أن يتعالى إلى أبكار الأماني فهو ينسفل إلى ثنيات النوازع، فهو يدعو الناهضين إلى السقوط ولا يحض الساقطين على النهوض، وهل أوجب للعتب من أن يختص شوقي بك بتلك القصيدة التي لا تسوغ إلا لدى النفوس

الضعيفة ولا يبسم لها إلا من يئس من روح الله؟ إنه لا يصح لمثلي أن يلفت نظر شوقي إلى آمال المتنبي فهو أعلم بفضله وأعرف، ولكن ألا يصح أن نرسل دمعة واحدة في توديع الآداب العربية؟

لقد بلغ ضعف النفوس مبلغا لا يستهان به حتى لقد كتب (شاعر) يعرفني وأعرفه قطعة في مدح المشروع ولم يجرؤ على التصريح باسمه ولكني عرفته بسيما شعره وسأعاتبه بعد حين فأين هذا المحتجب من الذي قال:

الخيـــل والليـــل والبيـــداء تعرفنـــي والـــسيف والـــرمح والقرطـــاس

إنكم لا تجهلون فضل المثال الأكمل في رءوس الوطنيين كما لم يجهل العرب فضل المثل الأعلى في الشعر الذي حسبوا القرآن نوعا منه فهل يهديكم الله من بعد كما هداهم من قبل؟

شوقي [١]
كلمة صدق في توديع أمير الشعراء

كان في مصر رجلان يقال لهما حافظ وشوقي، وكان لذينك الرجلين ولوع بالحديث عن الموت، وكان حافظ ينعى نفسه في كل مناسبة ويرحب بالراحة الأبدية، أما شوقي فكان يقف دائما وقفة المتطلع، ويتمنى لو حدثه الأموات عما بعد الموت، حتى كاد حديثه عما بعد الموت يعد من إحدى لوازمه في قصائد الرثاء.

وكان القدماء يرون أن الدنيا لو سئلت وصف نفسها لما عدت قول أبي نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

ونحن نرى أن الحياة لو سئلت وصف نفسها لما عدت قول شوقي:

كم في الحياة من الصحراء من شبه ... كلتاهما في مفاجأة الفتى شرع
وراء كل سبيل فيهما قدر ... لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع
فلست تدري وإن كنت الحريص ... تهب ريحاهما أو يطلع السبع
ولست تأمن عند الصحو فاجئة ... من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدري وإن قدرت مجتهدا ... متى تحط رحالا أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى ... أن الدليل ولو أرداك متبع

---

(١) البلاغ ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٢.

أو قوله:

لبنـان ردتنـي إليـك مـن النـوى ... أقـدار سـير للحيـاة دراك
جمعـت فـزيلي ظهرهـا مـن فرقـة ... كـرة وراء صـوالج الأفـلاك
نمـشي عليهـا فـوق كـل فجـاءة ... كـالطير فـوق مكـامن الأشراك

والذي يقرأ ما سطره الكتاب في رثاء شوقي يراهم جميعا وقفوا يتحدثون عن الموت وعما بعد الموت، كأن ذلك الرجل الذي طال وقوفه بباب الأقدار ألهمهم ما يقولون في التطلع إلى ما سيكون بعد الموت.. أكان شوقي أول ميت حتى يثير كل هذه الشجون؟

لا لم يكن شوقي أول ميت، ولكن موت الشاعر فجيعة تبعث على التفكير في حقائق الموت والحياة، وخاصة شوقي، فإنا لا نعرف إنسانا في مصر طابت له الحياة كما طابت لشوقي، ولا نعرف شاعرا تغنى بأطايب الحياة كما تغنى شوقي، فكان من الحق أن نسأل: وشوقي أيضا يموت؟

وبعد فمن شوقي؟ وما شعره؟

كان شوقي عاديا في حديثه، وفي مظهره، ولكنه كان في شعره أعجوبة الأعاجيب وكان دليلا على أن العرب كانوا معذورين حين ظنوا الشعر من وحي الشيطان فما أذكر أن حديث شوقي راعني مرة، أو دلني على أن للرجل عقلا يمتاز على سائر العقول، وكان مظهره بسيطا جدا لأنه كان يبغض اللباس الأنيق، وإنهم ليذكرون أنه كان يضيق صدرا بالملابس الرسمية، وأنه طلب من

الخديو السابق أن يعفيه من لبس الردنجوت في عابدين، وأن الخديو أعفاه وأن شكله كان يضحك حين يتكلف ملابس الاستقبال عند تقديم بعض السفراء.

ولكن هل العبقرية لباس مهندم ولسان معسول؟

هيهات.. لقد استطاع ذلك الرجل الصامت الخشن الملابس أن يكون أشعر الناس في زمانه، لأن العبقرية سر مكنون، وقد أفصح هو عن ذلك أبرع إفصاح حين قال:

رب سامي البيان نبه شأني ... أنا أسمو إلى نباهة شانه
كان بالسبق والميادين أولى ... لو جرى الحظ في سواء عنانه
ما الرحيق الذي تذوقون من كر ... مي وإن عشت طائفاً بدنانه
وهبوني الحمام لذة سجع ... أين فضل الحمام في تحنانه
وتر في اللهاة ما للمغنى ... من يد في صفائه وليانه

ومن ذلك الوتر الرنان الذي وهبه شوقي كانت الدرع الحصينة التي يدفع بها سموم الحاقدين، فقد قامت في وجه الرجل أعاصير جائحة من النقد المسموم، فثبت لها ثبات الجبال الرواسخ، وظل هو في جميع الأحوال لا يخبو زنده، ولا ينكسر جناحه، ولا يقع طائره، مع أن حاسديه لم يتورعوا -وهم ينهشون لحمه- من رميه بما يهد عزائم الرجال. وكان يتخذ من أحقاد خصومه مادة لشعره قد تكون من أجمل ما تغذى به خياله الوثاب، والقراء يذكرون أن ناسا عابوا عليه سكوته عند نعي حافظ وذهبوا يتقولون عليه الأقاويل، فدمغهم بقوله في رثاء حافظ:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة ... قدر وكل منية بقضاء
ووددت لو أني فداك من الردى ... والكاذبون المرجفون فدائي
الناطقون عن الضغينة والهوى ... والموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدام ويبني مجده ... بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطموك وإنما بك حطموا ... من ذا يحطم رفرف الجوزاء
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ ... في الشرق واسمك أرفع الأسماء

وهو يعني نفسه بالبيتين الأخيرين، وإن توهم القارئ أنه يعني حافظ إبراهيم.

كان شوقي مفطورا على الشعر، وكانت الحياة في عينيه شعرية الملامح، وكان يستبيح من متع العيش كل ما حوت فراديس الشعراء وكانت حياته في بيته وبين أهله مطبوعة بطابع شعري أخاذ، وكان هيامه بقطع المسافات الطوال على قدميه أيام قوته دليلا على أن الرجل يقظ المشاعر، وأنه مفتون بدرس مظاهر الوجود، وكان الشعر يسود كل ما في حياته من نظام واضطراب. وقد تصادقنا حينا وألفنا التلاقي في كل يوم حقبة من الزمان، فكنت ألاحظ أن للرجل نواحي هو فيها أضبط من الساعة -كما نعبر في لغة الحديث- ونواحي يهمل في ضبطها وتحديدها أغرب الإهمال، وهو في نظامه واضطرابه شاعر يعرف كيف يتذوق مفاتن العقل والجنون.

وكان شوقي مفتونا بأبنائه إلى حد العشق، وخاصة بابنته أمينة وابنه حسين، وله في أبنائه شعر رائع يدل على أن الرجل كان شاعر العقل والذوق والروح، وكان يتعلق بأصهاره تعلقا شديدا يذكر بعيش الفطرة في خيام

الأعراب، وكانت منافع الدنيا تتمثل له فاتنة جذابة، لأن الرجل في شعره وفي صميم قلبه وروحه ونظامه السياسي والاجتماعي كان رجل دنيا، وكان لا يفهم كيف يكون الزهد وكيف يكون الإعراض عن أطايب العيش، والذين لاموا شوقي على التشبث بأهداب الجاه العريض لم ينظروا إلى الدنيا بعينيه القلقتين ولم يعرفوا كيف تكون السيطرة وكيف يكون الاستبداد بمتع العيش على شواطئ النيل. والحياة في مصر -وفي الدنيا كلها- لا تتم أسبابها بغير الجاه والمال، وكان الرجل يفهم ذلك فهم الشاعر، وليتصور القارئ كيف يكون فهم الشاعر، وخاصة عند أمثال شوقي ممن تلقوا الدنيا بحس مرهف وذوق مصقول.

كانت لشوقي دنيا قبل الحرب فأخرجته منها أفاعي الحوادث كما عبثت الحية فأخرجت آدم من الجنة، وقد ظلت ذكريات ذلك الفردوس المفقود تعتاده في اليقظة والمنام، وذلك هو سر تحفظه وحيطته في كل ما يمس دقائق السياسة العالية، فإن قال ناس: إنه لم يهب الجماهير صفو شعره فليتذكروا أن ذلك لم يكن ليقع لو أن الرجل فطر ذوقه فطرة شعبية، وكيف كان يزهى ويفتن كلما تذكر أنه ولد في رحاب المجد والجاه.

كان شوقي مفتونا بشعره، كل الفتون، وكان لا يصدق أن في الدنيا شاعرا غيره.. وكان يعادي ويصادق على هذا الأساس، وقد اتفق أن توثقت بيننا أواصر الصداقة بعد عودته من المنفى، وظلت صداقتنا على خير حال نحو ثلاثة أعوام، فلما كان صيف سنة ١٩٢٥ طلب مني أن أكتب مقدمة للشوقيات فقبلت، ثم عدت فتذكرت أن الذوق يفرض أن تكتب المقدمة بشيء من

المجاملة، وأن هذا قد يضرني إذا اضطررت لنقد شعره في مستقبل الأيام، فكتبت إليه خطابا أعتذر عن كتابة مقدمة للشوقيات وكان في الخطاب تعليل لذلك الاعتذار يتلخص في مصارحته بأنه عرضة للخطأ والصواب وأنني أحب أن أحتفظ بحريتي في نقده إذا اقتضى الحال، وكنت أنتظر أن يتقبل الرجل عذري، ولكنه أسر الغضب وأضمر الجفاء وطوى ما كان بيننا من وداد منذ ذلك الحين [1].

كان شوقي من كبار أهل العلم بأسرار اللغة العربية، وقد دانت له تعابيرها وأخيلتها وألفاظها بحيث كانت قصائده تحمل من صنوف الثروة اللغوية ما لا تظفر به قصائد غيره من المعاصرين إلا في النادر القليل، ومن رأى بعض رجال الأدب أن شوقيّ كان أعلم من حافظ باللغة، وحجته في ذلك أن حافظ لم يملك غير الديباجة المتينة أما شوقي فكان يقع على كلمات نادرة يطرز بها شعره من غير أن يشعر القارئ أنها اجتلبت عن طريق التكلف أو الافتعال، وكان شوقي بالفعل من المولعين بالمراجعات في كتب الأدب والتاريخ وكان يفهم جيدا أنه من أئمة الأدب، وأن من واجبه أن يتعرف إلى روائع الأدب القديم والحديث، وكان له مثل هذا الموقف من الآداب الأجنبية، وإن كانت صلته بأدب أوربا وأمريكا وقفت عند حدود المشاهد السينمائية منذ ضعف بصره عن كثرة القراءة، ومثال شوقي كانت تكفيه اللمحة الدالة، فكانت المناظر السينمائية تغنيه عن قراءة مختلف الأقاصيص.

---

(١)ومع ذلك فقد بالغ الدكتور في الثناء عليه بما لا مزيد فوقه، وتلك لعمريْ أساس أخلاق العلماء.

كان شوقي من حيث الديباجة في الذروة العالية، وكانت معانيه وموضوعاته من روائع الأدب الجديد، وقد ظلم ناس أنفسهم وظلموا النقد النزيه حين قرروا أن شوقي لم يكن في معانيه من المبدعين، وحسب القراء أن يذكروا أن شوقي كان من أسبق الناس إلى تدوين كبريات الحوادث في مصر والشرق، وسيظل ديوانه من أهم المراجع لتاريخ هذا الجيل.

وقد أبدع شوقي القصص الشعري المسرحي لأول مرة في تاريخ اللغة العربية، ولم يكن أول من حاول هذه المحاولة، ولكنه أول من نجح نجاحا يذكر ويؤثر، وسينسى التاريخ المحاولات الأولية مع الأسف، ويذكر أن شوقي هو أول من شغل المسارح برواياته الشعرية، وأول من طاف بشعره الممثلون في مختلف الأقطار العربية.

وبعد فهذه كلمة قصيرة في توديع شوقي، وأن نفسي لتطيب كلما ذكرت أني كنت أول ناقد أنصف شوقي في حياته كما يشهد بذلك كتاب (الموازنة بين الشعراء) ويرحم الله من قال:

وطيب نفسي أنني لم أقل له ... كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٢

أسبوع شوقي

يحسن أن يعرف القارئ أولا قبل كل شيء أننا نكتب ما نكتب في مثل هذا المقام للعبرة والتاريخ، وأن يعلم أن الصحيفة الأدبية في البلاغ مستقلة عن سياسة الجريدة تمام الاستقلال، وجريدة البلاغ تمتاز بأن فيها محررين لا يكتبون سطرا واحدا في النشرات السياسية لأن للجريدة رسالة أدبية بجانب مناحيها السياسية، والسياسة إذا دخلت في باب الأدب أفسدته وحملت القراء على أن ينظروا إليه في حذر واحتياط.

وهذا التمهيد كاف لتوجيه نظر القارئ إلى قيمة هذه النزاهة الأدبية التي نتمنى أن تشيع في جرائد الأحزاب لأن للعقول والأرواح مطالب أدبية وفنية قد تعرض للضياع والتبديد إذا لم نفصل بين الأدب والسياسة بحاجز حصين.

خطر الأدب

أصبحنا بحمد الله نشعر أن للأدب خطرا عظيما، وصرنا نرى الناس يختلفون في الحياة الأدبية بحرارة لا تقل عن اختلافهم في الحياة السياسية، والجمهور اليوم مشغول بحظوظ الأدباء شغلا لا يقل عن شغله بمراكز الزعماء، وإذا عرفنا أن الأدب صورة الحياة وأنه مقياس لتقدم الأمم ونهوض الشعوب اطمأننا إلى أن في مصر حياة، وأن هذا القلق الروحي والعقلي بشير بحياة مجيدة في السياسة والاجتماع، وهذه الظاهرة الطيبة دليل على أننا خطونا

خطوات سريعة نحو المجد وأننا سنصير بعد قليل شغلا لكثير من المفكرين في الشرق والغرب إذا ثبتنا أقدامنا ومضينا نبدع في الآداب والفنون.

عكاظ

اتفق مؤرخو الآداب العربية على أن سوق عكاظ كانت من أسباب التقريب بين لهجات الجاهليين، ونحن اليوم نفعل ما يذكر بأيام عكاظ، فحفلة الأوبرا في هذا الأسبوع كانت ملتقى لكثير من العقول العربية وكان اجتماع العراقيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين والحجازيين (الذين قام خطيبهم في الليلة الثالثة) كان اجتماع كل أولئك مظهرا من ربط الأمم العربية أقوى بكثير مما كان يفعل عكاظ في ربط القبائل الجاهلية.

ومما يجب إثباته للتاريخ أن أدباء الأمم العربية ومفكريها كانوا أسبق إلى هذه الفكرة الطيبة من أدباء المصريين ومفكريهم، وقد كنت أتحدث منذ شهر مع رجل دقيق الفكر من أقطاب الوفد المصري في هذه المسألة فقال:

إن هؤلاء الجيران الفضلاء ما زالوا يلحون في توحيد الأمم العربية حتى صيروا ذلك عقيدة أدبية ستؤتي ثمرها بعد حين والواقع أننا نستأنس حين نجد أخبار مصر مفصلة في صحف الحجاز والشام والعراق، وإن كنا نأسف على ما يقع من التهاون المخجل في تجديد صلاتنا الأدبية ببلاد المغرب مثل طرابلس والجزائر وتونس ومراكش وهي بلاد ما تزال حريصة على وداد مصر بالرغم من تفريط المصريين في إحياء ذلك الوداد.

لحظات مع الضيوف الأعزاء:

رأيت أن أستقبل هؤلاء الضيوف فذهبت للتحية بنفسي في فندق الكونتنتال وكانت لحظات طيبة وإن كنت لم أتمكن إلا من محادثة رجلين اثنين هما فؤاد باشا الخطيب والشيخ مصطفى الغلاييني، أما فؤاد باشا فرجل واضح الفكر طيب القلب وهو من الشعراء المجيدين الذين تفوقوا في وصف الحياة البدوية وله طائفة صالحة من الشعر الحكيم، وله كذلك رواية شعرية عن فتح الأندلس مثلت في كثير من الأقطار العربية وهو واسع الاطلاع عذب الحديث.

وأما الشيخ الغلاييني فرجل من شعراء النحاة يجمع بين القديم والجديد، وله مؤلفات كثيرة في النحو والصرف والبلاغة وقد رأيت أن أسأله عن رأيه في كتاب النحو الواضح فأجاب بأنه كتاب جيد، ولكنه يقسم أبواب النحو على سنين مختلفة، مع أن الأفضل أن يكون الجزء الأول جامعا لأبواب النحو كلها في إيجاز ويكون الجزء الثاني جامعا لها في شيء من التفصيل، ثم يجمعها الجزء الثالث في إسهاب، وأنه هو نفسه يسير في مؤلفاته المدرسية على هذه الطريقة فقلت: هذه كانت طريقة الأزهر القديم وهي طريقة كانت مضمونة النفع في تعليم الطلاب.

خليفة شوقي:

سأل فؤاد باشا الخطيب عمن يخلف شوقي في مصر فأجبناه بأن ذلك يحتاج إلى سنين لأن حياة شوقي كانت من أسباب خمول الشعراء المعاصرين فإن شوقي فعل ما فعل أبو تمام الذي أخمل ثلاثمائة شاعر في حياته، فلننتظر حتى

يستبق الشعراء في ميادين المجد من جديد ثم ننظر لمن يكون السبق، وهذا بالطبع لن يمر في شهر أو شهرين، على أن الخلافة في الشعر أصبحت سنة لا تلائم سنن العصر الحديث، فليظل كل شاعر خليفة نفسه إن شاء، إلى أن يوجد بينهم من يملك ما كان يملك شوقي من المال والفراغ والعبقرية.. فإن هذه الثلاثة مجتمعة هي التي تمكن الشاعر من الإمارة أما الشعراء الصعاليك - والصعلوك كلمة مدح وهي تقابل ما نسميه اليوم باللص الشريف هؤلاء الصعاليك- الذين يجمعون بين الفقر والشرف ليس لهم أن يتساموا إلى إمارة الشعر لأن غنى القلوب أضعف سلطانا من فقر الجيوب، وكيف تنتظر أن يصير الشاعر أميرا في أمته وهو ليس بأمير في بيته؟

إن أكثر شعرائنا وأدبائنا يكدحون ليعيشوا، فهم بالطبع أعجز من أن ينهضوا بتكاليف المجد المجلوب.

ولإمارة الشعر تكاليف أهمها ترضية النقاد وكبح أقلام المتحاملين منهم ببعض الهدايا والولائم على نحو ما كان يفعل شوقي رحمه الله وهذه أثقال تقصم ظهور كثير من شعرائنا الفقراء الذين يفنون أطيب أوقاتهم للسعي في طلب الرزق، فليتغنوا إن شاءوا بما تغنى به حافظ إبراهيم في ليالي سطيح:

ليس الخمول بعار ... على امرئ ذي جلال
فليلة القدر تخفى ... وتلك خير الليالي

فكاهات الحفلة:

لم تمض حفلة الأوبرا بدون أن نظفر منها بكثير من ألوان الفكاهات.. فلنذكر من ذلك شيئا قليلا:

١- طلب مني عند دخول المسرح أن أترك عصاي في مكتب الأمانات فتركتها في أسف لأنها عصا شعرية قدمت إلي هدية من أحد عشاق اللوار.

وكنت أحب أن أرفعها في ختام كل قصيدة إذ كانت بذكرياتها أجمل ما يحيا به الشعراء، ثم اتفق أن اصطدمت بالأستاذ سعد اللبان على المسرح اصطداما عنيفا فالتمست عصاي فلم أجدها، فتذكرت في الحال أن حجز العصا في مكتب الأمانات لم يكن إلا دسيسة وزارية.

٢- خطب الأستاذ وهيب بك دوس فأطال حتى أمل بعض الحاضرين وكان بجانبي أديب لا يعرفه فسأل عن اسمه فقلت: هو الأستاذ وهيب دوس المحامي فقال الأديب: يعذر في إطالته لأنه حماية! يريد أنه شقيق الوزير توفيق باشا دوس.

٣- كان الأستاذ السكندري يعرب اسم شوقي فينونه رفعا ونصبا وجرا فيقول مثلا: ولكن شوقيا، فأظهرت ضجري من إعراب الأعلام فقال الأستاذ برادة: أراد أن يعربه فنكره.

٤- كانت هناك لحظة استراحة تصافح فيها الأصدقاء من الحاضرين فسمعت الأستاذ أحمد والي الجندي يقول للأستاذ محمد الهيباوي: العاقبة عندك يا أستاذ إن شاء الله تموت وتحتفل الحكومة بذكراك.

فقال الهيباوي: أقبل هذا مع السرور على شرط أن لا يطيل الخطباء إلى حد الإملال.

٥- لوحظ أن معالي حلمي باشا عيسى جذب أحد الخطباء من ثوبه برفق ليختصر فقال أحد الحاضرين: (شده من خطبته) ولا تشده من ذيله.

٦- كان مقررا أن تنتهي حفلة الأوبرا في الساعة الثامنة ولكنها طالت جدا وكان الحاضرون يفكرون في طريق الخلاص، فقال أحدهم: (ينبغي أن نوزع على الخطباء موعد العشاء في الكونتنتال).

٧- كانت خطبة الدكتور منصور فهمي مختصرة جدا فحمد له الناس ذلك الذوق فلما أطال بعده الخطباء وأملوا اقترح بعضهم أن يهتف الحاضرون (ليحيا الدكتور منصور ليفهم الخطباء أن البلاغة هي الإيجاز).

٨- سمعت أحد الحاضرين يقول: لو أن وزير المعارف كان ينتظر هذا التطويل لأجَّل هذه الحفلة إلى سهرات رمضان!

وفي هذا كفاية فذلك موضوع لو أطلناه طال.

قهوة بسكر

من عادات أهل الريف أن لا يقدموا غير القهوة في المآتم وقد يمتنع المعزون عن تناول القهوة بتاتا، إذا كان الميت شابا ولكنهم يقدمون القهوة الحلوة إذا كان الميت شيخا هرما ترك بعده أولادا نجباء.

وقد قرأت في الصحف أن الأستاذ عبد العزيز البشري دعا وفود الأقطار العربية إلى حفلة عشاء في داره يغني فيها الموسيقار صالح عبد الحي فتذكرت أنه أراد أن يقدم لهم «قهوة بسكر (زيادة)».

ومعنى هذا أنه غض النظر عن فكرة التعزية فهل نستطيع أن نقترح أن يقيم الأستاذ محمد عبد الوهاب بدوره حفلة لأولئك الضيوف.

أنا أقدم هذه الملاحظة أيضا للتاريخ، وليس فيها ما يعتذر منه، فإنها تذكر بمن قال:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... يروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني ... أخاف إذا مت أني لا أذوقها

وتذكر أيضا بما أوصى به عمر الخيام أصدقاءه أن يصبوا على قبره دنان الصهباء!

أين الجنس اللطيف:

روعيت التقاليد في هذه الحفلة لشوقي فلم يحضرها أحد من الجنس اللطيف لأن معالي رئيس الحفلة لا يرى ذلك، وسمح فقط لقريبات الشاعر أن يحضرن في مقصورة مسدولة الستائر.

وفي ظني أن شوقي كان يتمنى أن يكون الاحتفال بذكراه جامعا لأسراب الجنس اللطيف حتى لا يحرم روحه من نغمات (ليلى) و(كليوباترة) و(أميرة الأندلس).

محمد عبد الوهاب

من غرائب المصادفات أن اسم محمد عبد الوهاب لم يرد على لسان أحد من الخطباء والشعراء الذين اجتمعوا لتأبين شوقي، مع أن صلة شوقي بذلك الموسيقار كانت نعمة على الأدب والفن، فبفضل شوقي غنمنا محمد عبد الوهاب وبفضل عبد الوهاب غنمنا بقية الكأس من حياة شوقي.

التربية والتعليم

غفل منظمو الحفلة وشعراؤنا عن جانب مهم من شعر شوقي وهو الجانب الخاص بالتربية والتعليم، وقد علمت أن الأستاذ سعد اللبان أغفل هذا الباب

عامدا ليمكنني من كتابة الفصل الذي قدمته لمجلة[1] التربية الحديثة وهو فضل يذكر للأستاذ اللبان.

أداب صحفية

لاحظت أن الأستاذ أنطون الجميل نشر خطبته في ذيل الأهرام ونشر الخطب الأخرى في الصدر وذلك باب من دقة الذوق، ولاحظت كذلك أنه نشر القصائد التي سبقته إلى نشرها جريدة البلاغ فعرفت أنه يرى الأدب أغلى وأنفس من أن يبذله التكرار فليتقبل منا خالص الثناء.

أغلاط

جاء في خطبةّ الأستاذ أحمد زكي باشا أن شوقي امتاز بميزة عظيمة هي الشرح الذي وصفه خاتمة المحدثين الشيخ سليم البشري لقصيدة نهج البردة وهذا خطأ والصواب أن الشرح للشيخ عبد العزيز البشري وكتب اسم الشيخ سليم رعاية لمركزه وكان يومئذ شيخ الأزهر الشريف.

وجاء في خطبته أيضا أن البردة عورضت بمئات ومئات من القصائد ومعنى (المئات) والمئات أنها عورضت على الأقل بنحو خمسمائة قصيدة، وذلك غلو غير مقبول ولعل سيادة زكي باشا يتفضل فيذكر لنا خمسين قصيدة لا خمسمائة مما عورض به البوصيري، لأنني مشغول في هذه الأيام بدراسة المدائح

(١) لم نجد هذا المقال في مجلة التربية الحديثة، ولكنا وجدناه في البلاغ وهو منشور في هذا الكتاب تحت عنوان (التربية والتعليم في شعر شوقي).

النبوية، إذ كانت تشغل فصلا مهما من كتابي عن أثر التصوف في الأدب والأخلاق وأنا أنتظر جواب الباشا المفضال.

الحقد السياسي

جاء في خطبة الأمير مصطفى الشهابي لوم عنيف على نظم شوقي في وصف البسفور والمغاني التركية وضرب مثلا بما نظم فكتور هيجو، والخطأ واضح في النظرية والاستشهاد فمن حق الشاعر أن يصف ما يطرب له ولو كان في بلاد الأعداء فكيف يعاب على شوقي أنه أشاد بالبوسفور والمغاني التركية؟

أيجوز التغني بملاعب لندرة وباريس وبرلين ولا يجوز التغني بحدائق الأستانة؟

هذا عجيب!

أخوك في الدين

أرسل معالي وزير المعارف إلى كبير شعراء تركيا ينعى شوقي فأجابه الشاعر بخطاب نفيس جاء في ختامه:

(وتقبل تحية أخيك في الدين).

إذن لا يزال في تركيا ناس يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

شوقي أمام التاريخ

شخصيته وحكمته المطبوعة [١]

اتفق لي أن أكتب فصولا مطولة عن شعر شوقي في سنة ١٩٢٥ وهي فصول منزهة عن الغرض يجدها القارئ في كتاب (الموازنة بين الشعراء) وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق النقاد المعاصرين. ويعز علي أن أصرح بأن جمهرة النقاد كانت من أصحاب الصحف الأسبوعية، وكان شوقي عودهم التطلع إلى مائدته الفاخرة وجيبه الثقيل! وكانوا كلما احتاجوا إلى (بره ومعروفه) طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه من نقائص وعيوب، وكان الرجل يغار على شعره غيرة الكريم على عرضه ، فكان يخرس ألسنتهم، ويقصف أقلامهم، بالهدايا والهبات. وقد ظن أولئك المساكين أني أكتب عن شعر شوقي لنفس الغرض الذي يسوقهم ويحفزهم إلى الكتابة عن شعره، فكانوا يتقدمون إلي ناصحين، وكان نصحهم يتلخص على اختلاف ألوانه في هذه الكلمة الطريفة: (إن شوقي لا يحترم من ينصفه!).

والاحترام الذي يفهمونه هو السخاء والكرم والجود. وهذا النوع من الاحترام يبدو لعيني بغيضا ممقوتا لا يتطلع إليه إلا سفلة الناس. وليت شعري كيف يحتاج الرجل إلى هبات الأغنياء ورغيف واحد يكفيه يوما وليلة، وليس بطن الإنسان إلا وعاء حقيرا لا يستحق أن تذل في سبيل ملئه النفوس! ولكن

---

(١)أبو للو ديسمبر سنة ١٩٣٢.

هذا هو الذي وقع لنقاد ذلك العصر مع الأسف الموجع، وقد استطاع أولئك المرتزقون أن يشوهوا النقد الأدبي أبشع تشويه، وأن يقلبوا الحقائق الأدبية قلبا كريها، وأن يروضوا الجمهور على الاعتقاد بأن الرجل لا يقول كلمة الحق إلا مأخوذا بغرض دفين.

وقد عرفت بالتجربة أن شوقي كان كما وصفه أولئك الواصفون لا يحترم من ينصفه، وتجلت لي حقيقة ذلك في سنة ١٩٢٨ يوم قدم طاغور مصر وأقام له في داره حفلة استقبال، كنت يومئذ مدرسا بالجامعة المصرية وكنت صديقه وكان الدكتور طه حسين من خصومه الألداء، فدعا الدكتور طه لاستقبال طاغور في منزله ولم يدعني، لأن الدكتور طه كان موظفا في الدرجة الثانية وكنت موظفا في الدرجة السادسة، وفرق ما بين هاتين الدرجتين كان من الأمور التي يفهمها جيدا أمير الشعراء الذي عودته الحياة الرسمية أن يحترم الرسميات! ثم وقع يومئذ ما هو أبشع من ذلك: فقد كان دعا المسيو ساروليا ثم علم أن الجمهور هاج على ذلك الأستاذ لكلمة ندت في محاضراته بالجامعة المصرية، فكتب إليه شوقي ينبئه بأنه (سحب الدعوة) وأنه يرجوه أن يريح نفسه من الحضور لدار الكرم والجود (كرمة ابن هانئ) على أيامها وأيامه تحية وسلام!

وكانت هذه أيضا فرصة طيبة عرفت فيها أخلاقي: فإن تلك الهفوة لم تنقص تقديري لشوقي، شوقي الشاعر، أما شوقي الصديق فقد ثرت عليه ثورة عنيفة، وعدت لا أقابله حين ألقاه مصادفة إلا بنفس الزاهد العيوف، وقد اتفق أن تلاقينا عفوا في بهو الكونتنتال في ربيع سنة ١٩٢٩ وكنت مع الدكتور

منصور فهمي، فسألني شوقي عن انصرافي عنه، فأجبته بكلمات فيها جفاء، فالتفت إلي الدكتور منصور وقال: إن شوقي بك والد الجميع. وأنشد:

نميل على جوانبه كأنا ... نميل إذا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرما ولينا

ثم توالت الأيام، وكانت تزيد في يقيننا بأن شوقي الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقي الذي يعرفه الناس كإنسان اجتماعي يخطئ ويصيب بين الحق والواجب، وكان أن رأيته لآخر مرة في مسرح حديقة الأزبكية يوم اجتمعنا لمعاونة الأديب محمود أبو الوفا، وأسرعت إليه أحييه، وأقبل أبو الوفا يسلم عليه، وكدت أصرخ في وجهه: قبل يد الشاعر أيها الجاحد فقد شرف قدرك بشعره! وكانت عاطفة طبيعية: فقد كان شوقي في ذلك اليوم وهو محطم مهدود يبدو لعيني في وقار الصديقين. ولما علمت أنه سيقيم حفلة شاي في داره لأعضاء (جمعية أبولو) خطر ببالي أن أسعى لحضور تلك الحفلة، خشية أن تكون آخر مرة يرى الناس فيها أمير الشعراء، ولكني رفضت أن أذهب بدون دعوة، ثم كان ما مر بالبال صحيحا، وكانت آخر مرة يستقبل فيها شوقي رجال الأدب في داره فيا حسرتا على ما ضيعت من تلك اللحظات الطيبات!

لم أسئ يوما إلى شوقي الشاعر، والحمد لله، وإن كنت بعت حظي من شوقي الصديق، وقد عانيت في سبيل إعجابي بشعره نكبات عديدة، فإن ناسا كانوا يودون لو هدموه، ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل، وسلكوا إلى هدمه شتى

الشعاب، وكان الرجل عظيم الشاعرية حقا وكان أصلب من أن تنال منه معاول الهادمين، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية، وكانت لهم في ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان، والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقود وستظل الأخلاق والوطنية دعامة يستند إليها ضعفاء النفوس والعقول ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع إلى أدعياء الوطنية والأخلاق!

الخلق لله، والوطنية لله، كما أن الدين لله، فلنترك لشوقي أخلاقه ووطنيته، ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ولنخص بالذكر شعر الحكمة الرائعة.

الحكمة في شعر شوقي

أول ظاهرة واضحة في شعر شوقي هي التماس الشاعر لغرائب الحكمة في جميع القصائد والمقطوعات، وقد آثرت أن أقف هذا المقال التقديري على تلك الظاهرة البارزة في شعره وهي ليست ملحوظة في شعر الكهولة وحده، وإنما ترجع إلى ميل في نفس الشاعر منذ صباه، ومن الجميل أن يكون الشاعر حكيما، ولكن الأجمل أن ترد الحكمة عفوا بلا تكلف ولا افتعال، وقد وقع لشوقي أن عق أسلوب القصص أحيانا كثيرة في سبيل الحكمة، وغالب سياق القصائد رغبة في تدوين الكلام الحكيم، من ذلك قصيدته الهمزية التي أنشأها منذ نحو ثلاثين عاما لتلقى في المؤتمر الشرقي الدولي الذي انعقد في مدينة جنيف سنة ١٨٩٤، وهي قصيدة مطولة وصف فيها مصر وحكوماتها وأهلها منذ العهد القديم، وجرى القصص فيها مسلسلا لم يعقه إلا التنقل إلى الحكمة التي كانت تطرد أحيانا إلى نحو خمسة أبيات مع أنه كان يكفي أن تقع في شطر بيت لتكون

لفتة طريفة لا ينقطع بها سياق الحديث، مثال هذا كلامه عما لحق مصر من الذل بعد عهد فرعون، فقد وصل به هذه الأبيات:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها ... فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسـ ... ـر فكيف الخلائق العقلاء؟
يحسب الظالمون أن سيسودو ... ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالي جواثر مثلما جا ... روا وللدهر مثلهم أهواء

ثم عاد إلى القصص فنظم ثلاثة عشر بيتا عن رمسيس وسيزوسنريس الذي وصفه بالتواضع وكره الكبرياء، ودعاه هذا إلى إلقاء الحكمة فقال:

يولد السيد المتوج غضا ... طهرته في مهدها النعساء
لم يغيره يوم ميلاده بؤ ... س ولا ناله وليدا شقاء
فإذا ما الملقون تولو ... ه تولى طباعه الخيلاء
وسرى في فؤاده زخرف القو ... ل يراه مستعذبا وهو داء
فإذا أبيض الهديل غراب ... وإذا أبلج الصباح مساء

وقد تطرد الحكمة عند شوقي لغرض مقصود فتأتي رائعة: مثال هذا قصيدته في مشروع ملنر، وهي قصيدة كان يجب بترها من الديوان لولا حرمة التاريخ، ومشروع ملنر كان فتنة من أخطر الفتن. وكان ناس دعوا له واستدرجوا شوقي إلى الدعوة له، فكتبت ألومه في جريدة (المحروسة)، فلما تلاقينا اعتذر بأنه قال القصيدة مأخوذا بإلحاح بعض الناس، والقصيدة دعوة إلى الرضا بالضعف، ولكنها من أظرف ما ينوم به الضعفاء، ولم أجد في حياتي كلمة باطل صيغت في مثل هذا الأسلوب الطريف:

قد صارت الحال إلى جدها ... وانتبه الغافل من لعبه
الليث والعالم من شرقه ... في هيبة الليث إلى غربه
قضى بأن نبني على نابه ... ملك بنينا وعلى خلبه
ونبلغ المجد على عينه ... وندخل العصر إلى جنبه
ونصل النازل في سلمه ... ونقطع الداخل في حربه
ونصرف النيل إلى رأيه ... يقسمه بالعدل في شربه
يبيح أو يحمي على قدرة ... حق القرى والناس في عذبه
أمر عليكم أو لكم في غد ... ما ساء أو ما سر من غبه
لا تستقلوه فما دهركم ... بحساتم الجود ولا كعبه
نسمع بالحق ولم نطلع ... على قنا الحق ولا قضبه
ينال باللين الفتى بعض ما ... يعجز بالشدة من غصبه
فإن أنستم فليكن أنسكم ... في الصبر للدهر وفي عتبه
وفي احتشام الأسد دون القذى ... إذا هي اضطرت إلى شربه
قد أسقط الطفرة في ملكه ... من ليس بالعاجز عن قلبه
يا رب قيد لا تحبونه ... زمانكم لم يتقيد به
ومطلب في الظن مستبعد ... كالصبح للناظر في قربه
واليأس لا يجمل من مؤمن ... ما دام هذا الغيب في حجبه

أليس يرى القارئ أن هذا باطل صور في أبرع أسلوب؟ ومع هذا فالشاعر حكيم في طبعه حتى حين يتأنق في تصوير الأباطيل، فإننا مهما رميناه بالدعوة إلى الضعف واللين لا نستطيع أن ننكر أنه أحكم الناس حين قال:

يا رب قيد لا تحبونه ... زمانكم لم يتقيد به

فالزمان قد يفك القيود حين يرى فيها مغالبة لطبيعة الحياة وحقوق الإحياء كما بدأ يفعل في معاهدة فرساي.

وكان يطيب لشوقي أحيانا أن يبدأ قصيدة بالحكمة ثم يطيل كأنما كانت الحكمة غرضه المقصود، وأكثر ما كان يقع ذلك في قصائد الرثاء، ومن أوضح الشواهد في هذا ما ابتدأ به قصيدته في كارنارفون:

في الموت ما أعيا وفي أسبابه ... كل امرئ رهن بطي كتابه
أسد لعمرك من يموت بظفره ... عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع ... أو لم ينم فالطب من أذنابه
داء النفوس وكل داء قبله ... هم نسين مجيئه بذهابه
النفس حرب الموت إلا أنها ... أتت الحياة وشغلها من بابه
تسع الحياة على طويل بلائها ... وتضيق عنه على قصير عذابه
هو منزل الساري وراحة رائح ... كثر النهار عليه في إتعابه
وشقاء هذي الروح من آلامها ... ودواء هذا الجسم من أوصابه!

تلك ثمانية أبيات في الحكمة يجد بعدها القارئ أحد عشر بيتا حاول الشاعر صبغها بصبغة الكلام الحكيم، وهذه المقدمة الطويلة تبدو لنا مستثقلة بعض الشيء لأننا نلمح فيها آثار الافتعال، ولكنا نقف خاشعين حين نصل إلى قوله في وصف ذلك العالم المجهول الذي يسمى عالم البقاء:

يا صاحب الأخرى بلغت محلة ... هي من أخي الدنيا مناخ ركابه
نزل أفاق بجانبيه من الهوى ... من لا يفيق وجد من تلعابه
نام العدو لديه عن أحقاده ... وسلا الصديق به هوى أحبابه

الراحـة الكـبرى مـلاك أديمـه والـسلوة الطـولى قـوام ترابـه

وللقارئ أن يتأمل البيت الأخير فهو من أجود ما قيل في وصف ما بعد الموت من قرار وسكون.

ولشوقي قصائد دعت إليها ظروف وقتية، ضمنها كذلك حكما وقتية، فقصيدته في العمال منظومة مفتعلة تحدث فيها عن الانتخابات البرلمانية لأن ظروفها اقتضت ذلك، واسمع كيف يقول:

أيهـا الجمـع لقـد صر ت مـن المجلـس قابـا
فكـن الحـر اختيـارا وكـن الحـر انتخابـا
إن للقـوم لعينـا لـيس تـألوك ارتقابـا
فتوقـع أن يقولـوا مـن عـن العـمال نابـا؟
لـيس بـالأمر جـديرا كـل مـن ألقـى خطابـا
أو سـخا بالمـال أو قـد م جاهـا وانتسابا
أو رأى أميـة فاختـ ـلب الجهـل اختلابـا

والقوم الذي يعنيهم شوقي هم الإنجليز، والعمال مدعوون أن يراقبوا الإنجليز حين ينتخبون النواب، والمطلوب أن ينتخبوا الدكتور محجوب ثابت ولكن هذه المنظومة لم تخل مع ذلك من أبيات حكيمة سبقت إليها فطرة الشاعر الحكيم حين أخذ يقول:

إنّ لي نـصحا إليكم إن أذنـتم وعتابـا
في زمـان غبـي صـح فيـه أو تغـابى
أيـن أنـتم مـن جـدود خلـدوا هـذا الترابـا

قلدوه الأثر المعجز والفن العجابا ... وكسوه أبد الدهر من الفخر ثيابا
أتقنوا الصنعة حتى أخذوا الخلد ... إن للمتقن عند الله والناس ثوابا
أتقنوا يحببكم الله ويرفعكم جنابا ... أرضيتم أن ترى مصر من الفن خرابا؟
بعد ما كانت سماء ... للصناعات وغايا؟

وبساطة هذا الشعر من سمات جماله وخصوصا إذا لاحظنا أنه يخاطب العمال، وخطابه يفرض اليسر واللين في العرض والأداء.

وليس من الغلو في شيء أن نصرح بأننا معجبون أفتن الإعجاب بقوله في هذه القصيدة يوصي بالادخار اتقاء لحوادث الأيام:

إنما العاقل من ... يجعل للدهر حسابا
فاذكروا يوم مشيب ... فيه تبكون الشبابا
إن للحسن لهما ... حين تعلو وعذابا
فاجعلوا من مالكم للشـ ... ـيب والضعف نصابا
واذكروا في الصحة الدا ... ء إذا ما السقم نابا

وقد تبدو هذه الأبيات عند من لا يتأمل فيما تشير إليه من أعقاب الشيخوخة ذات الويل والعذاب، ولنذكر دائما أنه يخاطب العمال الذين تغلب عليهم الغفلة عن مصائر من يهرمون وهم معدمون.

ولا ينبغي أن تفوتنا هذه الفرصة فنهمل التنويه بهذه الظاهرة الغريبة في حكمة شوقي: فإن الرجل فيما يظهر من شعره ومن أخلاقه الحيوية كان مأخوذا بالحرص على طيبات العيش، وكان مشغوفا بمعاودة التفكير في

الأخلاق المعايشة، والأخلاق المعايشة هذه كلمة نراها أنسب ما يصور به حرص شوقي على أسباب الحياة، وانظر قوله في النحل:

مخلوقـــــة ضـــــعيفة ... مـــن خلـــق مـــصوره
يـــا أمـــا قـــل ملكهـــا ... ومـــا أجـــل خطـــره
قـــف ســـائل النحـــل بـــه ... بـــأي عقـــل دبـــره
يجبـــك بـــالأخلاق وهـــي ... كـــالعقول جـــوهره
تغنـــي قـــوى الأخـــلاق مـــا ... تغنـــي القـــوى المفكـــره
ويرفـــع الله بهـــا ... مـــن شـــاء حتـــى الحـــشره!

وليتأمل القارئ في قوله (من خلق مصوره) ووصفه الأخلاق بأنها جوهرة كالعقول، يريد أنها هبة دقيقة خفية لا يعلم أسرارها غير علام الغيوب، وهذا معنى لا يدرك إلا بدقة التأمل، فإن الخلق الصالح خلق العيش والحياة من الأسرار الخفية. فكم ناس يوفقون في حياتهم المعاشية، وليست هناك أسباب ظاهرة لما رزقوا من توفيق، غير أن الخبير بأحوال العيش يعرف أن هناك دقائق نفسية وخلقية يتيسر بها العيش والرزق وإن كان أصحابها في ظاهر الأمر من العابثين الماجنين، ولينظر القارئ أيضا قوله:

أليـــس في مملكـــة ... النحـــل لقـــوم تبـــصره؟
ملـــك بنـــاه أهلـــه ... بهمـــة ومجـــدره
لـــو التمـــست فيـــه بطـــا ... ل اليـــدين لم تـــره
تقتـــل أو تنفـــي الكـــسا ... لى فيـــه غـــير منـــذره

وهذه صورة صحيحة لحياة النحل، وفيها عبرة لمن يرون اختلال الجماعات الإنسانية ثم لا يعرفون أن أسباب ذلك الاختلال ترجع إلى مهادنة أهل البطالة والفراغ.

لننتقل بعد هذا إلى الحكمة الفطرية في شعر شوقي، ونريد بها الحكمة التي تقع في ثنايا القصيد من غير تكلف ولا افتعال، وشواهد ذلك كثيرة: ومنها قوله يخاطب مهنئا بالعيد:

أمثلك يمنع الأوطان خيرا ... وأنت خلقت من خير طباعا
شجاعا كنت في يوم عصيب ... توفيها المحبة والدفاعا
جنحت إلى السلام فكان حلما ... وقدما زين الحلم الشجاعا
ومن صحب الحياة بغير عقل ... تورط في حوادثها اندفاعا

فإن البيت الأخير وقع موقعا طبيعيا لم يشنه تصنع الحكمة ولا اختلاق أسباب القول الحكيم.

وقصيدة نهج البردة تفيض بشواهد الحكمة الفطرية، ولنقرأ هذه الأبيات:

رمى القضاء بعيني جؤذر أسدا ... يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم
لما رنا حدثتني النفس قائلة ... يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي
جحدتها وكتمت السهم في كبدي ... جرح الأحبة عندي غير ذي ألم
رزقت أسمح ما في الناس من خلق ... إذا رزقت التماس العذر في الشيم
يا لائمي في هواه والهوى قدر ... لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أنلتك أذنا غير واعية ... ورب منتصت والقلب في صمم

والأبيات الأربعة الأخيرة مضمخة بعبير الحكمة، وأرقها عندي وأوجزها قوله:

(والهوى قدر). وقد حدثت الدكتور طه حسين عنها مرة فابتسم وقال: (وعد مكتوب علي ومقدر على الجبين).

ولنقرأ قوله في وصف الدنيا:

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية ... وإن بدا لك منها حسن مبتسم
فضى بتقواك فاها كلما ضحكت ... كما يفض أذى الرقشاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة ... من أول الدهر لم ترمل ولم تنم
يفنى الزمان ويبقى من إساءتها ... جرح بآدم يبكى منه في الأدم
لا تحفلي بجناها أو جنايتها ... الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

وقوله في فخار الأصل بالفرع:

قد أخطأ النجم ما نالت أبوته ... من سؤدد باذخ في مظهر سنم
نموا إليه فزادوا في العلا شرفا ... ورب أصل لفرع في الفخار نمي

وقوله في شمائل الرسول:

محبة لرسول الله أشربها ... قعائد الدير والرهبان في القمم
إن الشمائل إن رقت يكاد بها ... يغرى الجماد ويغرى كل ذي نسم

وقوله في صاحب البردة:

مديحه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملي صادق الكلم
الله يشهد أني لا أعارضه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم

وإنـــما أنـــا بعـــض الغـــابطين، ومـــن يغـــبط وليـــك لا يـــذمم ولا يلـــم

وقوله في يتم النبي:

ذكـــرت بـــاليتم في القـــرآن تكرمـــة وقيمـــة اللؤلـــؤ المكنـــون في اليـــتم

وقوله في المفاضلة بين محمد وعيسى:

أخـــوك عيـــسى دعـــا ميتـــا فقـــام لـــه وأنـــت أحييـــت أجيـــالا مـــن الـــرمم

والمـــوت جهـــل فـــإن أوتيـــت معجـــزة فابعـــث مـــن الجهـــل أو فابعـــث مـــن الرجم

وقوله في حرب من لم يغن في تقويمهم السلم:

لمـــا أتـــى لـــك عفـــوا كـــل ذي حـــسب تكفـــل الـــسيف بالجهـــال والعمـــم

والـــشر إن تلقـــه بـــالخير ضـــقت بـــه ذرعـــا وإن تلقـــه بالـــشر ينحـــسم

وقوله في فضل الحرب:

دعـــوتهم لجهـــاد فيـــه ســـؤددهم والحـــرب أس نظـــام الكـــون والأمـــم

لـــولاه لم نـــر للـــدولات في زمـــن مـــا طـــال مـــن عمـــد أو قـــر مـــن دعـــم

تلـــك الـــشواهد تـــترى كـــل آونـــة في الأعـــصر الغـــر لا في الأعـــصر الـــدهم

بـــالأمس مالـــت عـــروش واعتلـــت سرر لـــولا القـــذائف لم تـــثلم ولم تـــصم

والحكمة هي قوله: (والحرب أس نظام الكون والأمم) وما بعد هذا الشطر جرى مجرى الشرح والتقرير، وقوله في فضل العدل على القوة:

واتـــرك رعمـــسيس إن الملـــك مظهـــره في نهـــضة العـــدل لا في نهـــضة الهـــرم

ويطول القول لو مضينا نستقصي ما اتفق لشوقي من روائع الحكمة الفطرية وإنها لتقع له سائغة مستطابة كالورد النمير، وانظر قوله يخاطب من شيدوا قبر نابليون:

حصنوا ما شئتم موتاكمو ... هل وراء الموت من حصن حصين

وقوله في ذكرى دنشواي:

شهداء حكمك في البلاد تفرقوا ... هيهات للشمل الشتيت نظام

وقوله في صلة مصر بالسودان:

فمصر الرياض وسودانها ... عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه ... وريد الحياة وشريانها

وقد جرى الشاعر في هذه السبيل حين ألف رواياته المسرحية، فليتصفحها القارئ ليرى صحة ما نقول.

وبعد عرض هذه النماذج في صور الحكمة ومواقعها في شعر شوقي يحسن بنا أن نقرر أن ذلك الرجل استقى تلك الحكم من تجاربه أكثر مما استقاها من مطالعاته: فقد عاش زمنا عيشة محرجة مضجرة لا يعرفها إلا من ابتلي بمثلها أو بما يقاربها وما ظن القارئ بمن يعاشر الملوك ويذوق ما في كئوس السياسة من علقم وصاب؟ لهذا نراه صادقا غير متكلف حين يقول:

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى ... تبدل كل آونة إهابا
وأن الرقط أيقظ هاجعات ... وأترع في ظلال السم نابا
ومن عجب تشيب عاشقيها ... وتفنيهم وما برحت كعابا

فمـــن يغـــتر بالـــدنيا فـــإني ... لبـــست بهـــا فأبليـــت الثيابـــا
لهـــا ضـــحك القيـــان إلى غبـــي ... ولي ضـــحك اللبيـــب إذا تغـــابى
جنيـــت بروضـــها وردا وشـــوكا ... وذقـــت بكأســـها شـــهدا وصـــابا

التربية والتعليم في شعر شوقي [١]

تمهيد:

لم يكن شوقي معلما في مدرسة أولية، أو مدرسا في مدرسة ثانوية، أو أستاذا في مدرسة عالية وما أحسبه شغل نفسه بالتعليم شغلا جديا. وفي هذا ما يكفي لأن يعرف القارئ أن آراء ذلك الشاعر في التربية والتعليم لم تكن من الآراء المصبوغة بصفة البحث المنظم، بل يمكن القول بأنها خلت من صبغة القصد، أي أن الشاعر لم يرد بها أن يكون مربيا أو معلما، وإنما اتفق له أن يتحدث في شئون تعليمية دعته إليها عاطفته كأب له أبناء يتعلمون، ومواطن يرى في غدوه ورواحه صبية وشبابا يذهبون إلى المدارس، صديق يرى بعض ما يقاسيه أصدقاؤه من رجال التعليم.

يضاف إلى هذا أن الرجل كان يتطلع إلى مستقبل الأمة في حياتها التهذيبية فكان يسوقه ذلك إلى الحديث عن الأزهر والجامعة المصرية، وكان له في أكثر المواقف قصائد ومقطوعات ينحو فيها منحى المربي الحكيم، وإن لم يقصد إلى تحديد شيء من المذاهب والآراء التعليمية: فكان شعره في هذا الباب من عفو الفطرة وقد تجود الفطرة أحيانا بما تعجز عنه عقول الباحثين.

---

(١) جريدة البلاغ بتاريخ ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤.

خطاب المطرية إلى سعد باشا

هي قصيدة نظمها شوقي منذ ربع قرن، وقدمها إلى وزير المعارف وكان يومئذ سعد باشا زغلول وفي هذه القصيدة تتكلم المطرية عن رغبتها القوية في إنشاء مدرسة تذكر بمدرستها القديمة التي تعلم فيها بعض فلاسفة اليونان، وهذه القصيدة مجهولة لا يعرفها إلا القليل من أنصار شوقي، لأنها من شعره القديم الذي خلا أكثره من آيات النضج والقوة، ولكنها في نظري غرة من الوجهة التعليمية فلننظر كيف تترفق المطرية في خطاب الوزير سعد زغلول:

يا ناشر العلم بهذي البلاد ... وفقت نشر العلم مثل الجهاد
باني صروح المجد أنت الذي ... تبني بيوت العلم في كل ناد
بالعلم ساد الناس في عصرهم ... واخترقوا السبع الطباق الشداد
أيطلب المجد ويبغي العلا ... قوم لسوق العلم فيهم كساد
نقاد أعمالك مغسل لها ... إذا علا الدر غلا الانتقاد
ما أصعب الفعل لمن رامه ... وأسهل القول على من أراد
سمعا لشكواي فإن لم تجد ... منك قبولا فالشكاوى تعاد
عدلا على ما كان من فضلكم ... فالفضل إن وزع بالعدل زاد
أسمع أحيانا وحينما أرى ... مدرسة في كل حي تشاد
قدمت قبلي مدنا أو قرى ... كنت أنا السيف وكن النجاد
أنا التي كنت سريرا لمن ... ساد (كادوارد) زمانا وشاد
قد وحد الخالق في هيكل ... من قبل سقراط ومن قبل عاد
وهذب الهند دياناتهم ... بكل خاف من رموزي وياد

ومـــن تلاميـــذي موســـى الـــذي ... أوحـــى مـــن بعـــد إليـــه فهـــاد
وأرضـــع الحكمـــة عيـــسى الهـــدى ... أيـــام تربـــى مهـــده والوســـاد
مدرســـتي كانـــت حيـــاض النهـــى ... قـــرارة العرفـــان دار الرشـــاد
مـــشايخ اليونـــان يأتونهـــا ... يلقـــون في العلـــم إليهـــا القيـــاد
كنـــا نـــسميهم بـــصبيانه ... وصـــبيتي بالـــشيب أهـــل الـــسداد
ذلـــك أمـــسى مـــا بـــه ريبـــة ... ويـــومي (القبـــة) ذات العـــماد
أصـــبحت كـــالفردوس في ظلهـــا ... مـــن مـــصر للخنكـــا لظـــلي امتـــداد
لـــولا حـــلى زيتـــوني النـــضر مـــا ... أقـــسم بـــالزيتون رب العبـــاد

وليتأمل القارئ سحر الترفق في الأبيات الآتية وقد مثل فيها خوف الآباء على أطفالهم من عادية قطار السكة الحديدية:

بنـــي يـــا ســـعد كزغـــب القطـــا ... لا نقـــص الله لهـــم مـــن عـــداد
إن فاتـــك النـــسل فـــأكرم بهـــم ... ورب نـــسل بالنـــدى يـــستفاد
أخـــشى عليـــهم مـــن أذى رائـــح ... يجمعهـــم في الفجـــر والعـــصر غـــاد
صـــفيره يـــسلبني راحتـــي ... ويمنـــع الجفـــن لذيـــذ الرقـــاد
يعقـــوب مـــن ذئـــب بكـــى مـــشفقا ... فكيـــف أنيـــاب الحديـــد الحـــداد
فـــانظر رعـــاك الله في حـــاجهم ... فنظـــرة منـــك تنيـــل المـــراد
قـــد بـــسطوا الكـــف عـــلى أنهـــم ... في كـــرم الـــراح كـــصوب العهـــاد
إن طلـــب (القـــسط) فـــما منهمـــو ... إلا جـــواد عـــن أبيـــه الجـــواد

الجامعة المصرية

عرض شوقي للجامعة المصرية في شعره عدة مرات تحدث عنها في رثائه للمرحوم قاسم أمين فقال:

لله جامعـــة نهـــضت بأمرهـــا ... هـي في المشارق مـصدر الأنـوار
أمنيـة العقـلاء قـد ظفـروا بهـا ... بعـد اختـلاف حـوادث وطـواري
لـو يعلمـون عظـيم مـا ترجـى لـه ... خـرج الـشحيح لهـا مـن الـدينار
العلـم يبنـي الملـك حـق بنائـه ... وبـه تنـال جلائـل الأخطـار
ولقـد يـشاد عليـه مـن شـمم العـلا ... مـا لا يـشاد عـلى القنـا الخطـار

وهي أبيات جيدة لم يعبها إلا إغفال الشاعر لمهمة الجامعات وإن كان أجمل ذلك في قوله:

لـو يعلمـون عظـيم مـا ترجـى لـه ... خـرج الـشحيح لهـا مـن الـدينار

ولشوقي قصيدة سينية ألقيت يوم وضع الحجر الأساسي للجامعة في بولاق الدكرور في ربيع سنة ١٩١٤ جرى أكثرها في مدح الخديو السابق ومدح صاحبة السمو المغفور لها الأميرة فاطمة إسماعيل التي يرجع إليها الفضل في تكوين الجامعة المصرية ولم يخص شوقي الجامعة ولا فكرة الدراسات العالية إلا بهذه الأبيات:

يـا بـاني المجـد وابـن المـولعين بـه ... انـشر ضـياء الهـدى في طـي أرمـاس
وألـق في أرض منـف أس جامعـة ... مـن نورهـا تهتـدي الـدنيا بنـبراس
وانفض عـن الـشرق يأسـا كـاد يقتلـه ... فـلا حيـاة لأقـوام مـع اليـاس

تـرك النفـوس بـلا علـم ولا أدب تـرك المـريض بـلا طـب ولا آس

ولشوقي قصيدة أخيرة في الجامعة ألقيت في ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٢ وفي هذه القصيدة مس شوقي بعض الجامعات بتلميح لطيف ولننظر كيف يقول:

مـا هـذه الغـرف الزواهـر كالـضحى الـشامخات كأنهـا الأعـلام
مـن كـل مرفـوع العمـود منـور كالـصبح منـصدع بـه الإظـلام
تـتحطم الأميـة الكـبرى عـلى عرصـاته وتمـزق الأوهـام
هـذا البنـاء الفـاطمي منـاره وقواعـد لحـضارة ودعـام
مهـد تهيـأ للوليـد وأيكـه سـيرن فيهـا بلبـل وحمـام
شرفاتـه نـور الـسبيل وركنـه للعبقريـة منـزل ومقـام
وملاعـب تجـري الحظـوظ مـع الـصبا في ظلهـن وتوهـب الأقـسام
يمـشي بهـا الفتيـان هـذا مالـه نفـس تـسوده وذاك عـصام

والقصيدة طويلة تنقل فيها الشاعر من غرض إلى غرض إلى أن قال:

قامت ربوع العلم في الوادي فهل للعبقريـة والنبـوغ قيـام
فهـما الحيـاة وكـل دور ثقافـة أو دور تعلـيم هـي الأجـسام
مـا العلـم مـا لم يـصنعاه حقيقـة للطـالبين ولا البيـان كـلام

وفي الأبيات الأولى نجد شوقي قد وصف مهمة الجامعات أدق وصف حين قال:

تـتحطم الأميـة الكـبرى عـلى عرصـاته وتمـزق الأوهـام

والأمية الكبرى تعبير جديد وصف به شوقي حياة أنصاف المتعلمين أو أنصاف الجهال، وفي القطعة الثانية بين أن دور الثقافة والتعليم ليست إلا أجساما أما الروح ففي العبقرية والنبوغ وبدونهما لا يكون للعلم حقيقة ولا للبيان جمال.

ولا نحبّ أن نفوت على القارئ الاستمتاع بتلك الصورة الشعرية التي وصف بها شوقي يوم الفراغ من بناء الجامعة المصرية إذ شبهه باليوم الذي استراح فيه بناة الأهرام حين تم البناء:

يـا مهرجـان العلـم حولـك فرحـة ... وعليـك مـن آمـال مـصر زحـام
مـا أشـبهتك مواسـم الـوادي ولا ... أعيـاده في الـدهر وهـي عظـام
إلا نهـارا في بـشاشة صـبحه ... قعـد البنـاة وقامـت الأهـرام
وأطـال (خوفـو) مـن مواكـب عـزه ... فـاهتزت الربـوات والآكـام

الأزهر الشريف:

عرض شوقي للأزهر في شعره غير مرة وأشهر ما قاله فيه رائيته التي نظمها سنة ١٩٢٤ وينبغي أن نذكر أن شوقي كان يضمر أصدق آيات الولاء للثقافة الأزهرية لأنه مدين أثقل الدين لمن اتصل بهم من نوابغ الأزهريين، وقد ذكر الدكتور محمد هيكل في رسالته المطولة التي رثى بها شوقي في جريدة السياسة أنه سأل الشاعر أن يدله على أثر عربي يشغله عن الآداب الأوربية فدله شوقي على كتاب (الوسيلة) للشيخ حسين المرصفي فلما اطلع الدكتور هيكل على الكتاب عجب ودهش من أن يرى شوقي في قراءة مثل ذلك الكتاب ما يصرف الذهن عن روائع الآداب الأوربية ولو تذكر الدكتور هيكل أن شوقي

كان أزهري الثقافة لما عجب ولما دهش من أن يشير بمطالعة مثل هذا الكتاب لأن هناك كتبا أدبية لغوية وفقهية تعد من أثمن الذخائر عند من يدركون كيف يتصاول جبابرة العقول، ولكن تلك الكتب مغلقة أشد الإغلاق في وجوه من حرموا من الثقافة الأزهرية، تلك الثقافة القوية التي قامت أصولها على شحذ الذهن وتثقيف العقل من الألف إلى الياء أي من أول يوم يدخل فيه الطالب الأزهر إلى أن يجلس مجلس الأستاذ.

تكلم شوقي عن الأزهر فأثنى على أئمته ثم التفت فنهى القارئ عن متابعة من ينكرون كل قديم فقال بعد تمهيد وجيز:

واخشع مليا واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانا وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرم الأمان وكان ظلهم الذرا
من كل بحر في الشريعة زاخر ... ويريكه الخلق العظيم غضنفرا
لا تحذ حذو عصابة مفتونة ... يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض في القديم وهدمه ... وإذا تقدم للبناية قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة ... والعلم نزرا والبيان مثرثرا

ثم انتقل الشاعر فخاطب الأزهر خطابا رقيقا كأنه أنفاس الزهر عند طلوع الصباح.. وسجل فضله في تثقيفه إذ قال:

عين من الفرقان فاض نميرها ... وحيا من الفصحى جرى وتحدرا
ما ضرني أن ليس أفقك مطلعي ... وعلى كواكبه تعلمت السرى

وفي هذه القصيدة عرض الشاعر لمسألة من أدق مسائل التربية والتعليم ذلك بأن الأزهر هو المعهد المصري الوحيد الذي يفتح أبوابه للعميان وللقارئ أن يتأمل طويلا فإن الأعمى أحق الناس بالعطف وقد يكون أهلا لنبوغ عظيم يستره الجهل ويطمسه الإغفال.

وهذا الجانب من التربية الأزهرية جدير بالإعجاب فكم من عميان أطلعهم الأزهر وهم أهدى من المبصرين.

وتأملوا رفق شوقي إذ يقول في خطاب جلالة الملك فؤاد:

نظـــرا وإحـــسانا إلى عميانـــه ... ولكـــن المـسيح مـداويا ومجـبرا
والله مـا نـدري: لعـل كفـيفهم ... يومـا يكـون أبـا العـلاء المبـصرا
لـو تـشتريه بنـصف ملكـك لم تجـد ... غبنـا وجـل المـشتري والمـشترى
إن فـاتهم مـن نـور وجهـك فائـت ... لم يعـدموا لوجـوه بـرك منظـرا
لمـسوا يـداك كمـن يـشاهد مزنـة ... ويـد الـضرير وراءهـا عـين تـرى

انتحار الطلبة

ولم يقف شعر شوقي في التربية والتعليم عند الكلام على دور العلم ومعاهد التثقيف بل اهتم بشئون الطلبة وتحدث عن أزماتهم العقلية والوجدانية ولنصرف النظر عما وضعه لهم من الأغاني المدرسية والأناشيد القومية فإن ذلك يحتاج إلى بحث خاص، ولنكتف بالإشارة إلى رائيته البديعة في انتحار الطلبة ولعل القراء يكفوننا مئونة التنبيه على مواطن الحسن في تلك

القصيدة الرائعة التي يندر مثلها في الأدب الحديث فإن المقام يضيق عن ذلك وحسبنا أن نعرض عليهم منها هذه الشذرات:

ناشئ في الورد من أيامه ... حسبه الله أبا الورد عشر
سدد السهم إلى صدر الصبا ... ورماه في حواشيه الغرر
بيد لا تعرف الشر ولا ... صلحت إلا لتلهو بالأكر
بسطت للسم والحبل وما ... بسطت للكاس يوما والوتر
غفر الله له، ما ضره ... لو قضى من لذة العيش الوطر
لم يمتع من صبا أيامه ... وليالية أصيل وسحر
يتمنى الشيخ منه ساعة ... بحجاب السمع أو نور البصر
ليس في الجنة ما يشبهه ... خفة في الظل أو طيب قصر
فصبا الخلد كثير دائم ... وصبا الدنيا عزيز مختصر

وبعد أبيات طيبة مشتهاة عرض الشاعر لأسباب إعجاز الطالب فقال:

لامه الناس وما أظلمهم ... وقليل من تغاضى وعذر
ولقد أبلاك عذرا حسنا ... مرتدي الأكفان ملقى في الحفر
قال ناس صرعة من قدر ... وقديما ظلم الناس القدر
ويقول الطب بل من جنة ... ورأيت العقل في الناس ندر
ويقولون جفاء راعه ... من أب أغلظ قلبا من حجر
وامتحان صعبته وطأة ... شدها في العلم أستاذ نكر
لا أرى إلا نظاما فاسدا ... فكك العلم وأودى بالأسر
من ضحاياه وما أكثرها ... ذلك الكاره في غض العمر
ما رأى في العيش شيئا سره ... وأخف العيش ما ساء وسر

نـزل العـيش فلـم ينـزل سـوى ... شـعبة الهـم وبيـداء الفكـر
ونهـار لـيس فيـه غبطـة ... وليـال لـيس فـيهن سـمر
ودروس لم يـذلل قطفهـا ... عـالم إن نطـق الـدرس سـحر

والقصيدة طويلة وهي على طولها شهية فليعد إليها من شاء في الجزء الأول من الشوقيات.

واجب المعلم:

ولشوقي قصيدة مشهورة في واجب المعلم يحفظها التلاميذ لأن أساتذة اللغة العربية يسرهم جدا أن يعمل تلاميذهم بقول شوقي:

قـم للمعلـم وفـه التبجـيلا ... كـاد المعلـم أن يكـون رسـولا

وليس يهمنا أن نعيد ما حفظه الطلبة من حق المعلم وإنما يهمنا أن نذكر رجال التربية بقول شوقي في واجب المعلمين:

أمعلمـي الـوادي وساسـة نـشئه ... والطـابعين شـبابه المـأمولا
والحـاملين إذا دعـوا ليعلمـوا ... عـبء الأمانـة فادحـا مـسئولا
كانـت لنـا قـدم إليـه خفيفـة ... ورمـت بـدنلوب فكـان الفـيلا
حتـى رأينـا مـصر تخطـو أصـبعا ... في العلـم إن مـشت الممالـك مـيلا
تلـك الكفـور وحـشوها أميـة ... مـن عهـد خوفـو لم تـر القنـديلا
نجـد الـذين بنـى (المسلة) جـدهم ... لا يحـسنون لإبـرة تـشكيلا
ربـوا عـلى الإنـصاف فتيـان الحمـى ... تجـدوهم كهـف الحقـوق كهـولا
وإذا المعلـم لم يكـن عـدلا مـشى ... روح العدالـة في الـشباب ضـئيلا

وإذا المعلـــم ســـاء لحـــظ بـــصيرة ... جـــاءت عـــلى يـــده البـــصائر حـــولا
وإذا أتـــى الإرشـــاد مـــن ســـبب الهـــوى ... ومـــن الغـــرور فـــسمه التـــضليلا

من البيت إلى المدرسة إلى الحياة

هذا العنوان أصلح من العنوان الذي اختاره شوقي لقصيدته البائية التي سماها (مصاير الأيام) وهي قصيدة نفيسة جدا افتتحها بهذه الأبيات:

ألا حبـــذا صـــحبة المكتـــب ... وأحبـــب بأيامـــه أحبـــب
ويـــا حبـــذا صـــبية يمرحـــو ... ن عنـــان الحيـــاة عليهم صـــبي
كـــأنهمو بـــسمات الحيـــا ... ة وأنفـــاس ريحانهـــا الطيـــب
يـــراح ويغـــدى بهـــم كالقطيـــ ... ـع عـــلى مـــشرق الـــشمس والمغـــرب
فـــراخ بأيـــك فمـــن نـــاهض ... يـــروض الجنـــاح ومـــن أزغـــب
مقاعـــدهم مـــن جنـــاح الزمـــا ... ن ومـــا علمـــوا خطـــر المركـــب
عـــصافير عنـــد تهجـــي الـــدروس ... مهـــارا عرابيـــد في الملعـــب
لهـــم جـــرس مطـــرب في الـــسرا ... ح ولـــيس إذا جـــد بـــالطرب

وكنا نود تحليل هذه القصيدة، ولكن ضاق الوقت والمجال في هذا الحديث.

سرقات شوقي [١]

قضى صديقنا الأستاذ طاهر الطناحي ثلاث سنين وهو مشْغول بجمع سرقات شوقي، فليسمح لي حضرته بتوجيه نظره إلى سرقة جديدة من سرقات شوقي، وهي جديدة من حيث الاستكشاف ولكنها من حيث وقوعها قديمة العهد، وإليه البيان:

كان الناس يعجبون من براعة شوقي في بيان حكمة الجهاد، جهاد الرسول، إذ قال يصاول من وصفوا الرسول بحب الدماء:

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذي حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

وهي أبيات على جانب عظيم من جودة المعنى وقوة الرصف، وكان يظن أن شوقي هو مبدع هذا المعنى، وأنه أول من أفصح عن حكمة الجهاد، ولكن سرقته انفضحت يوم أقيم موسم الشعر في الأسبوع المنصرم، فقد تبين أنه انتهب هذا المعنى من قول الشاعر محمد الأسمر الذي قال:

ودعا إلى الحسنى فلما أعرضوا ... واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فإن بدا ... مستلئما لاقى الطغاة فروعا
والحق ليس بمعتد لكنه ... إن دافعته يد الضلال تدفعا

---

(١) من كتاب الأسمار والأحاديث صفحة ٢٩٢.

ومـــن البريـــة معـــشر لا ينتهـــي عـــن غيـــه حتـــى يخـــاف ويفزعـــا

والأسمر شاعر مجيد، ولشعره أفنان يقطف الناس من ثمارها ما يشتهون. وكان شوقي رحمه الله مغرما بأخذ معاني الشعراء، فإغارته على معاني الأسمر تدخل فيما أثر عنه من الطغيان، ومهمة النقد الأدبي هي رد الحقوق إلى أصحابها وكشف سرقات الشعراء بعضهم من بعض، فلا يتهمنا أحد بالغض من شوقي والعدوان عليه وهو ميت، فإن الحق لا يبالي الأحياء ولا الأموات.

قد يقول معترض: ولكن أبيات شوقي جزء من نهج البردة، وهي قصيدة نظمها شوقي في سنة ١٣٢٧هـ ونحن اليوم في سنة ١٣٥٥هـ أي أنه نظمها منذ نحو ثمانية وعشرين عاما، فكيف يصح اتهامه بالسرقة من الأسمر؟

ونجيب بأن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الأسمر رجل عجوز جدا، بالرغم من تصابيه، وقصيدته التي ألقاها في موسم الشعر نظمها منذ أكثر من ثلث قرن وألقاها في معهد دمياط، ونشرها في مجلة (الأمانة) واطلع عليها شوقي فانتهب منها ما شاء.

ولكن لا بد مع هذا من إنصاف شوقي الذي لا يملك الدفاع عن نفسه بعد أن أسكته الموت، وإنصافه سهل: فقد نص القدماء على أن السرقة لا تعاب دائما، وإنما تعاب حين يسوء الأخذ، أي حين يكون المعنى المسروق ورد في صورة أقل جمالا من الأصل، وتقبل السرقة حين يلطف الأخذ، أي حين يصور المعنى المسروق بصورة أبرع من الأصل، وهذا ما وقع لشوقي: فإن أبياته أجمل

من أبيات الأسمر، وهي كذلك أروع وأرشق، وحسب الأسمر من الفوز أنه كان السابق ولم يكن المسبوق!

أكتب هذا وأنا أعرف أن أنصار شوقي ستضيق صدورهم بما أقول، ولكن لا بأس فقد احتملنا كثيرا من المكاره في سبيل الحق، وعند الله لا عند الناس حسن الجزاء [1].

٢٦ يونيه سنة ١٩٣٦

(١) لم يفطن الأستاذ سلامة موسى إلى جوهر الدعابة في هذه الكلمة فنقلها إلى (المجلة الجديدة) شاهدا على سرقات شوقي!

لمحات من حياة شوقي [١]

سيداتي سادتي:

تفضلت محطة الإذاعة فدعتني للاشتراك في إحياء ذكرى أمير الشعراء.

وقد نظرت فرأيت الكلام على شوقي كثر جدا، وأنا نفسي كتبت في نقد شعره كثيرا، وأخشى أن أقع في الحديث المعاد.

فلم يبق إلا أن أقدم إليكم بعض الصور من حياة ذلك الشاعر العظيم.

كانت شهرة شوقي قد بلغت مبلغا عظيما قبل الحرب العالمية [٢]، ولكن الجمهور كان هواه مع منافسه الخطير حافظ إبراهيم، لأن حافظا كان شاعر الوطنية، وكان من السابقين إلى محاربة الاحتلال، وكان شوقي كذلك شاعرا وطنيا، ولكن مركزه الرسمي في معية سمو الخديو عباس كان يحول بينه وبين الشجاعة التي امتاز بها حافظ في محاربة الاحتلال.

ثم وقع حادث لم يكن في الحسبان، وهو عزل سمو الخديو عباس عن عرش مصر بسبب انضمامه إلى تركيا في الحرب العالمية الماضية.

وفي تلك اللحظة الرهيبة تقدم حافظ إبراهيم فهنأ السلطان حسين بالعرش مع جماعة من الشعراء، ودعاه إلى الثقة بالإنجليز فقال:

---

(١) محاضرة ألقيت في محطة الإذاعة المصرية في أكتوبر سنة ١٩٣٨.

(٢) هذه المحاضرة على صفحات كتاب الأسمار والأحاديث ١٥٦.

ووال الإنجليز فهم رجال ... من الآداب قد نهلوا وعلوا

وحينئذ تلفت الجمهور ينظر إلى ما يصنع شوقي، وكان تخلف عن تهنئة السلطان حسين. وما هي إلا أيام حتى نشر شوقي لاميته المشهورة التي عطفت الجمهور عليه:

الملك فيكم آل إسماعيلا ... لازال ملككم يظل النيلا

وكانت هذه القصيدة شؤما على الشاعر: فقد وقعت فيها أبيات كانت مثارا للتفسير والتأويل، وهي هذه الأبيات:

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم ... فالله خير موئلا وكفيلا
جرت الأمور مع القضاء لغاية ... وأقرها من يملك التحويلا
أخذت عنانا منه غير عنانها ... سبحانه متصرفا ومديلا
هل كان ذاك العهد إلا موقفا ... للسلطتين وللبلاد وبيلا
يعتز كل ذليل أقوام به ... وعزيزكم يلقي القياد ذليلا
دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت ... إلا نتائج بعدها وذيولا
وانفض ملعبه وشاهده على ... أن الرواية لم تتم فصولا

وقد سارت هذه القصيدة في ذلك الحين مسير الأمثال، ولا سيما هذا البيت:

رؤيا علي يا حسين تحققت ... ما أصدق الأحلام والتأويلا

وكان الناس يعدون ذلك من التورية.

وقد انزعج الإنجليز من كثرة القيل والقال، فأمروا بنفي شوقي من البلاد، وكان ذلك النفي فاتحة لعهد جديد من شاعرية شوقي، وابتدأ بقطعته النثرية في وصف قناة السويس، وهي قطعة نادرة النظائر والأشباه.

وكان شوقي يخاف أن ينساه أهل مصر فهو الذي قال: إن مصر بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين، فأخذ يرسل قصائده بلا انقطاع إلى مجلة عكاظ، وكان لهذه المجلة تأثير شديد في توجيه الأدب الحديث، ولكن الجمهور نسيها بسرعة لأن صاحبها كان أفسد ما بينه وبين أكثر الأدباء من صلات.

ثم اتفق لشوقي أن ينظم النونية المشهورة، وهي قصيدة رق فيها حنينه إلى مصر والنيل:

يـا نـائح الطلـح أشـباه عوادينـا ... نأسـى لواديـك أم نـشجى لوادينـا
مـا ذا تقـص علينـا غـير أن يـدا ... قـصت جناحـك جالـت في حواشينا
رمـى بنـا البـين أيكـا غـير سـامرنا ... أخـا الغريـب وظـلا غـير نادينـا
كـل رمتـه النـوى ريـش الفـراق لنـا ... سـهما وسـل علينـا البـين سـكينا
إذا دعـا الـشوق لم نـبرح بمنـصدع ... مـن الجنـاحين عـي لا يلبينـا
فـإن يـك الجنس يـا بـن الطلـح فرقنا ... إن المـصائب يجمعـن المـصابينا
لم تـأل مـاءك تحنانـا ولا ظمـأ ... ولا ادكـارا ولا شـجوا أفانينـا
تجـر مـن فـنن ذيـلا إلى فـنن ... وتـسحب الـذيل ترتـاد المؤاسـينا
أسـاة جسمك شـتى حـين تطلـبهم ... فمـن لروحـك بـالنطس المـداوينا

وفي هذه القصيدة مجد مصر والنيل أعظم تمجيد إذ يقول:

لم يجـر للـدهر إعـذار ولا عـرس ... إلا بأيامنـا أو في لياليـنا

ولا حـوى الـسعد أطغـى في أعنتـه ... منـا جيـادا ولا أرخـى ميادينـا
نحـن اليواقيـت خـاض النـار جوهرنـا ... ولم يهـن بيـد التـشتيت غالينـا
وهـذه الأرض مـن سـهل ومـن جبـل ... قبـل القيـاصر دناهـا فراعينـا
ولم يـضع حجـرا بـان عـلى حجـر ... في الأرض إلا عـلى آثـار بانينـا
كـأن أهـرام مـصر حـائط نهـضت ... بـه يـد الـدهر لا بنيـان بانينـا

وختمها بالشوق إلى أمه في حلوان فقال:

كنـز بحلـوان عنـد الله نطلبـه ... خـير الودائـع مـن خـير المؤدينـا
لـو غـاب كـل عزيـز عنـه غيبتنـا ... لم يأتـه الـشوق إلا مـن نواحينـا
إذا حملنـا لمـصر أو لـه شـجنا ... لم نـدر أي هـوى الأمـين شـاجينا

وفي أواخر سنة ١٩١٩ فيما أتذكر رجع الشاعر من منفاه، وتلهفت لرؤيته، فرأيته أول مرة في منزل المرحوم عبد اللطيف الصوفاني بك بالحلمية الجديدة.

رأيته رجلا خاليا من الأبهة والوجاهة في ملبسه وهندامه، رجلا قليل الكلام كثير الصمت، لا يدل مظهره على شيء، وإن طبقت شهرته الآفاق.

وقد عرفوني يومئذ إليه، فأنشدته قصائد كثيرة من شعره البليغ، وكان يأنس إلى من يروون أشعاره ويعترفون بعظمته الشعرية.

ثم وقع بعد ذلك أن نظم قصيدة في الدعوة إلى قبول مشروع ملنر سنة ١٩٢٠ وقد قرأت تلك القصيدة وأنا في غيابة الاعتقال، فثار غضبي عليه، وصممت على إيذائه حين أجد السبيل إلى تنسم هواء الحرية.

ولما خرجت من الاعتقال في خريف سنة ١٩٢٠ كانت أول ما كتبت مقالة في نقد شوقي بمناسبة قصيدته في مشروع ملنر ونشرتها في جريدة المحروسة، فغضب الشاعر، وأضاف اسمي إلى خصومه الألداء.

ولكن المقادير أرادت غير ما أردت وأراد وإليكم أسوق الحديث:

كان شوقي بعد رجوعه من منفاه لا ينشر قصائده الجياد إلا في جريدة الأهرام، وكانت جريدة الأهرام تسميه (أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع).

وقد احتالت جريدة السياسة للتفرد بنشر تلك القصائد الجياد فأعلنت أنها تقدم خمسين جنيها إلى الجمعية الإسلامية في كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقي.

ورأى شوقي أمام هذه الحيلة البارعة أن لا مفر من أن يختص جريدة السياسة بأشعاره، فقد كانت هذه الحيلة كافية للظفر بمودته لأنها وثيقة نفيسة تشهد بعظمته الشعرية.

انتقلت قصائد شوقي من الأهرام إلى السياسة.

فانتقلت جريدة الأهرام كما انتقل، ولم تعد تسميه (أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع) حين تجيء مناسبة لذكر اسمه، وإنما صارت تسميه صاحب العزة أحمد شوقي بك.

وقد تنبهت إلى هذه الظاهرة مع صديق قديم هو الدكتور سعيد عبده، وكان يومئذ طالبا بمدرسة الطب، فكتبنا نلوم جريدة الأهرام بكلمات نشرناها في جريدة الصباح.

وقد قرأ شوقي ما كتبت وما كتب صديقي سعيد فطرب ورآنا من النوابغ!

وأرسل ابنه حسين إلى صاحب الصباح يدعونا جميعا للغداء بكرمة ابن هانئ في المطرية، ولم يشأ أن يجشمنا مشقة الانتقال فأعطانا موعدا بأحد أندية القاهرة، وجاء بسيارته الفخمة فنقلنا إلى المطرية مكرمين معززين. ومعنا الصديق أحمد علام الذي صار فيما بعد مجنون ليلى في رواية شوقي.

قد أنسى كل شيء، ولكني لن أنسى كيف رأيت شوقي في ذلك اليوم.

كان الرجل جاوز الخمسين، ومع ذلك بقيت له ابتسامة عذبة حلوة تفتن وتشوق، وبقيت في وجهه ملامح من الصباحة تظهر في تونين تشرقان في خديه، وانطلق فحدثنا عن خصوماته القديمة مع الزعيم سعد زغلول، وأنشد أبياتا من قصيدته التي نظمها في السخرية من عرابي يوم عاد من منفاه، وعاتبني على المقال الذي نشرته في الهجوم عليه بجريدة المحروسة، وأوضح الأسباب التي دعت لنظم قصيدته في مشروع ملنر قائلا: إنها استجابة لإلحاح المكباتي والنحاس.

وكان ذلك اليوم بداية صداقة حقيقية بيني وبين شوقي.

وزادت الألفة فكنا نلتقي كل يوم بمكتبه في شارع جلال.

ثم شرع في طبع ديوانه سنة ١٩٢٥ فتلطف واقترح أن أكتب مقدمة لذلك الديوان، وقد قبلت بسرور وارتياح.

ورجعت إلى نفسي فرأيت أن كتابة المقدمات توجب التغاضي عن الهفوات، فأرسلت إلى شوقي خطابا أعتذر فيه عن كتابة مقدمة ديوانه، وعللت الاعتذار بأني وقفت قلمي على النقد الأدبي، وقد أهجم عليه في يوم من الأيام، وذلك لا يأتلف مع الثناء عليه في مقدمة الشوقيات.

وفي مساء اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب لقيت الأستاذ الدكتور طه حسين بمنزله، وكان يومئذ يسكن في مصر الجديدة، فأخبرته بما وقع بيني وبين شوقي، وكان الدكتور طه في ذلك العهد من خصوم شوقي، فتأسف وقال: ليتك حدثتني بذلك قبل أن تكتب اعتذارك، فإن كتابة مقدمة لديوان شوقي شرف عظيم، ولو أنه طلب مني ذلك وأنا من خصومه لسارعت إلى القبول لأن شوقي في رأيي أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبي.

وكان اعتذاري عن كتابة مقدمة للشوقيات بداية قطيعة بيني وبين شوقي، مع أنني أنصفته في كتاب (الموازنة بين الشعراء) إنصافا لم يوفق إليه أحد من النقاد الذين أعجبوا بشعره أشد الإعجاب.

وتعليل غضبه سهل: فقد كان شوقي لا يصدق أن شعره كلام كسائر الكلام فيه المقبول والمردود.

ولم تصرفني هذه القطيعة عن الإيمان بعظمة شوقي.

وزاد في عطفي عليه أنني رأيته رأي العين يحفر قبره بيديه.

رأيته يسرف إسرافا شديدا في نظم الشعر، والشعر يأخذ وقوده من الأعصاب والحواس، رأيته ينظم طوائف من الروايات المسرحية في زمن قليل، فعرفت أن الرجل يقدم صدره لسهام الموت.

وآخر مرة رأيت فيها شوقي كانت بمسرح حديقة الأزبكية في ربيع سنة ١٩٣٢، رأيته نحيلا هزيلا تتموج عيناه، وتضطرب يداه.

وقد هممت يومئذ بتقبيل يمناه، ثم تذكرت ما بيني وبينه فانقبض صدري وانصرفت.

لـو كنـت أعلـم أن آخـر عهـدكم يـوم الفـراق فعلـت مـا لم أفعـل

وعصف الدهر بشاعر النيل حافظ إبراهيم فبكاه شوقي بكاء من ينتظر الموت.

وكذلك كان صيف سنة ١٩٣٢ عهد شؤم، فقد انطفأت فيه حياة شاعرين عظيمين رفعا مصر مكانا عليا.

سيداتي سادتي

عاش شوقي للشعر ومات بالشعر، ففي الساعة التي كان يجود فيها بروحه كانت الآنسة ملك تطرب الجمهور بتغريدة شوقي:

يا حلوة الوعد ما أنساك ميعادي

وفي صباح اليوم الذي جهز فيه نعشه كان المنشد ينشد قصيدته في مصنع مشروع القرش، فهتف هاتف: يحيا شوقي!

وصفق الجمهور، وأغرب في الهتاف.

ولكن هاتفا آخر رفع صوته وقال: يرحم الله شوقي!

وتلفت الجمهور وهو مذعور فعرف أن المقادير انتزعت من بين يديه كنزه الثمين.

سيداتي سادتي

تلكم كلمة وجيزة عن أمير الشعراء، وهي ذكريات حزينة، ومن ذا الذي لا يحزن ولا يبتئس حين يتصور ما تصنع الدنيا بالشعراء؟

وهو رحمه الله قد صور حاله مع دنياه، دنيا الجمال والحب، بالأنشودة الخالدة التي يغنيها تلميذه وصفيه محمد عبد الوهاب:

بلبل حيران بين الغصون

في سبيل الجمال والحب مصرعك، أيها البلبل الذي قتلته أشواك الأزاهير!

وفي ذمة الله شاعر مصر والعروبة والإسلام والشرق.

في ذمة الله من يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهفا بالفؤاد من سلسبيل ... ظمأ للسواد من عين شمس

قصائد الشعراء في تأبين سعد بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة

في مثل هذه الأيام من سنة ١٩٢٧ هجعت مصر بوفاة الزعيم سعد زغلول، والتفتت الأمة العربية إلى هذه الفجيعة الدامية، فنظمت القصائد الجياد في الحزن لوفاة ذلك الزعيم العظيم، نظمها شعراء فضلاء..

قصيدة شوقي [١]

نشرت في صدر الأهرام مع تمهيد نظنه من قلم المرحوم صادق عنبر.

جو القصيدة

لم أكن في مصر يوم مات سعد، وإنما كنت في باريس فلا أعرف أين كان شوقي يوم مات سعد، فهل كان بمصر؟

في القصيدة ما يشهد بذلك، كأن يقول:

قلت والنفس بسعد مائل ... فيه آمال بلاد ومناها

وفيها مع ذلك أبيات تشهد بأنه كان يصطاف في البلاد السورية. كأن يقول:

سائلوا (زحلة) عن أعراسها ... هل مشى الناعي عليها فمحاها

عطل المصطاف من سماره ... وجلا عن ضفة الوادي دماها

فتح الأبواب ليلا ديرها ... وإلى الناقوس قامت بيعتاها

صدع البرق الدجى تنشره ... أرض سوريا وتطويه سماها

يحمل الأنباء تسري موهنا ... كعوادي الثكل في حر سراها

عرض الشك لها فاضطربت ... تطأ الآذان همسا والشفاها

قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم ... كل نفس في وريديها رداها

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٢٥ بتاريخ ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤١.

فهذه الأبيات صريحة في أن الشاعر كان في سوريا حين مات سعد، فكيف جاز له أن يخاطب النعش ولم يكن من المشيعين؟

إنما صنع ذلك ليتسق له هذا الجو الجميل:

يـا عـدو القيـد لم يلمـح لـه	شـبحا في خطـوة إلا أباهـا
لا يـضق ذرعـك بالقيـد الـذي	حـز في سـوق الأوالي وبراهـا
يـا رفاتـا مثـل ريحـان الـضحى	كللـت عـدن بـه هـام رباهـا
وبقايـا هيكـل مـن كـرم	وحيـاة أتـرع الأرض حياهـا
ودع العـدل بهـا أعلامـه	وبكـت أنظمـة الـشورى صـواها
حـضنت نفـسك والتفـت بـه	رايـة كنـت مـن الـذل فـداها
ضـمت الـصدر الـذي قـد ضـمها	وتلقـى الـسهم عنهـا فوقاهـا
عجبـي فيهـا ومـن قائـدها	كيـف يحمـي الأعـزل الـشيخ حماهـا

وهنا يظهر روح القصيدة، فالشاعر يتحدث عن القيد وعدد القيد، ويذكر الراية التي احتضنت نعش سعد، بعبارة لطيفة تعد من أدق العبارات، إذ جعل الراية تحس نار الفجيعة، وتشعر بفقد القائد الذي كان يحمي حماها وإن جردته الأقدار من السلاح.

عيون القصيدة

وفي هذه القصيدة أبيات روائع منها قول الشاعر في فجيعة مصر بدفن سعد:

مـا درت مـصر بـدفن صـبحت	أم عـلى البعـث أفاقـت مـن كراهـا

صرخت تحسبها بنت البشرى ... طلبت من مخلب الموت أباها

وقوله في جزع مصر لفقد الخطيب الذي أسكرها بسحر بيانه حينا من الزمان:

طافت الكأس بساقي أمة ... من رحيق الوطنيات سقاها
عطلت آذانها من وتر ... ساحر رن مليا فشجاها
أرغن هام به وجدانها ... وأذان عشقته أذناها
كل يوم خطبة روحية ... كالمزامير وأنغام لغاها
دهشت مصر ولو أن بها ... فلوات دهشت وحش فلاها

وقوله في مصاير الأحياء:

زورق في الدمع يطفو أبدا ... عرف الضفة إلا ما تلاها
تهلع الشكلى على آثاره ... فإذا خف بها يوما شفاها

وقوله في فضل سعد على الثورة وجعلها خير ما ترك من الذرية:

ولد الثورة سعد حرة ... بحياتي ماجد حر نماها
ما تمنى غيرها نسلا ومن ... يلد الزهراء يزهد في سواها
رقد الثائر إلا ثورة ... في سبيل الحق لم تخمد جذاها
قد تولاها سبيا فكفت ... راحتيه وفتيا فرعاها
أعلمتم بعد موسى من يد ... قذفت في وجه فرعون عصاها
وطئت نادبة صارخة ... شاه وجه الرق يا قوم وشاها

وقوله في أخلاق سعد:

أيــن مــن عينــي نفــسي حــرة ... كنــت بــالأمس بعينــي أراهــا
روعــة النــادي إذا جــدت فــإن ... مزحــت لم يــذهب المــزح بهاهــا
يظفــر العــذر بأقــصى ســخطها ... وينــال الــود غايــات رضــاها
ولهــا صــبر عــلى حــسادها ... يــشبه الــصفح وحلــم عــن عــداها
نــست أنــسي صــفحة ضــاحكة ... تأخــذ الــنفس وتجــري في هواهــا
وحــديثا كروايــات الهــوى ... جــد للــصب حنــين فرواهــا
وقنــاة صــعدة لــو وهبــت ... للــسماك الأعــزل اختــال وتاهــا

تلك عيون هذه الشوقية وما زاد فهو معان يكررها شوقي في أكثر مراثيه وإن كانت تجل عن الابتذال.

أحمد شوقي أمير الشعراء [١]

حضرت الاحتفال بوضع حجر الأساس للجامعة المصرية في نشوة الربيع في سنة ١٩١٤ وكنت بجانب الخديوي عباس وبيده (المسطرين) ليضع الحجر الأساسي، وهي أول وآخر مرة رأيت فيها الخديوي عباس وأذكر أنه كان ضخم الرأس وأصبح الوجه ومتين البيان.

في تلك الحفلة ألقيت قصيدة من شعر شوقي، ألقاها زكي عكاشة وكان رخيم الصوت وكان شوقي حاضرا ولكنني لم أجد من يرشدني إلى مكانه لأسلم عليه.

ثم شبت نار الحرب العالمية الأولى والخديوي عباس في تركيا فمنعه الإنجليز من الرجوع إلى مصر، وأعلنوا أنه مخلوع، وأقاموا مكانه السلطان حسين كامل رحمه الله، أقيم الاحتفال في ميدان عابدين ولم أستطع شهود ذلك الاحتفال ولكنني أتذكر أن جرائد ذلك الوقت قالت: إنه وجه إلى المحتفلين به خطبة وجيزة جاءت فيها الحكمة المصرية (على قد حصيرتك مد رجليك) وكان يوحي بالاعتدال، وفي اليوم التالي نشرت جريدة الأهرام ثلاث قصائد في تهنئة السلطان حسين: قصيدة أحمد شوقي وقصيدة حافظ إبراهيم وقصيدة أحمد نسيم.

---

(١) جريدة البلاغ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧.

يقول زكي مبارك: هي مقالة أهديتها إلى الأستاذ محمد عبد القادر حمزة لغرض لا يخفى على قراء البلاغ.

في ذلك الوقت كنت طالبا بالأزهر الشريف وكنت من تلاميذ الشيخ محمد حسنين العدوي والد الأستاذ حسنين محمد مخلوف.

كان الشيخ يقيم بمنزل فسيح في حارة (أم الغلام) وكنت أقيم بغرفة في منزل قريب من ذلك المنزل وكنت حين أرى باب الشيخ مفتوحا أدخل فأسلم عليه، لأن الشيخ لمحني مرة وأنا سائر بدون التفات فناداني وقال: أعرب هذا البيت يا شيخ زكي:

تمـــرون الـــديار ولم تعوجـــوا كلامكمـــو عـــلي إذن حـــرام

فابتسمت وقلت: المشكلة هي أن الفعل (مر) تعدى بنفسه وكان من الذوق أن يتعدى بالباء، وسألاحظ هذا المعنى فأعرج على هذه الدار حين أمر عند الطريق.

مررت على الدار ومعي جريدة الأهرام لأقرأ تلك القصائد على الأستاذ مخلوف وهو آية من آيات الذكاء، وهو الذي صار مفتي الديار المصرية لهذا العصر خلفا للرجل العظيم الشيخ عبد المجيد سليم.

قال الأستاذ: ما رأيك يا شيخ زكي في هذه القصائد؟

فقلت: قصيدة نسيم قصيدة صغيرة وقصيدة حافظ فيها سقطة وطنية، فقد أوصى السلطان حسين فقال:

ووال الإنجليـــز فهـــم رجـــال مـــن الآداب قـــد نهلـــوا وعلـــوا

أما قصيدة شوقي فهي القصيدة.

فقال الشيخ حسنين مخلوف: إن الإنجليز سينفون شوقي لهذه القصيدة، ففيها حض على الثورة وفيها تعريض بالسلطان حسين.

وقد تحقق رأي الأستاذ فنفى الإنجليز شوقي بعد أسبوعين.

لقد عرف شوقي كيف يختار منفاه، وهو أسبانيا الجنوبية، وهي الأندلس أقام فيها المسلمون ثمانية قرون وقد استوحى الأطلال فقال ما قال.

وحين أعلنت الهدنة في سنة ١٩١٨ رجع شوقي إلى الوطن ليقول:

ويـا وطنـي لقيتـك بعـد يـأس كـأني قـد لقيـت بـك الـشبابا

وفي سنة ١٩١٩ كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار وكان يشرف عليها المغفور له عبد اللطيف الصوفاني الوكيل الثاني للحزب الوطني، أما الوكيل الأول فهو علي فهمي كامل الذي مات وهو يؤبن محمد فريد.

وكنت أزور الصوفاني في كل مساء لأدرس معه ما يجب أن أكتب في الصباح، فقد كان أصيل الرأي وكان آية في صدق الوطنية وكان منزله مأهولا بالزائرين.

قال لي الشيخ عبد ربه مفتاح وكان رفيقي في الثورة: هل تعرف هذا الرجل الجالس هناك؟

فقلت: لعله مسكين من المساكين.

فقال: هذا هو أحمد شوقي أمير الشعراء مضيت للتسليم على الشاعر وقلت: في جيبي ثلاثة جنيهات وأنا أعطيها لك لتشتري بدلة تعفيك من هذه البدلة المبهدلة، وإن كنت حضرت لاستجداء الصوفاني بك فأنا أغنى من هذا الصوفاني، وأنا شاعر مثلك، والشعراء كالفقراء يعطف بعضهم على بعض.

ضحك شوقي ضحكة قوية وقال: هذه أول مرة أضحك فيها بقلبي، وأحب أن أتشرف بمعرفة الأستاذ، فقلت: أنا الشيخ زكي مبارك ملك الشعراء، وأنت أمير في مملكتي ومن واجبي أن أعطف عليك.

قال شوقي: أنشدني بيتا من شعرك يا أستاذ فأنشدت:

أنت ورد فهب محبك شوكا ... أترى الورد عاش من غير شوك

فقال: هذا شعر، ثم أنشدته هذا البيت:

لقد صددنا كما صددتم ... فهل ندمتم كما ندمنا

فقال: هذا شعر بديع ثم أنشدته هذا البيت:

أين قلبي وأين آثار قلبي ... من خفوق يعتاده ووجيب

فقال: هذا معنى كنت أحوم عليه، ولم أصل إليه وأنا أحب أن تدوم الصلة بيني وبينك يا أستاذ.

كان شوقي يسكت الناقدين المتحاملين بالأموال، وقد كان من أكابر الأغنياء وكان يجزل العطاء على من يثنون عليه وقد استغرب حين رآني أرفض

عطاياه وقال: لقد أحياني الله فعشت حتى رأيت ناقدا يقول كلمة الحق لوجه الحق.

فقلت: وأنا أيضا عشت حتى رأيت وجه أمير الشعراء فلله الحمد وعليه الثناء.

كانت جريدة الأهرام تنشر قصائد شوقي في صدرها وتقول: قال أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع أحمد شوقي، وغارت جريدة السياسة فأعلنت أنها تقدم إلى الجمعية الخيرية الإسلامية خمسين جنيها ثمنا لكل قصيدة ينشرها فيها أمير الشعراء أحمد شوقي.

وبهذا انتقل شوقي من جريدة الأهرام إلى جريدة السياسة.

وجاءت فرصة لقصيدة من قصائد شوقي فقالت جريدة الأهرام: ألقى أحد الناس قصيدة نظمها الشاعر أحمد بك شوقي.

كنت أطبع كتاب البدائع، في مطبعة الصباح فرأيت أن أكتب في المجلة اعتراضها على ما صنعت جريدة الأهرام وشاركني في الاعتراض الدكتور سعيد عبده وكان طالبا مزمنا في مدرسة الطب.

قرأ شوقي مقالتي ومقالة الدكتور سعيد عبده فقال للأستاذ القشاشي بالتليفون: إنه يحب أن يرانا عند اللبان بشارع الألفي عند الظهرية.

حضرنا قبل الميعاد فأحضر اللبان صحنين من اللبن الزبادي وبجانب كل صحن طبق من السكر المدشوش قال الدكتور سعيد: أنا لا أعرف هذا، فقلت:

يظهر أنه يجب أن تخلط الزبادي بهذا السكر المدشوش وخلطت السكر بالزبادي وأكلت حتى شبعت.

وبعد لحظات جاء شاعرنا شوقي فطلب صحنا من الزبادي بجانبه سكر مدشوش، فوضع السكر على اللبن وأكل، فندم سعيد على أن لم يسمع كلامي، ثم حضر مصطفى القشاشي وأحمد علام فمضينا في سيارة شوقي إلى كرمة ابن هانى وكانت بالمطرية وفي الطريق دار الحديث من شجن إلى شجون وأتذكر أنه كان عاتبا على سعد زغلول وأنه كان معجبا بعبد اللطيف المكباتي، وأتذكر أيضا أنه كان معجبا بالدكتور طه حسين، وقد غضب عليه فيما بعد.

كانت كرمة ابن هانئ بمعنى الكلمة وابن هانئ هو أبو نواس وكان شوقي من المعجبين بأشعار أبي نواس، وقد عارضه بقصيدة من قصائده الجياد.

انطلق شوقي يتحدث، ولم يكن من عادته أن يطيل الحديث تحدث في شئون كثيرة ضاعت من ذاكرتي مع الأسف وكان من لحظة إلى لحظة يقوم لمناجاة (سيس) وهو اللقب الذي خلعه على ابنه حسين.

ثم حضرت المائدة وهي أعاجيب من الألوان وقد دهشت حين رأيت شوقي يأكل الحمام بالشوكة والسكين ولا يبقي منه شيئا، وقد استأذنته في أن آكل الحمام بيدي فسمح، لأني لم أكن أعرف أن الحمام يؤكل بالشوكة والسكين.

وفي العصرية مضى بنا شوقي بسيارته إلى القاهرة، واستوقف السائق لحظة ليقول:

هذه أملاكي بين المطرية والقاهرة فقلت: إنها أملاكي أنا وإن اعترضت فسأرفع عليك قضية.

فقال شوقي: إنها هبة مني إليك، فقلت: أنت تهب ما لا تملك يا أمير الشعراء.

كان شوقي يقول: أنا أحبك يا ذكتور مبارك، أحبك إلى حد العشق وأشتهي أن أراك كل يوم، فما عرفت في حياتي رجلا أصدق منك، فهل تبخل بأن أراك كل يوم؟

فقلت: أنت أستاذي يا شوقي باشا، وكنت عنده رتبة أعظم من رتبة الباشوية.

وقال شوقي: أنا أنتظرك في الساعة الحادية عشرة في الصباح بمكتب الدائرة ٨ شارع جلال وفي الساعة الحادية عشرة بالضبط يحضر شوقي وقد أعد له خادمه فنجانا من الشاي يثور عليه البخار وأقراصا من (الكرواسان) يهديها إلى زائريه بغير حساب ثم يقرأ الخطابات الواردة عليه بسرعة ويمضي معي إلى حيث يشاء.

نمضي من هنا ونمضي من هناك، ونجتاز جميع الدروب إلى أن نصل إلى جسر قصر النيل.

هنالك يقف شوقي فيبكي بكاء الأطفال ويغمغم (من أي عهد في القرى تتدفق).

وهي أعظم قصيدة قالها شاعر في وصف النيل ثم تتخاذل قواه فيرجو أن أحمله إلى المكتب وهو في ذهول ما بعده ذهول وكان شوقي نحيفا إلى حد الهزال، صحبت شوقي مدة تزيد على سنتين عرفت الشاعر معرفة حقيقية، وكان تحفة في سلامة الذوق ومتانة الأخلاق، طلب مني رحمه الله أن أكتب مقدمة للشوقيات فاعتذرت بأن المقدمات يراعى فيها التلطف، وأنا أكره أن أتقيد برأي قد أنكره فيما بعد حين أجد قصيدة ضعيفة توجب الهجوم عليه فقال شوقي بالفرنسية جملة معناها (وأنا لا أفرض أي شيء) وفي المساء لقيت الدكتور طه حسين وكان جاري بمصر الجديدة وقصصت عليه ما دار بيني وبين شوقي فتجهم وجهه وقال: يظهر أن رأيي فيك لن يتغير يا دكتور زكي، وهو أنك رجل عبيط، أنا خاصمت شوقي وخاصمني وهو يغدق الأموال على كتاب مأجورين يشتموني في الجرائد والمجلات، ولو أنه اقترح أن أكتب مقدمة الديوان لرأيت هذا من التشريف لأن شوقي في رأيي هو أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبي.

فقلت: انا أرى أنه أشعر من المتنبي فقال الدكتور طه: ما دام هذا رأيك فما الذي يمنعك من أن تكتب المقدمة؟! فقلت: لأحتفظ بحقي في نقده حين يخطئ.

فقال الدكتور طه: إن شوقي لا يخطئ فقلت: اسمع يا سيدي الدكتور هذا البيت وهو من قصيدة قالها شوقي بعد العودة من منفاه:

وكل مسافر سيئوب يوما إذا رزق السلامة والإيابا

فقال الدكتور طه: هذا بيت جميل فقلت: إن سيدي الدكتور من ذرية الرسول عليه الصلاة والسلام وفيه قال الله في كتابه العزيز: {وما علمناه الشعر وما ينبغي له} فالمفروض يا سيدي الدكتور أن المسافر سيئوب إذا رزق السلامة والإيابا، فليس في البيت معنى جديد. فضحك الدكتور طه ودعا زوجته وقال لها بالفرنسية خلاصة الحديث فابتسمت وقالت: جزاؤه فنجان من الشاي وأنا أدعوه للمشاركة في طعام العشاء فقلت: أنا اتغديت والطعام بالليل يؤذي أمعائي.

في سنة ١٩٢٧ أقيمت حفلة تكريمية لشوقي حضرها وفود من شعراء الأقطار العربية، كان موسما من ألطف المواسم، والاشتراك فيه جنيه مصري، فدفعت الجنيه عن طيب خاطر إكراما لأمير الشعراء، كانت الحفلة في دار الأوبرا الملكية وفيها ألقى حافظ إبراهيم قصيدة جاء فيها:

أمـير القـوافي قـد أتيـت مبايعـا ... وهـذي وفـود الـشرق قـد بايعـت

فوثب شوقي وقبل حافظا على خديه، وكان غريبا أن يعترف حافظ بشاعرية شوقي فقد كان حافظ أذكى من شوقي بمراحل طوال، وأشعر منه بلا جدال، وسيقول التاريخ بما أقول بعد زمن أو أزمان.

كانت الحفلة الختامية بكرمة ابن هانئ الجديدة وهي على شاطئ النيل في أشباه الحفلات الرسمية، وتخيرت مكاني فاخترت مكانا ليس فيه خمر، وكان المكان هو الحجرة التي يجلس فيها المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويش أعظم من كتب في ذم الخمر، ولكنني أسمع همسا في أذن الشيخ جاويش من الشيخ محمد عبد المطلب وهو يقول: هذا زكي مبارك تلميذ طه حسين، فوقفت وقلت

للشيخ جاويش: أنا اخترت هذا المكان من أجلك، لأشرب معك الماء القراح، لكن الشيخ عبد المطلب يغتابني عندك، لأنني دفعت شره عن الدكتور طه حسين بمقالات نشرتها في جريدة المقطم والأهرام، وهي مقالات أملاها قلبي على قلمي، وسأمضي لأسكر مع السكارى، فليس لبني آدم في هذا العصر أخلاق.

قال الشيخ جاويش وهو يسترضيني: إن الشيخ طه كان محررا في جريدة الهداية الإسلامية وهي مجلتي، وأعظم مقالة نشرها عندي هي (النهي عن التزاوج من الأجنبيات) فكيف يتزوج من أجنبية؟ فقلت: إن الزمن تغير يا فضيلة الأستاذ.

فقال الشيخ جاويش وهو غضبان: إن الأتراك لا يتزوجون بناتنا لأننا فلاحون، والمغاربة لا يتزوجون بناتنا لأننا مصريون، وكان يجب أن تلاحظ أنني أبغض المسيو طه حسين.

فقلت: أنا أيضا أبغض هذا المسيو، فبيني وبينه خلاف، وستسمع أنباءه بعد حين.

فضغط الشيخ جاويش على يدي وقال:سيجعل الله كرسي الأستاذية بكلية الآداب إليك وستكون أنت عميد كلية الآداب وليس على الله بعزيز أن يجعلك مدير الجامعة المصرية.

فقلت: هذه بشارات لطيفة، ولكن الشيخ عبد المطلب جرحني، وسأسكر مع السكارى لأستريح من هذا التجريح، فأنشد الشيخ جاويش:

إذا استـــشفيت مـــن داء بـــداء فأقتـــل مـــا أعلـــك مـــا شـــفاكا

فقلت: لن أشرب الخمر إكراما لك ولكنني أحب أن أخرج من هذا المكان.

نكتب التاريخ قبل أن يضيع التاريخ.

خرجت إلى حجرة ثانية فوجدت حمد باشا الباسل وعلي باشا الشمسي جالسين وأمامهما زجاجات فيها ماء أصفر، فتوهمت أنه الويسكي، وقد دعاني الشمسي باشا إلى الجلوس ولكني اعتذرت. وكان الباسل باشا والشمسي باشا صديقين حميمين، فقد رأيتهما بعد رجوعي من باريس في سنة ١٩٣١ ينادمان في مشرب بافاريا، وكان مكانه بشارع فؤاد في المكان الذي تقوم فيه اليوم عمارة ضخمة تحتها قهوة الشمس، وهي قهوة سخيفة لأنها لا تقدم للزبائن غير القهوة المرة، أو لأنها كانت ملتقاي مع الدكتور منصور فهمي باشا حين يطيب له أن يأخذ رأيي في بعض الأمور، كنت أستحيي من شرب الخمر في حضرة الدكتور منصور، كان هو يشرب الخمر وأنا الماء وقد عزم مرة ومرتين أن أشرب معه فرفضت بحجة أنه لا يجوز للتلميذ أن ينادم الأستاذ، ولست تلميذ الدكتور منصور، وإنما أنا ولده الروحي، ولا أعرف كيف كانت تصير حياتي لو لم أعرف هذا الأستاذ النبيل.

وأنا مدين للدكتور منصور فهمي بذيون ثقال، فهو الأستاذ الذي رباني كان حفظه الله يملي الأسئلة التي ستواجهني في امتحانات الليسانس ويطلب

مني أن أعدها إعدادا قويا فأتعب في تحضير الإجابات تعبا لا يخطر في البال وذلك أسلوب في التعليم نقلته عن الدكتور منصور فهمي.

أترك هذا وأذكر أني رأيت في الحفلة جماعة من تلاميذي بالجامعة المصرية وأمام كل تلميذ زجاجة من الويسكي فتقززت مما رأيت، وامتنعت عن الشراب وكان يجب أن يغني الموسيقار محمد عبد الوهاب فحضر شوقي ليسمع، حضر وهو نشوان، وكان في الحفلة المغني صالح عبد الحي وقد شرب حتى سكر فكان يصيح: غني يا محمد غني، غني يا ولد يا حلو يا جميل..؟

جناية زوجية

كان سعد زغلول هو رئيس الشرف للحفلة التي أقيمت لشوقي ثم تظهر جريدة البلاغ وفيها مقالة افتتاحية بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد وبها زعم أن الأمة التي تحتفل بشوقي لا تعرف معنى الكرامة، فدعاه سعد إليه وقال: كان يجب يا أستاذ أن تلاحظ أن الحفلة تحت رياستي فقال العقاد: أنت لا تفهم الشعر يا باشا، فقال سعد: أنا لا أعرف الشعر، وإنما أعرف الذوق وأحب أن تكون هذه آخر مرة تزور فيها بيت سعد زغلول.

ودعا سعد باشا الأستاذ عبد القادر حمزة لزيارته ليقول: في صدر جريدة البلاغ تنشر مقالة في شتم أمير الشعراء أحمد شوقي؟ فقال الأستاذ عبد القادر حمزة: الشعر للشعراء وأنا أبيح لكل كاتب أن يكتب ما شاء.

سعد باشا في تحرير البلاغ

كان سعد زغلول يعرف أن الرجل عبد القادر حمزة فقير، إلا من الشرف فكان يشاركنا في تحرير جريدة البلاغ، كل ما نشره البلاغ تحت حرف (س١٠) فهو من إنشاء سعد زغلول، وهي مقالات محفوظة بمجموعات البلاغ، وذلك مما يجهل أبناء هذا الجيل، وما أكثر ما يجهل أبناء هذا الجيل.

الكاتب الجبار

زعم الأستاذ العقاد بعد موت سعد باشا أن سعدا كان يسميه الكاتب (الجبار) وكنت أستغرب من هذا وأقول: كان يجب أن يذاع هذا الوصف وسعد حي، أما التقول على سعد بعد الموت فهو ضرب من الخيال ورأيي في العقاد ليس بالرأي الطيب، فقد كنا زميلين في تحرير جريدة البلاغ وزميلين في تحرير مجلة الرسالة، وما قرأت مقالة أرضتني فهل كان سعد من الجهل بحيث يخلع عليه لقب الكاتب الجبار؟

ثم تظهر الحقيقة المؤذية، والقول الحق إيذاء في إيذاء.

ظهرت الحقيقة حين أصدرت مجلة الثقافة عددا خاصا عن سعد زغلول، وكان الأستاذ محمد كامل سليم سكرتير سعد، وكان يدون مذكرات يومية عن حياة سعد، فدعته مجلة الثقافة لتقديم كلمات في تلك المذكرات. قال الأستاذ كامل سليم في مذكراته أن سعدا كان يسمي الأستاذ عبد القادر حمزة (الكاتب

الجبار) وأنه سأل سعد باشا عن سبب تسميته بهذا اللقب فقال: عبد القادر كاتب مفحم وكتابته لا تقوم على الزخرف وإنما تقوم على المنطق.

عبد القادر وشوقي

كنت أرسل إلى البلاغ مقالات من باريس، فأرسلت ثلاث مقالات في نقد الجزء الثاني من الشوقيات وكان الدكتور زكي حسن قدمه إلي لأطلع عليه فلم يعجبني باب النسيب، فكتبت تلك المقالات.

ولكن خطابا يصل بالبريد الجوي بخط الأستاذ عبد القادر حمزة وفيه يقول:

إن شوقي مريض ونقد شعره من كاتب في مثل منزلتك الأدبية يؤذيه، وحين يعافيه الله من المرض سأنشر هذه المقالات بنصها الأصيل وحين مات شوقي رثاه عبد القادر بمقالة افتتاحية في البلاغ قال فيها: إن شوقي فتح لمصر مماليك لا تستطيع فتحها بالجيوش والأساطيل، كان عبد القادر يحترم شوقي وكان ينشر قصائده في البلاغ بحروف كبيرة ومشكولة، ولم يصنع هذا الصنيع مع غيره من الشعراء.

سألت شوقي مرة عن رأيه في عبد القادر فقال: هذا كاتبنا الأول.

بين شوقي وحافظ

كان التنافس شديدا بين شوقي وحافظ، وكان شوقي يغار من حافظ بصورة بغيضة، ولم يسمح بأن يقول فيه كلمة جميلة.

كان حافظ رئيسي يوم كنت موظفا بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، وكان يختصني بالعطف ويسمعني ما ينظم من الشعر، وفي كل قصيدة يقول: هذه آخر قصيدة يا مبارك فلتكن أعظم قصيدة وعليك أن تصحح ما فيها من الأغلاط، حاولت أن أصحح فلم أستطع، فقد كانت طاقة حافظ الشعرية طاقة قوية وكنت بالنسبة إليه طفلا لم يشب عن الطوق.

وكان عندي من الشيطنة ما يبيح التندر بحافظ فأقول: أخبرني أحد أصدقائي أنه رأى شوقي يدخن السجائر في الطريق، فينزعج حافظ ويقول: إن هذا المجنون ينظم شعرا، وتلك داهية الدواهي فتعال معي.. (ويدخل فيأخذ أذنا من مدير الدار وهو المغفور له الدكتو صادق أبو هيف الذي نقد مشروع ملنر بأبحاث جيدة أوجبت أن يتلقى من سعد زغلول خطاب ثناء) نسير إلى النيوبار فيطلب حافظ (شيشه) ويكركر فيها بأسلوب فظيع، ثم يقول: أنا أعرف أنك من أصدقاء شوقي، ولا أعرف كيف تصادق هذا المخبول، إن الناس منذ خمسين سنة يقولون: حافظ وشوقي كما يقولون بيض وسميط، فكيف يريد شوقي أن ينفصل مني؟ فأقول: أنا لا أعرف النمائم، ولن أبلغ شوقي بهذا الكلام.

الموت يميت الأحقاد

كان شوقي يصطاف بالإسكندرية وكان يختار الجلوس بالقهوة التجارية ليستوحي الأمواج فقرأ في جريدة البلاغ أن حافظا مات فغام وجهه وأنشأ أعظم قصيدة قالها في الرثاء:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة ... قدر وكل منية بقضاء
وودت لو أني فداك من الردى ... والكاذبون المرجفون فدائي
الناطقون عن الضغينة والهوى ... الموغرو الموتغ على الأحياء
من كل هدام ويبني مجده ... بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطموك وإنما بك حطموا ... من ذا يحطم رفرف الجوزاء
انظر فأنت كأمس شأنك باذخ ... في الشرق واسمك أرفع الأسماء
يا مانح السودان شرخ شبابك ... ووليه في السلم والهيجاء
لما نزلت على خمائله ثوى ... نبع البيان وراء نبع الماء
قلدته السيف الحسام وزدته ... قلما كصدر الصعدة السمراء

وهذه قصيدة نظمها شوقي وهي في الجزء الثالث من الشوقيات فليرجع إليها من يريد الاستقصاء، فأنا لا أريد إبكاء قراء البلاغ بدموع أحمد شوقي على غريمه حافظ إبراهيم.

شيخنا شوقي

كنت ألفت مع الدكتور زكي أبو شادي جمعية شعرية سميناها جمعية أبوللو، واخترنا أن يكون الرئيس أحمد شوقي أمير الشعراء وكانت دار الجمعية بمنزل الدكتور أبو شادي بالمطرية، وكان شوقي يحضر لحظات ثم ينصرف، وكان الدكتور أبو شادي يرجوه أن يسمع القصائد التي يجوز نشرها في المجلة فيقول: الدكتور زكي مبارك فيه الكفاية، فأقبل يده كما كنت أقبل يد أبي.

وكان شوقي في آخر أيامه يقضي في كل مساء لحظة أو لحظتين بجريدة الجهاد، لأن الأستاذ توفيق دياب سمى جريدته بلفظة من ألفاظ شوقي: إن الحياة عقيدة وجهاد، خرج شوقي من دار الجريدة وهو مكروب فتعشى في مطعم الكورسال ومضى إلى بيته ليموت، في اللحظة التي مات فيها شوقي كانت الآنسة ملك تغني: يا حلوة الوعد ما نساك ميعادي، وهي قصيدة أهداها شوقي إلى ملك بخطه الجميل، وفي صباح الجمعة كان يجب أن أحضر حفلة الافتتاح بمشروع القرش في العباسية لأرى وجه الدكتور علي باشا إبراهيم، ولألقي قصيدة شوقي بصوتي ولكن ملحق جريدة الجهاد يصل إلينا على غير ميعاد وفيه أن شوقي مات. مضيت بسرعة إلى البيت فوجدت الدكتور أبو شادي في انتظاري وعليه ثياب سود.

قلت: عظم الله أجرك يا دكتور زكي، فقال: وعظم الله أجرك يا دكتور زكي، مضينا ننتظر وصول النعش بميدان الإسماعيلية في الساعة الرابعة من ذلك اليوم المشئوم، أراد الحانوتية أن يحملوا النعش فرفضنا أن يحملوه وتقدمت أنا والدكتور أبو شادي فحملنا النعش وكان أخف من ريش النعام، لم يكن المشيعون يزيدون عن أربعة عشر شخصا.. ثم جاءت سيارة تنقل جثمان الشاعر إلى مثواه الأخير فأخذنا سيارة ومضينا معه إلى القبر وألقيت عليه آخر نظرة.

كيف كان يعيش شوقي؟

كان رحمه الله مدمنا على التدخين وكان يضع السيجارة في مبسم من الكهرمان، وما رأيته بدون سيجارة وكان يشرب الشاي من وقت إلى وقت

وكان مغرما بأكل البيض كان يأكله نيئا عند نظم الشعر، وبه أوصاني ولكن الله ابتلاني بالمصران الأعور فمنعني هذا الغذاء النى لأن صفار البيض يرقد في المصران، ولم يكن شوقي يستحم بالماء كما يستحم الناس والحيوان وإنما يستحم بالكولونيا، وكانت خادمته هي زوجته وتقدر مواعيده الغالية، ولم يكن شوقي يفطر في البيت وإنما يمضي مع الشروق فيفطر في مطعم صولت بشارع بولاق واسمه اليوم شارع فؤاد وكان في مكان يجاور القهوة المسماة بالأمريكين. ومما يغيب عن بعض العرب أن الأمريكين ليس معناها الأمريكيون وإنما معناها الشرب على الطريقة الأمريكية وهي أن يشرب الشاربون وهم واقفون، ولهذا ميزة عظيمة وهي إعفاء الشاربين من دفع البقشيش وهو في بعض الأحايين ثقيل، وكنت أشرب بهذه الطريقة في مشارب باريس، حين رأيت امرأة مجنونة تمسك بخناقي وتقول: إلى البار الأمريكي يا جان، إلى البار يا جان، وقد تخلصت منها بصعوبة وهربت وأنا بحمد الله من عقلاء المجانين.

وكان شوقي يحب أبناءه حبا شديدا، وكانت أول مواليده اسمها أمينة وكان يضع صورتها في مكتبه وقد رأى طفلة في سنها وجمالها وهو في الباخرة فقال:

هـــذه نـــور الـــسفينة　　هـــذه أخـــت أمينـــة

وكان رحمه الله يعطي أمينة كل ما في جيبه ويقول:

وكـم قـد خلـت مـن أبيـك الجيـوب　　وليـــست جيوبـــك بالخاليـــة

وهي قصيدة لم تسجل في الشوقيات وبعد أمينة جاء علي فقال:

صـــار شـــوقي أبـــا عـــلي　　في الزمـــان الـــترللي

وهي من القصائد التي أغفلها صاحب الشوقيات وكان مفتونا بشرب الويسكي ولم يكن يشربه إلا بعد منتصف الليل في البيت:

رمـــضان ولى هاتهـــا يـــا ســـاقي مـــشتاقة تـــسعى إلى مـــشتاق

ولم يكن يعرف ما رمضان أو شعبان فجميع الأشهر شوال.

أنطون الجميل

هو الأديب الفاضل بحق وصدق أنطون الجميل باشا رئيس تحرير جريدة الأهرام وهو من أكابر المؤمنين بعبقرية شوقي وقد أكرمه في الحياة وبعد الممات.

ألقى محاضرة في الإسكندرية بالفرنسية عن شوقي زعم فيها أن الشعر العربي انقرض بعد شوقي فمضيت إلى بيتي ونظمت قصيدة بين الحب والحرب وهي قصيدة أعظم من جميع قصائد شوقي، موحيا وهو في دار الخلود.

زكي مبارك